الرب والله وجوجو



الربُّ والله وجوجو

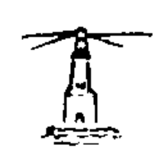
الأديان في إفريقية المعاصرة

الربُّ والله وجوجو

الأديان في إفريقية المعاصرة

تأليف
جاك مندلسوت

ترجمة
إبراهيم أسعد محمد



دار المعارف بمصر

تليجرام

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

باحثون

محمد خطاب

تليجرام

هنا

سور الأزبكية

بسم الله الرحمن الرحيم

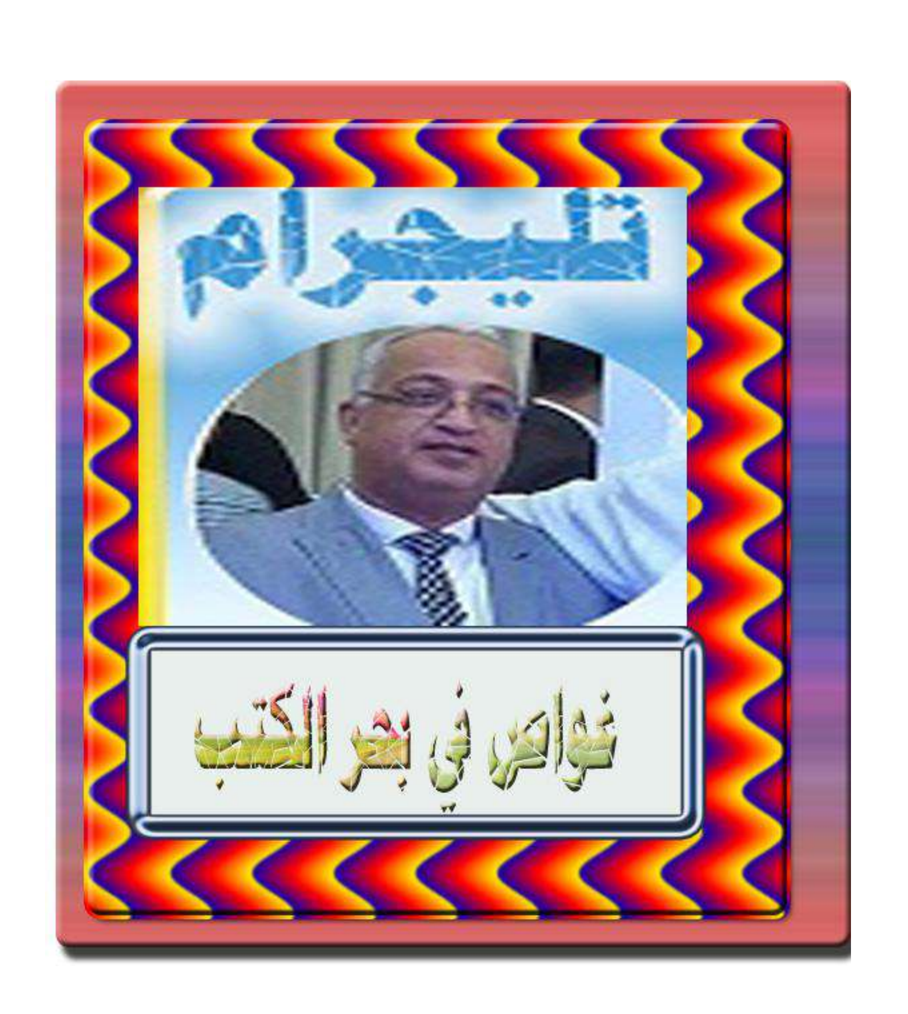
الإهداء

إلى الفئة القليلة من الرجال والنساء فى كل مجتمع إفريقى الذين يتلهفون إلى كل ما هو إفريقى أساساً ، كما يتلهفون إلى كل ما هو أحسن ، أو ما هو جديد فى العالم .

إنهم ما يزالون قلة فى العدد ويلاقون وقتاً عصيباً .

« إن الإناء يغلى لأن هنالك من يجعله يغلى »

مثل إفريقى


تليجرام
غواص في بحر الكتب

تقديم المترجم

إن تعبير إفريقيا جنوبى الصحراء ، هو تعبير ابتدعه الاستعمار، ضمن ما ابتدع ، لتحقيق أهدافه الخاصة ، ليفصل به الشعوب الإفريقية بعضها عن بعض . والواقع أنه من مدة لا تزيد كثيراً على ألف سنة لم تكن الصحراء الكبرى كما هى الآن ، إذ كانت بحيرة تشاد أكبر كثيراً مما هى عليه ، كما أن طرق القوافل بين أواسط إفريقيا وشماليها كانت تخترق الصحراء بصفة منتظمة ، بل إنها كانت الطريق الوحيد للتجارة الدولية لشعوب أواسط إفريقيا ، واستمرت كذلك إلى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى ، حينما حاربت الدول الاستعمارية هذا الطريق حتى أغلقته بحجة منع تجارة الرقيق ، ووجهت تجارة شعوب أواسط إفريقيا نحو المحيط الأطلسى ، إلى الموانئ التى أنشأتها لتحمل البضائع من أوربا وإليها ، على بواخرها ، فضربت بذلك عصفورين بحجر واحد ، فقد قطعت الاتصال بين شعوب شمالى إفريقيا وأواسطها من ناحية ، واستأثرت بالتجارة مع شعوب ما أسمته إفريقيا « جنوبى الصحراء » من ناحية أخرى .

ومن الناحية السلالية لا يمكن أن يطلق وصف واحد على شعوب جنوبى الصحراء ، إذ أن لفظ « Negroid » لا يجوز إطلاقه ، حتى بصفة عامة على هذه الشعوب ، فإننا نرى أن العناصر الحامية والنيلية ، بل العنصر السامى أيضاً ، تمتزج جميعاً مع السمات الزنجية فى معظم قبائل إفريقيا ، هذا إذا استثنينا البوشمن والأقزام . والأولون يكادون أن يكونوا منعزلين فى جزء صغير شبه صحراوى من شرقى جنوبى إفريقيا ، فى حين أننا نرى أن الأخيرين يكونون جماعات فى مناطق الغابات الاستوائية .

والواقع أن الاتصال الحضرى والامتزاج السلالى قد أثرا فيما يطلق عليه الديانات الإفريقية القديمة إلى درجة بعيدة . فإننا نجد ، على خلاف

السائد ، أن فكرة الله الأعلى تكاد أن تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء ، والشاملة القدرة ، نجده بين كثير من القبائل كالزولو بجنوبى إفريقيا ، والبايرا واندا ، والأشانتى بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبا بنيجيريا ، والبركونجو بأنجولا ، والنجومبية بجمهورية الكونغو. ومن اليسير إعطاء أمثلة كثيرة غير ما سبق لولا ضيق المجال .

على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام ، وهم كما قلنا أقدم سلالات إفريقيا ، كائناً أعلى أيضاً يطلقون عليه اسم مونجو. وهم يلتمسون منه الفوز بالصيد . كما لا يأكلون بكر الثمار قبل أن تطرح فى الغابة باسم مونجو ، ويقول القزم حين يطرحه : « مونجو هذا لك » . ويخصص بكر المحصول له ، لأنه خلق أشجار الفاكهة ، وساعد على نضج ثمرتها. وإلى هذا الكائن الأعلى ، يعزو الأقزام أيضاً ، خلق جميع الأشياء ، وأنها ترجع إليه .

ولعل فى بعض الأساطير القبلية ، بالإضافة إلى الخصائص الجسمانية، ما يؤكد الامتزاج السلالى بين الشمال والجنوب . فإننا نرى مثلا أن قبائل الميرو فى كينيا يعتقدون أن الله قادهم منذ أزمنة سحيقة من أرض عبوديتهم بواسطة زعيم دينى (موجويه) إلى أرضهم الحالية . وإننا نستطيع أن نتبين هنا الشبه الكبير ، بل التطابق ، بين هذه الأسطورة وقصة الخروج لدى الإسرائيليين ، وحتى اسم الزعيم الدينى يتشابه إلى حد كبير مع اسم سيدنا موسى عليه السلام ، ولا يستبعد أن يحدث مثل هذا التحوير فى الاسم مع مضى قرون طويلة . ومن المعروف أن سيدنا موسى كان قد تزوج امرأة كوشية ، كما لا يستبعد أبداً أن يكون قد ذهب على رأس إحدى حملات فرعون إلى السودان على عادة أبناء الفراعنة فى قديم الزمان .

وأسطورة تبلبل الألسنة فى بابل نجدها أيضاً لدى قبائل اللوجبارا فى أوغندا . والواقع أن كثيراً من الأساطير الإفريقية ، وهى جزء من الديانات

والتقاليد المتوارثة ، فيها شبه كبير بأساطير الشرق الأدنى وما ورد فى دياناته من قصص .

ويرى بعض الجالا بالحبشة أن الله أتى ذات مرة من السماء ، وأنه تخاطب مع الجنس البشرى ، فى حين يعتقد الجيكويو من كينيا أن الله حينما يأتى من السماء يستقر على جبل كينيا وأربعة جبال أخريات . وإذا ذكرنا تقديم الأقزام لبكر المحصولات والصيد وغيرها إلى إلههم مونجو فلا بد أن هذا يذكرنا بدوره بالممارسة نفسها فى ديانة "بعل" ، بل لعله يذكرنا أيضاً بما أمر الله به سيدنا إبراهيم بأن يقدم له ابنه البكر قرباناً . وواضح مدى تشابه الأساطير مع ما ورد فى العهد القديم عن سيدنا موسى ومخاطبته الله فى سيناء . كما أن هنالك أسطورة من قبائل تشاجا بتانزانيا تروى أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكهم فيما عدا قلة ، وجلىّ مدى التشابه بين هذه الأسطورة ، وقصة سيدنا نوح . ويروى البامبوتى والتشاجا والميرو كيف أن الرب حَرَّمَ أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض وعزل الرب نفسه عن الإنسان . ولا نحتاج هنا إلى التذكير بقصة سيدنا آدم عليه السلام . بل إننا نجد بين بعض القبائل كالندبيلية والتشونا بروديسيا فكرة الثالوث : الآب ، والأم ، والروح القدس .

وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته فى عالم الأرواح ، واتصاله بأقاربه الأحياء ، بل استمرار رعايته لهم كما كان حال حياته . ومن هنا جاءت الفكرة الشائعة الخاطئة عن عبادة الأسلاف . وهى فى الواقع ليست أى نوع من العبادة فى جوهرها ، ولكنها ، كما كانت عند قدماء المصريين ، فكرة استمرار حياة الروح بعد الوفاة فى عالم الأرواح ، أو هى بمعنى آخر امتداد زمنى للحياة الأرضية بجميع مظاهرها ، مما أدى إلى تقديم طعام وشراب للروح ، وأدى هذا بدوره إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الديانات الإفريقية نوع من عبادة الأسلاف.

على أن الديانات التقليدية من ناحية أخرى ترى أن الله أسمى من أن يتصل به البشر رأساً ، وإنما يكون اتصالهم به عن طريق أرباب أدنى منزلة وكّلهم الله بشئون الحياة المختلفة . فالله ، من وجهة النظر الغالبة فى هذه الديانات ، خلق الكون بأكمله ووهبه الحياة ، ووضع نواميس الطبيعة ، ولكنه لا يمكن الاتصال به ، فى الطلبات اليومية للبشر ، إلا عن طريق أرباب أو أرواح ، وقد تكون بعضها من أرواح الأسلاف . وكل رب ، أو روح ، يختص بعمل معين على الأرض ، فهنالك مثلا روح النهر أو رب الغابة ، والمطر ، والصيد ، والزرع وما شابه ، وإلى هذه الأرباب أو الأرواح يكون الالتجاء أولا .

ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً فى هذه الديانات ، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون . فغشيان المحارم مثلا لا يقتصر كما هو فى الديانة الإسلامية على أقارب الدرجة الأولى والثانية فحسب ، ولكننا نجده يمتد إلى كل الفخذ . وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلا أن الله — مع أنه يشفى من المرض — قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة . ويقول النشاجا إن الله يرسل روحاً لتسبب الحصباء وأوبئة أخرى جزاء على أعمال الإنسان الشريرة ، وإن كان لا يموت بها أحد إلا بإذن الله .

وعلى هذا فإن الديانات الإفريقية التقليدية كلها تجمع على وجود إله واحد ، وقليل منها من يؤمن بثالوث ، وإن هذا الإله هو إله سام ، ومتفرد بصفة الخلق ، فلم ينسب إطلاقاً — على ما أعرف — أنه تنازل ، أو أناب فى هذا العمل أحد الأرباب أوالأرواح ، وأنه ذاتى الوجود ، وأزليه . ونترك بهذه النبذة السريعة الأديان الإفريقية لننتقل إلى المسيحية والإسلام وتاريخهما فى إفريقيا .

تختلف الروايات عن دخول الدين المسيحى فى الحبشة ، فمنها ما يروى أن سكان الحبشة كانوا يهوداً حتى سنة ٣٢٠ ميلادية حينما ارتطمت سفينة

فى البحر الأحمر بإحدى الشعب المرجانية ونجا منها بعض المسيحيين ، كان منهم السورى فرومنتيوس ، وقابلوا النجاشى « عزانا » وأقنعوه باعتناق المسيحية هووحاشيته ، وأن الأمر اتصل بعد ذلك ببطريرك الإسكندرية أثناسيوس ، الذى رسم فرومنتيوس السورى مطراناً على الحبشة ، ثم استمر الاتصال بعد ذلك بين بطريركية الإسكندرية والكنيسة الحبشية . ويزعم فريق آخر أن المسيحية دخلت الحبشة من الشمال حوالى سنة ٣٠ ميلادية ثم انتشرت فيها ببطء حتى شملت بلاد الجلا والدناكل وجزءاً كبيراً من بلاد الصومال.

وهنالك رأى ثالث يقول إن الأحباش لم يكونوا يهوداً قبل أن يعتنقوا المسيحية سنة ٣٣٣ ، وإنما كانوا وثنيين ، وإن كان المقطوع به أنه كان هنالك شعب فلاشة يدين بالدين اليهودى ، بل إنهم فى القرن العاشر بعد الميلاد بقيادة ملكتهم جوديت طردوا العائلة المالكة . وحكموا الحبشة ثلاث سنوات حتى طردهم الحبشان بدورهم ، ثم أعيد الحكم بعد ذلك إلى العائلة المالكة الأصلية :

ودخلت المسيحية السودان عقب انقضاء الحضارة المروية : ذلك أن المسيحية كانت قد دخلت مصر فى وقت مبكر ، وقاومها أباطرة الرومان وتعرض من اعتنقوا المسيحية إلى الاضطهاد ، فهاجر بعضهم إلى الصعيد ، وبعضهم إلى الصحراء ، فى حين تعمق آخرون حتى وصلوا إلى بلاد النوبة ، فاعتنق بعض النوبيين الدين المسيحى نتيجة لاختلاطهم بهم . ويبرز فى هذه الفترة اسم ثيودور أسقف فيلة وأسوان الذى عاش فى هذه المنطقة حوالى خمسين عاماً ، وتصادق مع كثير من الزعماء النوبيين حتى تحمس زعيم منهم يدعى سلكو للدين الجديد ، واعتنقه فاعتنقه معه كثير من أتباعه . ولم تكف الرحلات التبشيرية بعد أن كفت حركة الاضطهاد إثر اعتناق الإمبراطور جستنيان للدين المسيحى ٥١٧ — ٥٦٥ م . وكان من نتيجة هذا أن اعتنقت دول النوبة الثلاثة ، نباتا ودنقلة وعلوة ، الديانة المسيحية .

وحوالى منتصف القرن السابع الميلادى بدأ الغزو الإسلامى لإفريقيا فتوقف

النشاط المسيحى فيها ، ثم عاد ثانية إلى الظهور بعد الاتصال الأوربى . وكانت البرتغال هى أول الدول الأوربية احتكاكاً بإفريقيا ، إذ وصلت إلى الكنغو وأنجولا سنة ١٤٨٣ م وإلى موزمبيق فى سنة ١٥٠٥ ، وفى كل من المنطقتين اتصلت بممالك البانتو ، وكونغو ، وكاكنغو ، ولوانجو ، وندونجو وغيرها ، وبدأ النشاط التبشيرى منذ ذلك التاريخ .

واستمرت البرتغال تقريباً الدولة الوحيدة المحتكرة لتجارة العبيد والذهب على سواحل إفريقيا الغربية ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى فى حين استمر النشاط التبشيرى البرتغالى يعمل .

وحتى القرن السابع عشر لم يلتفت التوسع الأوربى إلى جنوبى إفريقيا إذ لم يكن لدى الأهالى ما يقدمونه للتجارة كالعاج والذهب ، كما لم تكن هنالك موانئ آمنة تستطيع أن ترسو فيها السفن . على أنه فى منتصف القرن السابع عشر أرادت الشركة الهولندية للهند الشرقية أن تؤمن طريقها إلى الهند الشرقية فأرسلت فى سنة ١٦٥٢ فرقة صغيرة من الجنود والموظفين تحت رياسة « جان فان سيبيك » لإقامة قاعدة فى خليج تابل فى الحد الشمالى لشبه جزيرة الكاب ، وكان على الفرقة أن تعامل قبائل الهتنوت لتأخذ ما يكفيها لمعاشها . ولكن لما وجدت الشركة أن القاعدة بالرغم عن هذا تكلفها مبالغ باهظة ابتدأت تشجع الفلاحين الهولنديين على الاستيطان ، ثم شجعت أيضاً الهجنوت الفرنسيين ابتداء من سنة ١٦٨٨ . وفى سنة ١٧٩٥ كان المستوطنون قد أضحوا من القوة بحيث انفصلوا عن الشركة وكوّنوا أول جمهوريتين تحت اسم « جراف ينت » « وسويلندام » .

وفى أواسط إفريقيا كان الاستعمار فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد بدأ يتغلغل . فدخلت بلجيكا فى عهد ليوبولد الثانى سنة ١٨٨٤ الكونغو ، واستعمرت الإرساليات البريطانية البروتستانية نياسالاند ، واستعمرت فرنسا شمال الكونغو وجابون وأوبانجى شارى وتشاد . وحوالى هذا التاريخ أيضاً ، سنة ١٨٥٢ — ١٨٧٣ م ، بدأت الاستكشافات داخل أواسط

إفريقيا وما تبعها من رحلات تبشيرية .

على أن الإرساليات والرحلات التبشيرية لم تحقق ما قدر لها من نجاح بصفة عامة فى إفريقيا وذلك لأسباب أهمها وجود الاستعمار فى حد ذاته . فمفاهيم المسيحية لم يكن من السهل على الشعب الإفريقى العادى أن يهضمها ؛ وحينما بدأت تظهر النخبة المتعلمة من الإفريقيين ، كانت المسيحية ، لمصاحبتها المستمرة للاستعمار ، ترمز له بطريقة أو بأخرى . ولهذا بدأت بين المسيحيين الإفريقيين حركة « أفرقة » الدين المسيحى بما تبعها من تعدد الكنائس الانفصالية التى عملت على أن تأخذ من المسيحية بقدر محدود من ناحية ، وعلى أن تحتفظ بالعادات والتقاليد الإفريقية من ناحية أخرى [1] .

ولعل من أهم عوامل إخفاق المسيحية ، أو عدم تحقيقها ما كان يرجى لها من نجاح ، هو عدم تفهم المبشرين أنفسهم ، إلا قلة منهم ، للعقلية الإفريقية ، وللديانات الإفريقية القديمة .

وفى القرن العشرين بدأت الولايات المتحدة تتجه نحو إفريقيا فأرسلت الكثير من البعثات الإرسالية وصرفت ببذخ عليها مما يمكن مطالعته ببعض تفصيل فى الكتاب الذى بين أيدينا .

* * *

لم يكن أول اتصال للعرب بالقارة الإفريقية فى عهد الغزو الإسلامى ، وإنما كان قبل ذلك بمدة طويلة جداً . ولعل حروب الحبشة فى اليمن وما تلاها من تدخل الفرس ، وظهور سيف بن ذى يزن من الشهرة بمكان لا يدع هنالك أى داع لسردها هنا ، وإنما يكفى أن نذكر أن سفن العرب كانت تمخر عباب البحر الأحمر من زمن سحيق فى القدم ، وذلك للتجارة مع القبائل الإفريقية فى الحبشة والسودان . ونذكر هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لأن أرض الحبشة ، على حد

---

(١) بلغ عدد الكنائس الانفصالية فى إفريقيا حوالى ٥٠٠٠ كنيسة منها حوالى ٤٠٠٠ لاتتبع أى من الكنائس العالمية المعروفة .

تعبير الطبرى ؛ كانت « متجراً لقريش يتجرون فيها ، ويجدون فيها رفاغة من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً » .

وجدير بالذكر هنا أن نقرر أن قبائل الكنورى ببرنو تدعى أن ملوكها الأوائل من أصل عربى ، وأنهم من أبناء سيف بن ذى يزن .

هذا ، ومن المعروف أن اليمنيين عبروا منذ أقدم العصور إلى الشاطئ الإفريقى ، واستقرت منهم جاليات فى أريتريا والصومال ، بل إنهم كونوا حكومات مستقلة فى تلك الأنحاء وربطوها بالحكومات العربية الجنوبية . فى سوقطرا جاليات عربية تابعة للمملكة العربية الجنوبية ، وعلى الساحل الرئيسى مشيخات عربية فى الصومال ، وفى رهايتا الواقعة على مقربة من زنجبار حكومة يرئسها حاكم من معاقر (الحجرية) . وسلاطين زنجبار هم من العرب الجنوبيين . وأقدم ما جاء من آثار الحبشة كان باللغة السبئية ، والخط السبئى ، وهى نقوش ترجع إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وتتحدث عن الإله السبئى « ذات بعدان » ، كما وجد جزء من نقش سبئى لتقديس الإله العربى الجنوبى (عشتر) ، وعثر فى بجة شمالى شرقى عدوة على موضع سبئى مقدس ، كما عثر هناك على مذبح صغير مقام للإله « سين » . بل إن لغة إثيوبيا ما زالت حتى الآن فيها كلمات حميرية ، كما أن العادات فى الحبشة لا تختلف كثيراً عن عادات اليمن .

وفى أحد نقوش سرجون الثانى الملك الأشورى سنة ٧١٢ ق . م نرى تفصيلات عن جزية وردت له من ملكة عربية ، وشملت تفصيلات الجزية الذهب وأنواعاً من التوابل ، وبعض الرقيق . وهؤلاء لابد أن يكونوا قد أتوا من إفريقيا .

وإذا قلبنا الآية نجد أن أول غزو لليمن قامت به الحبشة كان فى عام ٣٢٩ ميلادية . وقد عُرف هذا من كتابات عثر عليها فى أكسوم التى لقب فيها النجاشى (بملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وسلح) .

وفى حوالى سنة ٨٠ بعد الميلاد كتب رئيس مركب يونانى عن الساحل

الشرق لإفريقيا ، التى أسماها قارة أزانيا ، أنه رأى مدناً تجارية كثيرة على الساحل يقطنها رجال طوال القامة ، ولم يصفهم بالسواد أو البياض ، ولكنه ذكر أن التجار العرب كانوا يتكلمون لغتهم ، كما ذكر أن معظم المدن الساحلية كانت تحت حكم أوسان وهى دولة كانت فى جنوب الجزيرة العربية . ومما هو جدير بالذكر أن هذا البحار اليونانى أبحر جنوباً حتى وصل إلى ما هى الآن دار السلام بتانزانيا .

وإذا ما استثنينا تلك الفئة القليلة التى كانت أول من دخل إفريقيا من المسلمين العرب ، نجد أن الإسلام بدأ دخوله الحقيقى إلى إفريقيا عن طريق مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤١م . كما بدأ دخول الجيوش الإسلامية إلى السودان على يد عقبة بن نافع سنة ٦٤١م ، ولكنهم لم يتوغلوا فى بلاد النوبة حتى كانت سنة ٦٥٢م حينما جرد عبد الله بن أبى السرح ، وكان قد خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر ، جيشاً توغل فى مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلة فى سنة ٦٥٢م ، وأحكم الحصار حولها حتى طلب الملك قليد وروث الصلح .

وبدأت علاقات المسلمين مع البجة ، وهم سكان الصحراء ، ما بين النيل والبحر الأحمر، فى سنة ٧٢٥م حينما هاجموا صعيد مصر . ثم تجددت غاراتهم على أسوان فى عهد الخليفة المأمون العباسى الذى أرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٨٤١ م ، فهزمهم ، وأملى عليهم صلحاً جعل بموجبه بلاد البجة من حد أسوان إلى ما بين دهلك (مصوع) ، وباضع (جزيرة الريح) ، ملكاً للخليفة ، وفى الوقت نفسه دخلت قبائل من جهينة وبلى إلى بلاد البجة ، كما عبر فريق من هوازن البحر الأحمر ، عرفوا فيما بعد بالحلانقة ، وأقاموا فى بلاد البجة ثم رحلوا إلى إقليم التاكه (كسلا) .

وعندما انهارت الخلافة الأموية هرب كثير من أتباع الأمويين إلى النوبة والبجة ، إلى الصحراء الشرقية ، كما أنه عندما بدأ الخليفة المعتصم يستخدم الأتراك . تزايدت الهجرات العربية إلى الجنوب . ويحدثنا المسعودى حين زار مصر سنة ٩٤٠م عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة ، كما يحدثنا عن قبائل من

قحطان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوباً إلى بلاد النوبة ، وكتب سنة ٩٣١ م عن دولة الزنج ، وتكلم عن مدينة سفالة ، وأنه بالرغم من أن الشعب لم يكن قد أسلم ، فإن العائلة المالكة كانت قد أسلمت وحسن إسلامها .

ومن الناحية الأخرى ، عبر البحر الأحمر ، نجد أن تجار العرب المسلمين ، كما يحدثنا المقريزى ، كانوا يتوافدون على الحبشة حتى كان القرن الرابع عشر حين نزلت جماعة من قريش قيل إنهم من بنى عبد الدار وقيل من بنى هاشم ، فى أرض جبرت من أراضى الزيلع ، وأقاموا بمدينة أوقات . وأكبر غزوات المسلمين فى الحبشة هى التى قام بها الأمير الصومالى أحمد بن محمد الأجرانى الملقب بالأشول ، إذ اخترق الحبشة من حدودها الجنوبية إلى أقصى حدودها الشمالية ، واستشهد فى إحـــدى الوقائع ، فثأر له الأمير نور الدين الذى خلفه . وقد أسلم فى هذه الغزوات عدد كبير من الحبشان .

ومن ناحية ثالثة كان العرب بعد فتح مصر قد اندفعوا فى غزو شمالى إفريقيا . فما كادت تنقضى سنة ٦٤٧م حتى كان ابن أبى سرح قد أتم فتح طرابلس الغرب ، ولكنه اكتفى بفرض الجزية .

وفى سنة ٦٦٧م استأنف ابن حديج الحرب ضد المسيحيين فى الغرب ، فأوغل فى غزوته الأولى . ولكن المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى إفريقيا الشمالية هو عقبة بن نافع الذى أفلح سنة ٦٧٠ ، بمعاونة البربر ، فى القضاء على الحكم المسيحى فى شمال إفريقيا دفعة واحدة . وفى سنة ٦٨٢ سار فى حملة أخرى نحو الغرب حتى بلغ المحيط . وفى سنة ٧١١ افتتح المسلمون بقيادة طارق ابن زياد الأندلس بعد أن أنزلوا ضربة قاضية بالمملكة القوطية .

وعلى الرغم من أن قبائل البربر كانت قد هزمت أكثر من مرة بعد سنة ٦٤٧ فإنها لم تهدأ ، وقامت بعدة ثورات ، منها ثورة سنة ٦٨٣ بقيادة كسيلة ، وثورتهم سنة ٧٤١ . والواقع أنه لم يحسن إسلام البربر

إلا بعد مضى حوالى مائة عام من بداية دخول الإسلام فى إفريقيا الشمالية . ومن الشمال بدأت جحافل الإسلام تغزو أواسط إفريقيا . وأول ما وصل إلينا هو ما يروى عن جماعة من المسلمين اخترقوا الصحراء حتى وصلوا إلى مملكة غانا القديمة سنة ٧٣٥ . وبعد سنوات حينما وصل إليهم بن حوقل ، كان المسلمون قد أنشأوا مدينة كوامبي التى ذكرها الرحالة الإسلامى البكرى حينما زارها فى القرن الحادى عشر . ولعله يستحسن هنا أن أقول إن غانا القديمة لا علاقة لها بغانا الحديثة ، فقد كانت الأولى بين النيجر والصحراء ، أى تقع فى موريتانيا الحديثة ، وبينها وبين غانا الحديثة عدة مئات من الأميال .

وفى قبيلة لمثونة ، إحدى قبائل صنهاجة الضاربة فى اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال ، والمسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة ، ظهر يحيى ابن إبراهيم الجدالى . وفى نفيس ، تقابل مع عالم فقيه هو عبد الله بن يس الجزولى المولود بسلجماسة ، والذى أسس فئة المرابطين الذين وصلوا فى فتوحاتهم حتى عاصمة غانا سنة ١٠٦٢ . وبين القرنين الحادى عشر والرابع عشر كانت قد تأسست ممالك إسلامية كثيرة فى أواسط إفريقيا ، كمالى وسونغاى (بوا) ، وكانم . وبرنو والهوسة ، والفولانى .

ويجب هنا ألا ننسى رحالة الإسلام العظيم ابن بطوطة الذى زار حوالى سنة ١٣٥٠ ميلادية بلاداً كثيرة فى إفريقيا نذكر منها سلجماسة وتفازا ، وتاسر هلا . وأيوالاته وزاغرى . وكارسخو . وكابره ، وزاغة وميمة ، وتمبكتو . وكوكو ، وبلاد برادمة . وبرنو ، وتوات ، ودنقلة ، وبودا . كما ذكر أنه فى رحلته هذه التقى بجماعة من بربر نساؤهم ناصعات البياض . والتقى كذلك فى رحلة عودته بجماعة أسماها هكار ، قال عنهم إنهم ملثمون . ولعلهم الطوارق المعروفون . وفى إحدى رحلاته الأخرى ذكر أنه وصل إلى الساحل الشرقى لإفريقيا وزار دول الزنج .

* * *

هذه نظرة سريعة جداً عن الديانات السائدة فى إفريقيا ، التقليدية والمسيحية والإسلام . فالأولى لا يعرف التاريخ لها مصدراً ولا نشأة ، ربما تكون مجرد تطور عادى للعبادات الوثنية ، ولكن هذا مستبعد إذ أنها تكاد جميعها تؤمن بإله واحد ، وفى أساطيرها الكثير مما ورد فى الكتب السماوية كما أوضحنا . لعلها كانت فى المنشأ أدياناً سماوية قائمة بذاتها[١] . أو لعل اليهودية الأولى وجدت طريقها إلى أواسط إفريقيا ، ربما عن طريق مصر . أو الحبشة التى كان فيها كثير من اليهود قبل أن تصبح مسيحية ، أو لعل اليمنيين قد نقلوها فى أثناء ترحالهم وهجراتهم إلى إفريقيا . من يدرى ؟ والمسيحية دخلت مصر أولا ، ثم الحبشة فى القرن الرابع الميلادى ، ثم توقفت حتى جاءت الإرساليات مع الاستعمار فى بداية القرن السادس عشر مبتدئة بغرب إفريقيا الوسطى وشرقها ، ثم الوسط والجنوب . أما الإسلام فقد كانت له طرق ثلاثة ، من الساحل الشرقى ، ومصر ، وشمالى إفريقيا . وأخيراً رفع الفولانى آخر راية للجهاد فى القرن التاسع عشر .

---

(١) لعل هذا مصداق لقوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » . (سورة النحل)

مقدمة

إننى أقبل استقلال إفريقيا بلا تحفظ . هذا مبدئى ، ومن المستحسن أن أقرره أولا .

وأعترف أيضاً بلا تحفظ ، بمساواة الإفريقى فى الكرامة ، وأعتقد أن الإفريقيين لا يخضعون لأى التزام بأن يبرروا حريتهم أو كرامتهم ، شأنهم فى ذلك تماماً شأن الغربيين ، لا أكثر ولا أقل ، فنحن ، إفريقيين وغربيين ، من معدن واحد .

ومن الناحية العملية ، فإن نتيجة تحرر الإفريقيين سوف تتوقف على عوامل عدة ، بعضها إفريقى محض ، وبعضها الآخر لا شك فى تأثره بشعور الغرب وتصرفه وعلاقاته مع إفريقيا .

والكثير من هذه العوامل سياسى واقتصادى ، وقد كتب عنها بغزارة . ولكن السياسة والاقتصاد ليسا هما العاملين الوحيدين اللذين يشكلان مستقبل إفريقيا ، فالدين أيضاً عامل له اعتباره عامل أساسى هام .

وقليلون هم الذين كتبوا عنه بالتوسع الكافى المسطر فى هذا الكتاب . وهناك أسئلة لها أعمق الدلالة لإفريقيا ولشعور الغربيين نحو الإفريقيين مثل :

ما هو مستقبل المسيحية كرابطة دينية مع قادة إفريقيا الناهضة ؟

ما هو مستقبل الإسلام فى نفس الاتجاه ؟

ما هو الأساس الأخلاقى الذى ترى نخبة الإفريقيين بناء المجتمعات المتحررة حديثاً عليه ؟ ماذا يعنى المثقفون الإفريقيون حينما ينادون بالقيم الروحية الإفريقية التقليدية كأساس ؟

إذا كان السحر جزءاً موروثاً من هذه القيم التقليدية فما أثره على التطور

الأخلاقى والعقلى ؟

ما هو نوع التدريب الدينى والأخلاقى الذى ينادى به المثقفون الإفريقيون كجزء من التقدم التربوى ؟

ماذا يعنى مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة بالنسبة للمجتمع الإفريقى الحديث ؟

ماذا تعنى الارتباطات الدينية بالنسبة لحياة الزعماء الإفريقيين ؟

ما هو الأثر الحيوى ، إن وجد ، للبناء الإفريقى التقليدى لعالم الروح غير المرئى « تيم » ؟

ما علاقة كل ذلك بالإغراء بالشيوعية كبديل عن القوى الروحية ؟

على قدر علمى أن كلا من هذه الأسئلة قد عولج على حدة ، فى المؤلفات الكثيرة عن إفريقيا ، ولكن لم يوجد مؤلف يجمعها كلها بطريقة مترابطة . وهذا هو عذرى فى الدخول فى ميدان مزدحم فعلا . فكتابى يقصد به أن يكون مجملا جامعاً أكثر من أن يكون مفصلا شاملا . وقد ذيلته بقائمة مؤلفات لمن يبغى أن يراجع بعض الخطوات التى سرت على هديها . وإنه إن لم يكن فى وسع كل شخص أن يقوم بمثل ما قمت به من الأسفار والمقابلات التى قمت بها فى إفريقيا ، فإن الجميع يمكنهم أن يوسعوا معلوماتهم وتفهمهم لروح إفريقيا الجديدة وإمكانياتها . إن قضية استقلال إفريقيا لا تعتمد على رأى الغرب ، ولكن إذا أراد الغربيون أن يساعدوا الإفريقيين فى الاستفادة من حرياتهم على خير وجه ، فإنه من المهم جداً أن يوجد تفهم أعمق للمشكلات والمسائل التى يثيرها هذا الكتاب . إن الإفريقيين لهم الحق فى حريتهم سواء أساءوا استعمالها أم استفادوا منها . ولكن من السخف أن يترك الموضوع عند هذا الحد .

إن النساء والرجال ذوى الروح المدنية والعمق الروحى قلائل إلى حد مؤلم فى الوقت الحاضر فى إفريقيا . وسوف يزداد عددهم ، ولكن وجهة النظر الروحية الآن لهذه النخبة الضئيلة هامة جداً . ولهذا السبب فإنى مدين بالشكر العميق للدكتور أ.ى اسين أودوم من نيجيريا والعضو بمركز الشئون الدولية بهارفارد ،

لمساعدته إياى فى التنقيب عن الشعور الدينى بين المثقفين الإفريقيين وكتابة تقرير عنهم . وفى المجموع قد تركتهم يتكلمون عن أنفسهم بدون محاولة تهذيب أو تعديل . وأعترف بديني أيضاً لروبين هورتون الذى أمدتنى دراساته بمادة قيمة جداً عن شعب كالاباري .

هذا الكتاب عن إفريقيا جنوبى الصحراء . وإنى أعلم جيداً بوجود الصحراء والمساحات الشاسعة شمالا ، وإن كتاباً عن الديانة فى إفريقيا يمكن أن يتسع ليشمل القارة بأكملها . إلا أن الصحراء ليست مجرد حاجز جغرافى ، بل إنها أيضاً فاصل بين ثقافات متباينة .

ابتدأ روبرتسون سميث كتابه التقليدى عن الدين لدى الساميين بهذه الكلمات : « لم يستطع أى دين إيجابى ذى أثر فى الإنسان أن يبدأ من حد الصفر دون تدرج خارجى ، وأن يشرح نفسه كأنما قد بدأ الدين لأول مرة ، سواء من ناحية الشكل أو الجوهر ، فالنظام الجديد يجب أن يساير على طول الخط الآراء والمعتقدات الأقدم منه التى يجدها سائدة ، ولو من ناحية الشكل. وإن نظاماً روحياً جديداً لا يمكن أن يجد أذناً صاغية إلا إذا التجأ إلى الغرائز والمؤثرات الدينية الموجودة فعلا . . . ولا يمكن أن يصل إليها بدون أن يأخذ فى الاعتبار الأشكال التقليدية التى تحوى كل الشعور الدينى ، وبدون أن يتكلم لغة يستطيع أن يفهمها هؤلاء الأشخاص الذين اعتادوا هذه الأوضاع » .

هذه روح أوافق عليها تماماً . فالتدرج ، وليس الغزو ، هو دين إفريقيا المستقبل . ولهؤلاء الذين يرغبون فى تفهم أحسن لما يحدث فى النفوس الإفريقية أقول إنه من المستحسن أن يسيروا بخطوات حذرة ، أعنى أن يتجردوا من الضغائن التى ورثناها عن مدنيتنا .

فى الماضى كانت الحياة فى إفريقيا دينية أساساً . فعلاقة الفرد بأسرته وبالقبيلة ، والأخلاق ، والقانون ، والعبادات ، والاحتفالات ، والسياسة ، والمركز الاجتماعى ، والطرق الاقتصادية ، والحرب والسلام ، كلها كانت تضعف . أو تقوى فى الحياة الإفريقية مركزة فى الدين . وقد يقال إن النفوذ الغربى — وهو يتلاعب

بآلاف المسائل فى الحياة الإفريقية قد محا الطابع القديم ، وإنه تكرار لقاعدة أضحت مملة فعلا . ومع هذا ما زال الواقع قائماً ؛ والسؤال الآن هل تستمر الحياة فى إفريقيا مستندة على الدين أساساً ؟ وإذا كان الرد بالإيجاب فعلى أى الأشكال ؟ وإن كان بالنفى فما النتيجة ؟

قيل إن الدين التقليدى لإفريقيا يقوم على الرقص أكثر مما يقوم على التفكير ؛ وإنى لولم أكن قد نشأت على التقاليد الغربية لرقصت تعبيراً عن شكرى لزوجتى روث ، التى شاركتنى العمل فى هذا الكتاب فى أكثر النواحى العملية . وهناك مثل لقبيلة باروينا يقول : « إن أى شخص يحاول أن يبتلع حجراً ضخماً يلزم أن يكون لديه ثقة كبيرة فى حجم حنجرته » ، ومن بعض النواحى كانت كتابة هذا الكتاب محاولة لابتلاع حجر ضخم ، ولكن ثقتى كانت فى مقدرة زوجتى على انتشالى .

ولم توضع هذه الثقة فى غير محلها .

جاك مندلسون

بوسطون ، ساشوتش

صليب إفريقيا الأسود

بعد أن تناولت العشاء حوالى الساعة التاسعة ، حضر السيد الجليل « بن نزاريب » ، وهو الدكتور « بن نزاريب » الذى حصل على الدكتوراه من جامعة «كورينل باثيكا » ؛ ويعمل بجمعية الخدمات الإلهية كما يساعد موظفيها، وقد عاد إلى قريته المسماة (أوو أو ماما) بشرق نيجيريا حيث أصبح ينظر إليه كأنه رئيس أعلى متوج . وتجمعت حوله عشرات المشروعات الحيوية التى أساسها مساعدة التطور الذاتى من مدارس ، وطرق ، ومعسكرات ومستشفيات ، ومطاعم شعبية، ومزارع تجريبية . إن « أوو أو ماما » تتحرك مع الزمن إلى القرن العشرين ، وهذا الشـــاب هو المحول ، وهو المحرك ، وهو المنشئ .

وكان دق الطبول يملأ الأسماع ، إذ هى ليلة « أوا » أيام رقص وولائم ، يبدأ فيها جمع محصول « اليام » ، وهو نبات استوائى يشابه نبات البطاطا .

وقد جاء « بن » ليقودنى إلى كوخ الاجتماع حيث يقوم مواطنوه المسنون بعقد اجتماعاتهم الإرشادية الخاصة .

والكوخ مستدير ، ومفتوح من الجوانب ، ومسقف بالجريد ، ويبعد حوالى مائة ياردة عن منزلى . وفى أثناء سيرنا فى الظلام حاولت أن أتذكر ما كان « بن » قد قاله لى عن أعياد اليام لدى « الأوا » : طالما بقى العيد فإن بطون أوو أو ماما تمتلئ بمزيج رطب خاص يسمى « فوفو » فيعجن دقيق اليام بكميات ضخمـــة ليكون مزيجاً لبنياً متماسكاً يشابه « لقمة القاضى » ، وتمتد الأيدى لتقطع أجزاء منه ، وتكون قطعاً مستديرة صغيرة ، وتقذف هذه القطع إلى وعاء به طبيخ حريف ثم تؤكل .

والـ « فوفو » هو الطعام الرئيسى فى أحراش نيجيريا ، ويعمل من نبات الكسافا فى أثناء الأشهر الطويلة التى لا يوجد فيها نبات اليام .

وقال بن : « إنه احتفال قديم العهد ، ولكن الفارق بين الكسافا واليام كالفارق بين لحم الضأن ولحم الماعز ، ولهذا كان موعد حصد محصول اليام عيداً . ولكنه ، مثل أشياء أخرى كثيرة هنا ، فقد الناس الصلة بمعناه . وإننى أحاول منذ عودتى أن أنبههم إلى أهمية فكرة الشعائر القديمة . إنها جزء من علاج نفسانى لإيقاظهم من سباتهم ، ومساعدتهم فى أن يشعروا بالفخر بأنفسهم » .

ولست أفهم المعنى الكامل لهذه الجملة ، لكنى أذكر أن بن قد ربط برباط محكم بين مشروع إيقاظ مواطنيه وبغضه الكامن للمبشرين ، الذى يحاول عبثاً أن يخفيه . قال « إننا مرزوءون بالمسيحيين . إنها ليست فقط التقارير الكاذبة عن الصور العارية لنسائنا ، ولكنها أيضاً الطريقة التى اتبعت معنا لكى يشعر معظمنا بالخجل من العادات القديمة . سوف يكون هذا أكبر " أوا " منذ سنين ؛ إذ يحضره مئات من العائدين من لاجوس ومن أنوجو ، بل من الكمرون أيضاً » .

والمئات من الرجال الذين أشار إليهم بن إنما كانوا يمثلون الآلاف من رجال قبائل « أوو أو ماما » الذين شقوا طريقهم فى المدن كتجار ، أو سقاة ، أو موظفين حكوميين ، وهم — مجتمعين — يكونون الشبكة الواسعة لـ « أوو أو ماما الوطنية » ، وهى القوة الحقيقية خلف الإصلاحات فى قرية نزاريب . أوو أو ماما ليست قرية بالمفهوم الأمريكى ، ولكنها أقرب إلى طائفة متفرقة مكونة من حوالى خمسة وعشرين ألفاً من الأشخاص المنتشرين فى مئات الأميال المربعة من أرض رملية وأحراش متشابكة ، أو أشجار نخيل الزيت . أو أراض مزروعة باليام ، والكسافا ، والشعير . وأغلب هؤلاء الأشخاص عاشوا قروناً فى مستوى معيشة يبلغ حد الكفاف فى أكواخ متباعدة من الطين . وتحت ظلال الأشجار يلعب الأطفال عراة بقرب منازلهم ، فى حين تتدثر النساء بما يغطى النصف الأسفل فقط ، ولكنهم حينما يخرجون

إلى الشبكة الجديدة من الطرق المعبدة أو المرصوفة التى اقتطعها نزاريب وعماله المتطوعون من الأحراش يلبس الأطفال عادة سراويل قصيرة مشتراة من تجار متجولين ، وتلتف النساء بسار كامل ذى ألوان زاهية .

وفى كل دقيقة يكسب حوالى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من رجال أوو القادرين عيشهم فى بعض المدن البعيدة ، ومن بينهم كبار الراقصين الغنيين ، والطبالون الحاذقون، الذين بغير وجودهم فى مناسبة الاحتفالات ، مثل « أوو » ، يضيع الكثير من قوة الشعائر .

إن ما أفلح بن نزاريب فى عمله هو أنه قد ارتفع بفخر مواطنيه المتغيبين بتنشئتهم فى « أوو أو ماما » ، حتى إن مئات منهم قرروا العودة إلى أوو . هذا النصر كان من الواجب أن يتم للتغلب على الخجل الذى يتسلط عليهم من العادات التى وصمها بالوثنية خطباء المبشرين. ومن الواضح أن الشخص لا يستطيع أن يهمل بسهولة تأثير الإرسالية الكاثوليكية الإيرلندية التى كانت حتى ثمانية عشر شهراً خلت المصدر الوحيد فى « أوو أو ماما » للتعليم الأولى ، والعناية الطبية بالأمهات المنتظرات .

هذه هى الأفكـــار التى كانت تملأ ذهنى حينما دخلت مع بن كوخ الاجتماع ، حيث أضيئت مصابيح الكيروسين لتلقى ظلالا كثيبة على مجموعة من الناس يجلسون فى دائرة على مقاعد ، أو متربعين على الأرض القذرة الصلبة وكان واحد أو اثنان منهم فى العشرين من العمر ، واثنان آخران متقدمان جداً فى السن والباقون بين هذا وذاك .

وكانت تحيتهم رسمية ولكن بحرارة . وجلست على مقعد . وجلس بن عن يمينى . وجلس عن يسارى شخص جاحظ العينين متدثر بدثار مبالغ فيه .

وهمس بن فى أذنى أن هذا الشخص هو القصاص ، أو المغنى . وأنه أحسن المحترفين فى أرض إيبو .

وكان هنالك استعراض قطعه دخولنا ، ولكن حينما جلسنا بدأ القصاص

مرة ثانية . ولم أسمع فى حياتى شيئاً كهذا تماماً . كان يتكلم بصوت نافذ حاد النبرات ، وانسابت الكلمات من شفتيه وسطاً بين الغناء والكلام العادى ، وازدادت عيناه جحوظاً حتى خيل إلى أنهما سوف تقفزان إلى مصباح الغاز الموضوع فى وسط الدائرة ، وكان المستمعون فى حالة ذهول تام ، يتعقبون كل كلمة ، وقد تقلصت عضلات وجوههم فأصبحت أكثر شداً من وتر القوس .

وفجأة انفجروا ضاحكين . ومال على بن وقال : « لقد وضع لهم لغزاً ، أيهما أسوأ ، زوجة سوء أو ولد سوء ؟ ثم أجاب عن ذلك بقوله إن ولد السوء هو شر الطرفين لأن الرجل يمكن أن يطلق زوجته ، ولكن ابن السوء يظل معه دائماً » . وأعتقد أن هذا ملخص مقتضب جداً ، إذ أن اللغز كان أطول من ذلك كثيراً لأن القصاص استغرق أكثر من خمس دقائق وهو يرويه . واستمر بن يقول : « إن مغنياً مثل هذا له مكانة كبيرة ومرموقة نظراً لأنه من المحترفين . لقد أمضى سنوات عديدة ليتعلم ملايين الكلمات ، وإن نبوغه يتجلى فى أنه لا يغير أبداً كلمة واحدة حين يعيد تلاوة مادته» . وسألته : « ماذا تعنى بكلمة مادة » ؟

– إنها بالفعل مئات من الأساطير القبلية وشعائرها ، والحوادث التاريخية وأماثيلها وأحجياتها ونوادرها – أنواع شتى من الأشياء . وعليه أن يقولها بنفس الطريقة كل مرة حتى إنه إذا وضع كلمة فى غير موضعها لحقه العار .

– وكيف تعلمون إذا ما أخطأ ؟

– ربما نعلم وربما لا نعلم . إننا جميعاً نعرف بعض هذه الأشياء . وعلى أى حال فإنه لا يجرؤ على المجازفة .

وفى هذه الأثناء كان القصاص قد استغرق فى كلامه مرة ثانية ، كما انضم شخص جديد إلى الجماعة ؛ وكان القادم شاباً صغيراً يحمل برميلين من خمر البلح .

وكان القصاص يصرخ أحياناً ، ويطن أحياناً أخرى طنين النحل، فى حين كان بن يميل علىّ مرة ثانية ليخبرنى أننا نسمع الآن إحدى نظريات إيبو الفلسفية عن الخير والشر . وفى هذه الأثناء كانت أقداح زجاجية كبيرة تملأ بخمر البلح .

وكان كل واحد منهم إذا ما امتلأ كوبه ، يشربه دفعة واحدة بدون توقف . وارتشفت من كوبى بحذر ، ومع هذا كدت أفقد عشائى إذ كانت رائحة الخمر وطعمها كالجاز بالنسبة لى .

ومرت دقائق اختتم بعدها القصاص روايته . وأكثر الحاضرون استحسانهم بالإيماء والهمس ، ودارت الخمر دورة أخرى . وفى هذه المرة انضم المغنى إلى الشاربين وأفرغ فى جوفه الكأس مليئة مرتين . وفجأة وقف أحد الحاضرين على قدميه وبدأ الرقص . وهمس بن : « إنه ليس أحد المحترفين ، وإنما هو يعبر عما بنفسه فحسب » .

ولاح لى أن رقصه كان جيداً ، ولكن كان من الواضح أن باقى الرجال كانوا يتغامزون منتقدين ، وقام رجـــل آخر يرقص متحدياً ، وقد انفجر الآخرون ضاحكين . وبعد أن أروى المغنى الذى لا يتعب ظمأه مؤقتاً ، بدأ مرة ثانية يقص قصصه . وتوقف الرقص .

واستمر سير الحوادث متماثلا فترة لاحت لى أنها ساعات . وطوال الوقت كان يزداد لى وضوحاً أن تصرف أحد الرجال غير عادى . لم يكن يشترك مع المجموعة ، كما لم يكن من السهل تحديد سنه ، وربما كان فى الخمسين ، وكان يرتدى قبعة رخوة تناثرت عليها الأوساخ ، وقميصاً أزرق باهتاً ، وسروالا رمادياً من القطن ، وحذاء كبيراً فى قدميه . وكان يجلس على الأرض ويخرج قليلا عن الدائرة وقد وضع ذقنه على ركبتيه ، وهو يكاد يغلق عينيه .

وفجأة هب هذا الرجل على قدميه راقصاً حول الكوخ كأحد الدراويش . وحينما دلف متمايلا أمام المصابيح وتطاول ظله يتابعه ، لاح أن نوعاً من المس

قد خالطه واستولى عليه . وبقفزات وحشية بدأ يطوح برجليه الرفيعتين فى كل اتجاه ، وتأرجح الصليب المدلى من رقبته بشدة فى كل اتجاه تبعاً لحركة الجسم العنيفة :

وصدرت ضحكات استحسان من الرجال الآخرين . وكان من الواضح أن هناك شيئاً مغايراً ومثيراً للغاية . واندفع أكبر الموجودين سنًّا إلى خارج الكوخ ، وضرب بشدة على طبلة قديمة مصنـــوعة يدويًّا . وحينما خفت الهتاف ، مال على بن نزاريب وعيناه تبرقان وقال : « هل تعلم عن أى شىء كل هذا » ؟ فأجبته : « يا إلهى ! – كلا » .

قال بن: « هذا الرجل هو واحد من أكثر المسيحيين إخلاصاً لدينه . ولأن المبشرين حظروا عليه الرقص ، لم يرقص منذ سنوات ، ولكنه الليلة قد رقص ، ولم يكن فى استطاعته المقاومة أكثر من هذا » .

وكان من الجلى أن كل الحاضرين يشاطرون بن رأيه . لقد عاد أخ مفقود إلى القطيع . ولم يعد الضال جالساً خارج الحلقة بل أصبح جزءاً منها .

وكان الراقص نفسه يلهث ، ولكن وجهه الكالح كان قد اكتسى مسحة من الراحة . وبيد مرتعشة أفرغ فى جوفه قدحين متتاليين من الخمر .
وخلال الأيام التى تلت رأيت المأساة نفسها تتكرر مراراً، ودائماً أبداً كان الهدف واحداً . شخص كانت ارتباطاته بالمسيحية تمنعه من الرقص ، يقذف هذه القيود فيهتف له الآخرون يحيون فيه « التحرر » والعودة ، إلى « الإفريقية » . كانت مأساة رمزية لأحداث ذات معنى فى حياة إفريقيا الدينية .

إن قلقاً روحيًّا واسعاً يحيط بإفريقيا ، فالمسيحية – وقد طبع عليها الاستعمار طابعه – أصبحت فى موقف شديد الحرج . والإسلام بدأ نشاطه . والطقوس الدينية الأهلية – برغم أنها قوية فى بعض النواحى – متراخية فى

نواح أخرى . والاحتفالات القديمة: الرقص، والطبول ، والطقوس، الطبيعية أصبح ينظر إليها باهتمام وتأثر جديدين – سواء بين الشبان الإفريقيين المتعلمين أو السفسطائيين – على أنها تعبيرات تربوية للروح الإفريقية . وبرغم تقهقر الآلهة والأرواح القديمة فإن الإفريقى الناهض فى بحثه عن نفسه بدأ يتابع الاتجاهات الدينية الموسومة بالطابع الإفريقى الخالص .

وماذا عن حركة الدعوة التبشيرية المسيحية ؟ إن تقدمها البطىء المستمر قد اصطدم الآن بإفريقيا الجديدة ، وأقيمت ضدها اتهامات ساخرة ومؤلمة معاً .

وحينما تكون حالة الشبان الإفريقيين النفسية سعيدة ، لا يتعبون من ترداد القصة القديمة : « إن المبشرين جاءوا إلينا ، وقالوا إننا نريد أن نعلمكم العبادة » ، وقلنا: «حسناً إننا نريد أن نتعلم العبادة » ، وطلب المبشرون منا أن نغلق أعيننا ، وفعلنا ذلك وتعلمنا التعبد . وحينما فتحنا أعيننا وجدنا الإنجيل فى يدنا ، ووجدنا أراضينا قد اغتصبت !

ولكن هناك أيضاً تلك الكلمات المريرة ، كلمات تكررت بلا توقف فى إفريقيا كلها: « إن حركة التبشير المسيحية كانت محاولة لإخماد الروح الإفريقية » . «لقد حاولت أن تحول الإفريقيين إلى أوربيين مسيحيين ، فركلت مدنيتنا لتظهر لنا مع أى جانب يقف الرب .

« إن المبشرين غير واقعيين فيما يتعلق بتعدد الزوجات .

«حينما يكون للرجل الأبيض اليد العليا فإن المبشرين يتقبلون برضاء غريب التفرقة العنصرية .

« إن المبشرين يتثاقلون حينما يكون الأمر متعلقاً بتدريب أحد الإفريقيين لتولى الرئاسة والسلطة فى الكنيسة .

« إن الإرساليات كانت تقف موقف عدم الاهتمام، بل العداء، من القومية

ولم يوجد شعور صادق حقيقى للتوجيه السياسى الذى يسيطر على الشباب الإفريقى » .

وقد حدثنى أحد كبار موظفى حكومة غانا بعد أن فكر مليًّا قائلا : « بعد تفكير عميق قررت ألا تكون لى صلة بأية كنيسة . فالكنائس لا تكاد تساعد فى حل مشكلات غانا الروحية ، وكل ما ياوح أنه يهمها هو جمع المساعدات المالية وحضور قداس الآحاد . إن اتجاههم يظهر أنه إذا اهتممت بهذه الأشياء فالرب يرضى . إن شبابنا يريدون شيئاً لا يحصلون عليه ، ولا أستطيع أن أرغمهم على الذهاب إلى الكنيسة ليستمعوا إلى مبادئ لا يؤمن بها المبشرون أنفسهم إيماناً راسخاً» .

وقال أحد الساسة الصاعدين بسرعة فى نيجيريا : « لا أود أن أظهر غير الشكر ، فإنه لولا الإرسالية المسيحية وما أنشأت من مدارس لما كان معظمنا ليتلقى أى تعليم ؛ ولكن الكنائس لم تساير التطور الزمنى ، ولا الروح الإفريقية ، إننا نريد شيئاً أكثر دفعاً من قصص الإنجيل والانتقادات ضد الحفلات والرقصات القبلية » .

وسأل أحد المبشرين الإنجيليين فى أثناء تناولنا الشاى متبرماً : « ألا يمكنك أن تفعل شيئاً مع البروتستانت الأمريكيين المحافظين ؟ إنهم هنا بكثرة ، وينفقون الكثير من المـــال ، ومقابل كل إفريقى يقومون بهدايته يحنقون مائة بإصرارهم على سيطرة الرجل الأبيض على الإرساليات وبسخريتهم من السياسة » .

وأشار فلاح ثرى من كيكويو إلى قمة تل من التلال السوداء بكينيا قائلا : « هل ترى الإرسالية التى هناك ؟ إنهم يديرون ملجأ للأيتام ، ومدرسة للتجارة ، ومستشفى . وكل هذا لصالحنا نحن الكيكويين ، ولكن هل تعلم أننى لم أر قط أى قسيس أبيض منهم فى أى اجتماع أو قداس بقريتنا ؟ إذا كانت هذه هى المسيحية فإننا نستطيع الاستغناء عنها » .

وأبدى مدرس بريطانى فى كلية عبدان هذه الملاحظة : « إن الكثير من سكان المدن الإفريقيين ليس لديهم سوى معلومات غامضة عن عادات شعبهم القديمة . ولكن تنبثق من الوطنية رغبة شديدة فى تمجيد المدنية القديمة ، وخلق — أو إعادة خلق — فنون وتعبيرات روحية إفريقية خالصة . وإن الخطباء المسيحيين للأسف غالباً ما يوحى تصرفهم بأنهم يعارضون هذه الأفكار بعصبية ، وهذا بالنسبة للشاب الإفريقى المعاصر يماثل تماماً الاعتراض على أنه إفريقى » .

وقد قال لى أحد مشايخ القسس من بانتون فى اجتماع سرى فى جوهانسبرج ، وقد تقلص وجهه من الانفعال : « يزداد الأمر صعوبة يوماً بعد يوم فى أن أقنع شعبى بالتزام عقيدتهم المسيحية . إنهم يريدون أن يعرفوا لأية مدة يمكن أن يظلوا مسيحيين ، فى حين أن المسيحية هى دين حكومة البوير التى تعاملهم كأنما هم أدنى إنسانية ! »

ويزيد الكابوس على زعماء المسيحيين ارتفاع هلال الإسلام ، فالذين يتوجهون إلى الدين الإسلامى فى معظم أجزاء إفريقيا تفوق نسبتهم كثيراً مكاسب المسيحية . فبين النخبة الصاعدة من الشباب الإفريقى ، حيث كان إخفاق المسيحية أكثر ظهوراً ، نجد — كما فى نيجيريا — حركة إسلامية نشيطة . ذات طبيعة إيحائية ، وعقلية ، لها أثر ضخم ناجح . وللإسلام فى المناطق القروية طريقة يندمج بها بسهولة فى البناء الاجتماعى القديم .

وفى لاجوس ، المكتظة بالسكان ، حدثنى شاب نيجيرى ، وهو مدير تنفيذى فى شركة بترول هامة ، ودكتور فى الفلسفة من جامعة نيويورك ، عن دوره الرئاسى فى تنظيم جمعية إسلامية جديدة هدفها هداية الشباب الإفريقى المثقف بالذات ، وبخاصة الذين ما كادوا يبدءون حياتهم العلمية فى الحكومة ، أو فى الصناعة .

وحدث فى لاجوس أيضاً أن تحدى أحد العلماء المسلمين المشهورين

بيلى جراهام فى مناظرة علنية ، وطبقاً لسياسة بيلى العادية فى مثل هذه المسائل رفض التحدى . وكان التعليق الطبيعى هو أنه إذا كان جراهام يرغب فى مهاجمة العقيدة الإسلامية فله مطلق الحرية فى ذلك ، ولكن كان يجب أن تكون لديه الشجاعة الكافية لأن يناقش وجهة نظره علناً .

والواقع أن هنالك عوامل أخرى أعمق من مجرد ثورة عابرة ضد الدين المسيحى المدموغ بالاستعمارية تعمل لمصلحة الإسلام . وأحد هذه العوامل هو قبول الإسلام مبدأ تعدد الزوجات فى ظروف يراها كثير من الإفريقيين معقولة . وتعدد الزواج يموت ميتة اقتصادية طبيعية فى المدينة حيث هو مربك ويتكلف كثيراً ، ولكنه فى مجال القرية يظهر للإفريقيين كنظام معقول وعلمى وطبيعى جداً .

وهناك عامل آخر قوى هو السهولة التى يمكن بها تعلم تعاليم الإسلام . فى حين أن النظريات المسيحية من ناحية أخرى تظهر للكثير من الإفريقيين غير مفهومة وخيالية . وتضمن المسيحية انعكاسات بسيطة مضادة لعادات إفريقية عميقة الجذور . فى إفريقيا يظهر الزائر احترامه لمنزل مضيفه بأن يخلع حذاءه ، ولكنه حين يدخل كنيسة مسيحية فالمتوقع منه أن يعرى رأسه .

ولعل أقوى العوامل جميعاً هو غالباً مسألة اللون الأساسية . والإسلام لا يئن تحت عبء أنه أولا وقبل كل شىء دين الرجل الأبيض . وإذا كان هنالك شعور باللون فى الإسلام فربما يكون موجهاً ضد ذوى اللون الأصفر .

ومن الإنصاف للمحاولات المسيحية فى إفريقيا أن نقرر أن الكثير من النقد السارى إنما يوحى به من ناحية البغض للأجانب من الوطنية الإفريقية الذى ينعكس بشدة ، حتى الآن على الأقل ، ضد كل ماله علاقة بحقبة الاستعمار . وعلى أى حال فليس من غير العادى أن يقع الإسلام فى نفس الورطة .

وهناك من الحركات الدينية الكثيرة التى ترفض كلا من المسيحية والإسلام

فى نيجيريا وهو ما يسمى « الدين الطبيعى لإفريقيا » ويدعى السيد ب. ا. أوجى الذى عين نفسه رئيساً خاصاً لهذه الحركة أن له أكثر من ألفى تابع . وقد قال لى إن ما تدعيه المسيحية من معاملة الناس بالحسنى لا معنى له ، لأن المسيحية نفسها قد ثبتت عملا أنها دين مشاغب ، فكل ملة تهاجم الأخرى .

وبينما كان يقول لى هذا قفزت إلى عقلى تجربة فى قرية بغانا حيث أفادنى رئيسها أنه يعتقد « أن كل هذه الترهات المسيحية للأطفال » . وقد أكد وجهة نظره بأن كشف لى عن مشكلة من أخطر مشاكل القرية : « فثلث مواطنى تقريباً تابعون للكنيسة الميثوذسيتة ، والثلث تابعون لكنيسة البرسبتيريان ، والباقى يتبعون ما أسميه الدين الإفريقى . وحينما نحاول حل إحدى مشاكل القرية بدون العودة إلى التقاليد القديمة ، أى البناء العائلى ، يهاجم أتباع كل من الكنيستين الفريق الآخر . وحتى نقوم بأى عمل يجب أن نتوقف ونقول للنظاميين والمسنين أن يتركوا الخلافات الدينية وأن يعودوا إلى التقاليد القديمة وإلى النظام العائلى لاتخاذ القرارات » .

ولنعد إلى السيد أوجى . إنه يدعى أن كلا من المسيحية والإسلام قد أخفقا فى إنشاء السلام ، والحب ، والاتحاد فى الحياة الإفريقية ، وأن الدين الوحيد المناسب للروح الإفريقية هو المتغلغل فى التربية الإفريقية ، والذى احتضنه الإفريقيون .

ومستر أوجى ليس وحيداً فى هذا الرأى ، وفى اعتباره أنه غير إفريقى أن يكون الشخص مسلماً أو مسيحياً . ويجب هنا التأكيد بأن مستر أوجى ليس متهوساً ولا متعصباً . وهو محترم من الكثير فى شرق نيجيريا كمعلم يكرس نفسه للتعليم ، وكمجاهد لا يكل ضد الرشوة فى الحكومة والقطاعات الأخرى ، وهى معضلة ليست صغيرة فى أفريقيا الناهضة .

وتبقى الحقيقة قائمة ، وهى أن المسيحية فى إفريقيا تواجه اضطراباً

عميقاً . وكما كتب أخيراً كبير أساقفة يورك بعد جولته فى إفريقيا : « إن الوقت ضيق ، وهو أضيق فى بعض الأماكن من غيرها ، وقد يكون من الغباء ألا تعرف الجماعات المسيحية الأساسية أن العمل المسيحى فى أفريقيا يحتاج إلى تجديد وإصلاح شاملين لعهد جديد تماماً فى التاريخ الإفريقى » .

وفى الدين ، كما فى السياسة ، يلوح أن الإفريقيين مصرون على أن يتجهوا اتجاهاً خاصًّا يناسبهم . فالشعور المسيطر عليهم هو مقاومة كل ما يفرق بينهم ، ويضع الإفريقى ضد الإفريقى . وتجتاز إفريقيا ثورة روحية كما تجتاز ثورتها المستمرة لتوقعاتها الطامحة ، والطرق التى تتكلم بها الشعوب الإفريقية عن المسائل الدينية تغاير بوضوح الإطار القديم الذى بدأت فيه الإرساليات عملها . ويوجد الآن قلق فى النطاق الروحى ، كما يوجد فى النطاق السياسى . وهنالك تيه مهدم للروح ، ولا سيما بين الشباب . وإن الكثير مما يلوح الآن نقداً تشهيريًّا وضاراً ما هو فى الواقع إلا تفكير بصوت عال عما فى أنفسهم . عن آمالهم الموجعة ومخاوفهم المؤلمة . وحينما يتكلمون بحماس عن تراث ماضيهم الزاهى يلوح فى الواقع أنهم يعنون أن مستقبلهم يجب أن يبنى بشكل ما على أسس دياناتهم وثقافاتهم التقليدية .

وقد قال أحدهم : « بالنسبة لنا ، نحن الإفريقيين ، يبدأ التاريخ اليوم ، ومع ذلك فإن الحاضر وليد الماضى ، ماضينا نحن ، لا ماضيكم أنتم » !

آلهة إفريقيا العظام

فى التاسع عشر من مارس سنة ١٩٦٠ كان فيليب كجوزانا ، وهو ترانسلفانى خجول فى الحادية والعشرين من عمره ، يكسب عيشه عن طريق بيع جريدة يومية متحررة ناشئة تسمى « الكونتاكت » . وفى مكاتب « الكونتاكت » كان من المعروف أن هذا الشاب ملتحق بجامعة كيب تاون ، وأنه يدير حساباته بدقة ، وكان لطيفاً إذا ما تحدث معه أحد . وفيما عدا هذا كان فيليب كجوزانا شابًّا إفريقيًّا عاديًّا طويلا ، نحيلا ، قليل الكلام .

وفى العشرين من مارس سنة ١٩٦٠ قذف فيليب كجوزانا بمستقبله فى الجامعة ، وهو امتياز له قيمة كبيرة ، وقام بحملة هزت أركان كيب تاون .

وقف فيليب على أحد (الأرصفة) غير المنظمة فى مدينة لانجا الإفريقية أمام بضعة آلاف من مواطنيه السود ، وقال لهم إنهم فى الساعة السابعة تماماً من صباح اليوم التالى سوف يبدءون فى « اتخاذ نشاط إيجابى قاطع حيال قوانين المرور » .

ولم يكن فيليب كجوزانا قد قاد أى شيء قبل ذلك فى حياته ، ولكن المنصتين له كانوا يشعرون أنهم إنما ينصتون إلى رجل ملهم . كانت فصاحته مؤثرة : « فى هذه المرحلة من مراحل نضالنا أمامنا الخيرة : فهل نظل أنصاف آدميين ؟ أو هل نحن مستعدون لأن نكون مواطنين ، رجالا ونساء ، فى ديمقراطية متحررة من تعصب اللون فى جنوب إفريقيا ؟ إلى متى سنظل "بانتو" و "من الأهالى" و "غير الأوربيين" ، و "غير البيض" أو "السود القذرين" فى أرض أجدادنا ؟ متى ننادى بسيدى وسيدتى وآنستى ، وسادتى وسيداتى ؟ إلى متى نظل فى قاذورات "وندرمير" نيانى . أو صحراء نيانجا الغربية ؟ إلى متى نظل نموت جوعاً وسط خيرات بلادنا الكثيرة ؟ إلى متى نظل أحد عشر مليوناً

بدون حقوق أو آراء أو حق انتخاب ؟ »

« بأى اللحوم يتغذى الرجل الأبيض الجائر حتى أصبح بهذه العظمة ؟ يا أبناء إفريقيا ، أمامنا أن نختار بين أمرين إما أن نكون عبيداً أرقاء ، وإما رجالا أحراراً — هذا هو كل ما هنالك ! »

وكان كجوزانا مستعداً لأن يفعل أكثر من مجرد إثارة الأحاسيس ببلاغته . لقد كانت لديه خطة للعمل أبان عنها بقوله :

« أود أن أكون مفهوماً بوضوح هنا . لندع العالم يتذكر أننا لا نحارب الدكتور " فيرفورد " لأنه الدكتورفيرفورد ، إننا لا نحارب ضد الحزب الوطنى أو حزب الاتحاد . إننا لا نحارب الأوربيين أو الهنود أو الصينيين ، وبالاختصار إننا لا نحارب أحداً . إن مجهوداتنا وقوانا موجهة ضد أوضاع ، ضد آراء وأساطير خرافية .

« إنها الأسطورة التى يطلق عليها الآخرون التفرقة العنصرية ، أو أحقية الرجل الأبيض فى القيادة ، أو تفوق الرجل الأبيض . إننا نقاتل ضد مذهب كالقن ، بأن أمة معينة كانت مختارة من الله لتتزعم ، وتقود ، وتحمى الأمم الأخرى .

«إننا لسنا قطعياً من البرابرة الأغبياء الذين يحاربون الرجل الأبيض فقط لكونه أبيض . لا يوجد شخص عاقل يفعل هذا . ولكى يقضى على أسطورة تفوق الجنس قام مجلس " إفريقيا المتحدة " بوضع مخطط يبدأ غداً وينتهى سنة ١٩٦٣ حينما تتحقق ولايات إفريقيا المتحدة .

« سوف نبدأ بقوانين المرور ، ثم ما يليها ، وهكذا » .

وبعد أن شرح ببعض التفصيل كيفية قيام الحملة ضد قوانين المرور قال كجوزانا لمستمعيه ما لن يفعلوه :

« لن نحرق ،ولن نتلف أى جزء من كتاب المرور بأى طريقة . إننا لن نقاتل ،أو نحاول القتال ، لن نسب ،أو نحاول السباب ، لن نعطل ، أو نحاول تعطيل رجال الشرطة فى أثناء قيامهم بواجباتهم المشروعة . لن نقذفهم

بالحجارة ، ولن نفعل أى شىء آخر يثيرهم . من يقم بأى عمل من هذه الأعمال فمن البديهى أن الشرطة تتصرف معه ، كما أننا أيضاً كمنظمة سوف نتصرف معه بعدئذ . يجب ألا يحمل أى شخص معه نقوداً أو مدى أو أسلحة خطرة .

« إن أفراد الشعب لن تنضم إلى هذا الكفاح لمصالح شريرة شخصية . لن يقوم أحد بإحراق أى مبنى ، أو مكتب ، أو مدرسة ، أو أية ممتلكات حكومية لن يقوم أحد بقطع أسلاك ، أو محاولة قطع خطوط السكك الحديدية . لن يقوم أحد بإحراق سيارة ، أو تهديد أى إنسان .

« إذا قام أحدكم بهذه الأعمال ، وبدأ رجال الشرطة يطلقون النار فإن من يموت ، أو يصاب بجراح سوف يطلب القصاص له من المتسبب فى الشر . إن آلهة إفريقيا العظام سوف يوقعون الحكم على مثل هذا الإنسان .

« ويطبق المبدأ نفسه بالنسبة للشرطة . لسنا نريد أن نثار بأى طريقة . ولسنا نريد أن تُعْطَى تعليمات مستحيلة التنفيذ مثل تفرقوا فى ثلاث دقائق أو ما شابه ذلك من الأوامر غير المفهومة . إذا أرادت الشرطة منا أن نتفرق فلسوف نفعل ذلك . إن زعماءنا سوف يكونون دائماً معنا ليدلونا على ما نفعله. إننا لا نريد أن نكون ألعوبة إذا هاجمونا ، فلن نهرب ، ولكننا لن نقاتل . سوف نتركهم لحكم العالم ، ولآلهة إفريقيا العظام » .

وفى ٢١ من مارس بدأت الحملة فعلا . وكانت قيادتها تماماً كما قال كجوزانا ، فكان تنظيمه لأتباعه فائقاً . وقد حبس هو شخصيًّا ، ولكن أفرج عنه فى ٢٥ من مارس ، وحمل إلى لاجانا على أكتاف مؤيديه .

وبعد خمسة أيام ، قاد حملة السلام المشهورة المكونة من ثلاثين ألفاً إلى قلب كيب تاون . وطلب السماح له بمقابلة السلطات لمناقشة شكاوى الإفريقيين . وللمرة الثانية ظهرت قيادته الفائقة . لم يكن هنالك سباب ، ولا قتال ، ولا قذف بالحجارة . ولا إثارة من أى نوع . ولم يحمل أى منهم سلاحاً . سار الثلاثون ألفًا بجانب أراضى الجولف فى وسط مناطق تجارية ومنازل الرجال

البيض ولم يكن هنالك أى شغب . وخرج التجار من متاجرهم للمشاهدة بدون أن يغلقوا نوافذهم أو أبوابهم ، كما مرت بعض السيارات الأتوبيس ذات الطابقين خلال الجمهور فى هدوء ، وكذلك بعض السيارات الخاصة . وساروا سريعاً ، يتقدمهم كجوزانا رافعاً رأسه ، ومؤرجحاً يديه ، منتعلا صندلا ، ومرتدياً سراويل سوداء قصيرة ، وقميصاً أبيض مفتوحاً ، وجاكتة .

ومروا عبر « أتلون » و « مابراى » إلى طريق « دى فال » . وظهرت الشمس ، ولم يكن هنالك خوف ، أو مرارة بل سير هين ودود يكاد أن يكون مرحاً فى مظهره .

وفى نهاية طريق دى فال توقف كجوزانا وسألهم أن يجلسوا فى الظلال ، ويستمعوا له . وقال لهم إنه سوف يتقدم مع خمسة آخرين ، ويطلب مقابلة وزير العدل ، وإنه يجب عليهم الانتظار فى هدوء . وحين هم بتركهم سأله الناس : ألا يخشى القبض عليه ؟ فأجاب بأنه يثق ثقة كاملة فى محاولته إيجاد حل عادل لشكاواهم عن طريق التفاهم مع السلطات .

وتجمع جمهور غفير من جميع أنحاء المدينة فى ميدان كاليدون . وصعد كجوزانا درجات مبنى شرطة ميدان كاليدون ، ووعدوه بالمقابلة التى يطلبها .

وبالهدوء نفسه قاد كجوزانا رجاله خارج كيب تاون عائداً إلى لانجا ، ولا بد أن آلهة إفريقيا العظام قد اغتبطت بهذا .

ولم تتم المقابلة التى وعد بها فيليب كجوزانا ، وبدلا منها ألقى القبض عليه . ولهذا لا بد أن آلهة إفريقيا العظام قد غضبت .

إننى أذكر هذه القصة لسببين — أولا : لأنها قصة من إفريقيا لا نكاد تكون معروفة فى عالمنا ، على الأقل بهذه التفصيلات العارية المخجلة . إن بطلها كجوزانا سوف يسمع عنه مرة ثانية — بعد أكثر من عام من خيانته ، وسجنه بواسطة سلطات جنوب إفريقيا . لقد هرب عبر القارة بمساعدة الفدائيين الإفريقيين حتى وصل سالماً إلى تانجانيقا . ومن هناك طار إلى لندن ليلحق بالمنفيين الآخرين الذين أبعدوا عن أرض أجدادهم .

وللقصة سبب آخر قوى من وجهة نظر هذا الكتاب ، هو أن أوضح بمثل حىّ النظرة الوراثية لمثل هؤلاء الإفريقيين صانعى مستقبل قارة إفريقيا ، أمثال فيليب كجوزانا . من الواضح أن آلهة إفريقيا العظام الذين ترك كجوزانا لهم الحكم على أتباعه وعلى شرطة جنوب إفريقيا آلهة حقيقيون لهؤلاء الذين يلجئون إليهم ، كما أنهم يلعبون دوراً جوهريًّا فى تكوين شخصيات زعماء إفريقيا . إن فيليب كجوزانا لم يكن بالتأكيد ليستطيع أن يشق طريقه إلى جامعة كيب تاون بدون الكثير من فهم التعاليم المسيحية وتبنيها . ومع هذا نراه حينما وقف هنالك على « الرصيف » فى لانجا ، وقد وضع ثوب الزعامة الموهوبة فجأة وبغموض على كتفيه ، وأظهر معرفة تامة بنظرية كالفن ، لم يتضرع إلى إبراهيم ، وإسحاق ، ويوسف ، ولا إلى الآب والابن والروح ولكن إلى آلهة إفريقيا العظام .

إن الزعيم فى إفريقيا كأى زعيم فى كل المدنيات ، يجب أن يفهم قومه وأن يفهموه ، وأن يعمل فى حدود التقاليد والمفاهيم الشعبية . وهذا دور من الواضح أن كجوزانا مستعد له روحيًّا ، ولو أن ظهوره الفجائى قد يكون محيراً للذين لا يشاطرونه ميراثه .

وبالنسبة لأى شخص أجنبى لا يظهر أن لإفريقيا أى ميراث روحانى خاص متميز مثل بقاع أخرى من العالم كالدول العربية مثلا ، أو الهند ، أو بورما . ومع هذا فإن الزعيم الإفريقى الحديث ، برغم أنه يلوح أن تنشئته أوربية خالصة . قد أظهر القدرة مرة بعد أخرى على أنه يلمس جذور الروح الإفريقية .

ومن الملح فى جنوب إفريقيا التى تقال عن « غير الأوربيين » — كما تطلق السلطات البيضاء على الإفريقيين — يسأل الشرطى الأبيض :
« من أين تأتى ؟ » تكون الإجابة « من غير أوربا » « إنى لم آت من أوربا » .

وهذا الشعور بالانتماء بأنه « يأتى من غير أوربا » متغلغل فى كل إفريقيا ،

ونتاجه هو أن يفهم الإفريقى أنه ينتمى بروحه وجسده إلى وحدة محددة هى إفريقيا .

وإذا كانت آلهة إفريقيا هى المهيمنة على هذه الوحدة ، فمن هم إذاً ؟ وماذا يمثلون ؟

قال بعضهم إن الصفة العامة الوحيدة التى يمكن أن تطلق على إفريقيا بصدق هى أنها قارة . ولكنى مقتنع أن هنالك أيضاً بعض التعميم عن التقاليد الإفريقية فى المعتقدات الروحانية . فيمكن أن يقال مثلا إن الديانات القديمة الموروثة فى إفريقيا أحسن ما توصف به هى أنها وثنية ، أو أنها تهتم بآلهة متعددة ، وبالأرواح ، وليس هنالك شىء غير عادى فى هذا ، فإن مثل هذا الطابع كان قديماً يسود اليونان ، ومصر ، والهند ، وأماكن أخرى .

والشىء غير العادى عن إفريقيا أن يكون فى قارة بمثل هذه ، الضخامة ، ومجزأة إلى قبائل ، وليس لها تاريخ محدد شامل ، دين يكاد يكون عامّاً فى تقديس الأرواح ، والقوى الروحانية . وأسماء هذه الأرواح والقوى الروحانية متعددة فى إفريقيا تعدد القبائل واللغات ، ولكن الأساس عملا فى كل نطاق يمكن أن يوصف بالتثليث ـ إله أعظم ، وآلهة وأرواح أقل درجة ، ثم أرواح الموتى .

وفى قبائل يوروبا فى غرب نيجيريا يطلق على الإله الخالق الأب ، والسيد والعظيم ، مالك النفس ، أو الروح وأصل العظمة ، ويعتقدون أنه خالق كل شىء ، والقاضى على الناس ، الآن وبعد الموت ، المحافظ على القوانين الأخلاقية . وبلسان يوروبا تعطى كامتا « أداك واچو » وظيفة الإله القضائية سمة جميلة من الصمت والنشاط . وأكثر أسمائه المقدسة هو « أولورن » التى تعنى مالك الجنة .

ويعتقد معتنق اليوروبا التقليدى أن روحه يجب أن تقدم حساباً للإله عن أعمالها الدنيوية ، وأن المحسن يذهب إلى جنة الخلد ، والمسىء يذهب إلى أكمة القاذورات .

والآلهة الأقل مرتبة تعتمد على « أولورن » ، فهو منبتهم ورئيسهم الموهوب ؛ ومع هذا يمكن أن تعبر أرض يوروبا طولا وعرضاً دون أن تجد معبداً واحداً يعبد فيه « أولورن » . وللآلهة الآخرين معابدهم وقساوستهم ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للإله الأعظم . وللآلهة الآخرين مناسبات أعيادهم ، ولكن ليس لأولورن أعياد .

وهذه الظاهرة قد أثارت وحيرت أحد كبار دارسى الديانات فى غرب إفريقية وهو « جيفرى بارينلدر » وفأخذ يبحث عن تعايل لها ؛ وهل « أولورن » إله بعيد وغامض حتى إنه يمكن أن يختفى من النظرية اليوربية دون أن يفتقد ؟

وحينما سئل أحد قساوسة معبد هام عن هذه النقطة أجاب بأن أولورن لا يعبد ، ولكنه يعتقد أن الله خالق معبده الإلهى الخاص « أودودوا » . وقال : « إنه قبل أن يأتى الأوربيون إلى هذه البلاد كان شعب يوروبا يعرف شيئاً عن الله لكنهم لم يقيموا له معابد ، أما الآن فإن أى شخص يمتلك بعض المال يستطيع أن يبنى منزلا لله ؛ أعنى كنيسة أو جامعاً » .

واتجه قسيس أوريشالا وجهة أخرى حينما سئل فقرر لبارينلدر أن كل صلواته تنتهى باسم الله : والاسم المستعمل عادة هو الرحمن، أو رئيس الكل (أولودومار) . وفى آخر الصلوات للآلهة الآخرين يقول : « الله صانع كل شيء » (أواورن آه شى ايه). ومعناها أن أى شيء لم يتم عمله سوف يتمه الله .

واكتشف بارينلدر أيضاً أن الناس كثيراً ما يكسرون جوز الكولا ويصبون الماء خارج ديارهم قرباناً لأولورن فى حالات الاستعجال ، أو شدة الاحتياج . وكان شرحهم وتفسيرهم لذلك أنه حينما لم تفلح الآلهة الآخرون فمن الضرورى. ومن الحكمة : الاتجاه إلى كبيرهم . ولم يكن غير عادى لأية أسرة ينزل بأحدها المرض أن يضع أفرادها شيئاً من طعام بارد للإله ، ويعطى المريض الباقى بعد صلوات مناسبة .

وقرر العجائز لباريندر أن هذه الصلوات تقال فى الخلاء ، لأن أحداً لا يعلم أين يوجد وجه الله . وقال بعضهم إن هذا هو السبب فى أن أولورن لا تقام له معابد يصنعها البشر . وبما أنه فى كل مكان فمن الغباء محاولة حصره فى معبد .

واكتشافات باريندر تشابه إلى درجة كبيرة اكتشافات آخرين قاموا بملاحظة جماعات قبلية إفريقية أخرى . فهناك دائماً إله أعلى ، وكثيرون يذكرون اسمه حينما يستعدون للنوم : « نرجو الله أن يوقظنا فى صحة » ، وحينما يستيقظون : « نرجو الله أن يرزقنا غذاءنا » . إنهم يعتقدون فيه ، وفى أن وجوده وحضوره حقيقى وعظيم . لماذا إذاً لا يعبده الإفريقيون وحده ؟ إن الإجابة الصحيحة عن هذا تلوح من وجهة نظر الإفريقيين أنه من الغباء إهمال القوى الأقل شأناً لأنها أكثر قرباً ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالى يمكنها أن تسبب متاعب أكثر من الله العظيم ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة فى حالة الأزمات . ويوافق الإفريقيون بسهولة على أن جميع الناس يمكن أن يدعوا الله . ولكن لماذا نستنفد ما قد يمكن أن يكون كمية محدودة من الدعوات النهائية ؟

« شينوا أشيبى » مواطن من إيبو بشرق نيجيريا يتحدث فى أول قصصه « الأشياء تتهاوى » عن الأوضاع فى إحدى القرى .

فى أوائل هذا القرن ، بعد أن حضر إليها المبشرون الأولون — كان المستر براون وهو رئيس الإرسالية فى المنطقة يزور القرية ويمضى ساعات طوالا مع الرئيس أكوانا فى مضربه يناقشان الدين عن طريق مترجم . ولم يذهب أحدهما بعيداً فى تغيير معتقدات الآخر ، ولكنهما تعلما كثيراً عن ديانتيهما المختلفتين .

وقال إكوانا لمستر براون فى أثناء إحدى زياراته : إنك تقول إن هنالك إلهاً أعظم . وهو صانع السموات والأرض . ونحن أيضاً نعتقد فيه ونسميه شاكوا ، إنه صنع كل العالم والآلهة الآخرين .

وقال مستر براون : « لا يوجد آلهة آخرون . إن شاكوا هو الإله الوحيد ، أما الآخرون فزيفون . إناك تنحت جزءاً من خشب مثل هذه . (وأشار إلى قطعة خشب علق بها إكوانا معبوده المنحوت « أكنجا ») . وتسميه إلهاً ، ولكنه لا يزال قطعة من الخشب » .

وقال إكوانا : « أجل ، والشجرة التى أخذناها منها صنعها شاكوا ، تماماً كما خلق كل الآلهة الصغار . ولكنه خلقهم كرساه حتى يمكننا أن نتصل به عن طريقهم وهذا مثلك تماماً ، هل أنت رئيس كنيستك » .

واحتج مستر براون قائلا : « كلا إن رئيس كنيستى هو الله » وقال إكوانا : « أعلم ذلك ، ولكن يجب وجود رئيس مثلك على الرجال ومسئول عنهم فى هذا العالم » .

— « إن رئيس كنيستى — بهذا المعنى — موجود فى إنجلترا » .

وصاح إكوانا قائلا : « هذا ما أعنيه تماماً . إن رئيس الكنيسة فى إنجلترا . وقد أرسلك هنا كرسوله ، وأنت بدورك قد عينت رسولا وخادماً خاصين بك . أو دعنى أعط مثالا آخر . محافظ المنطقة مثلا ، لقد أرسله ملككم » .

وقرر المترجم من نفسه : « إن لهم ملكة » .

— « إن ملكتكم ترسل رسولها ، وهو محافظ المنطقة ، ولكنه يجد أنه لا يستطيع أن يقوم بالعمل بمفرده ، فيعين نائباً وآخرين لمساعدته . وهو الوضع نفسه بالنسبة لله أرشاكوا . إنه يعين الآلهة الصغار لمساعدته ، لأن عمله أكبر كثيراً من أن يقوم به شخص بمفرده » .

وقال مستر براون : « لا يجوز أن تفكر فى الله كشخص . ولأنك تفعل ذلك يخيل إليك أنه بحاجة إلى مساعدين ؛ وإن أسوأ ما فى هذا الاعتقاد أن كل عبادتك إنما تمنح الآلهة الآخرين الذين خلقتهم من دون الله » .

— « ليس هذا بحق . إننا نقدم القرابين للآلهة الصغار . ولكن حينما لا يفلحون نلتجئ إلى الله شاكوا . وهذا هو الحق . إننا نقترب من رجل عظيم

عن طريق خدمه ، ولكن حينما لا يفلح الخدم فى أداء مأموريتهم نلجأ إلى آخر معقل للأمل . قد يلوح أننا نولى الآلهة الصغار اهتماماً أكبر ، ولكن هذا ليس صحيحاً . إننا نضايقهم أكثر ، لأننا نخشى أن نضايق سيدهم . إن آباءنا كانوا يعلمون أن شاكوا هو السيد الأعظم ، وهذا هو السبب فى أن كثيراً منهم سمى أولاده باسم شاكوا . إن شاكوا هو الأعلى » .

وقال مستر براون : « لقد قلت شيئاً واحداً يثير الاهتمام ، وهو أنكم تخشون شاكوا . وفى دينى شاكوا والد محب لا داعى للخوف منه ، إذا ما سرنا تبعاً لناموسه وإرادته » .

ورد إكوانا : « ولكننا يجب أن نخشاه إذا لم نسر طبقاً لإرادته . ومن منا يعلم إرادة الله ؟ إنها أكبر كثيراً من أن تعلم » ؟

وبمناسبة النقطة الأخيرة التى قررها إكوانا من وجوب خشية شاكوا أكرر أقوال غانى نابه ، وأحد زعماء الميثوذست الوطنيين الغانيين ، ومن أكثرهم نشاطاً وألمعهم مستقبلا ، وكنا نناقش النقاط التى لم تفلح فيها تعاليم الإرسالية فى التعرف على وجهة نظر الأفريقيين .

وما قرره كان تقريباً ما يلى :

« حينما كنت صغيراً ، اعتاد من هم أكبر منى سنًّا أن يقرروا إلى أن المسيحية قد أحلت معها هبوطاً بالمستوى الأخلاقى فى إفريقيا ، لأن الرب المسيحى كان طيباً جدًّا . وقد يبدو لأول وهلة أن هذه تهمة سخيفة ، ولكن كلما ازددت فيها تفكيراً ازددت اقتناعاً بأن الخطأ إنما نشأ عن تضخيم لتصوير حب الله . فالمبشرون الميثوذيستيون كانوا يبالغون جدًّا فى إظهار جانب النار ، ثم يتحول " البندول" إلى النهاية العكسية تماماً ، وتكثر المبالغة فى حب الله على حساب سخطه . والكائن الأعلى بالنسبة لمعظم سكان إفريقيا خير ، ولكنه لا يصبر على الشر والخبائث » .

ويمكن هنا إلقاء بعض الضوء على نبوءة فيليب كجوزانا المنذرة بأن

آلهة إفريقيا العظام سوف تفرض حكمها على كل من خالف الوسائل السلمية فى مقاومة قوانين المرور .

وبالاختصار فإنه لا مجال للشك فى أن الإيمان بإله أعلى أو قادر . منتشر باتساع فى إفريقيا . وكان من المعتاد أن يقال إن وجود مثل هذه الآراء لا بد أنها وليدة نفوذ المبشرين المسيحيين أو المجاهدين المسلمين . ولكنه من المعروف جداً الآن أن فكرة وجود كائن أعلى لم ترد من الخارج . إنها جزء من الحياة الإفريقية القديمة ، حتى إن المبشرين قد وجدوا أن الرب اليهودى المسيحى شيء مألوف لدى الإفريقيين العاديين . وكلما أكثر الشخص التخاطب مع الإفريقيين ، شباباً وكهولا ، ازداد اقتناعاً بوجود علاقة منذ القدم بين الناس والله ، الرب الخالق ، صانع الآلهة والآدميين .

* * *

وفى لجب من أعواد الخيزران ، وفى منازل من أغصان الشجر ، تعيش قبيلة «كالاباري» ، وهم شعب يتكلم لغة « إيجو » ، ويصيد الأسماك ، ويقيم فى شرق دلتا النيجر .

وأقصى حماسهم موجه إلى النشاط الدينى ، وتقديرهم السامى موقوف على من يبرز فى الرقص ، أو الضرب على الطبول ، أو المهارات الأخرى المتصلة بالحياة الروحية . ومن هذه الناحية ، كما من نواح أخرى كثيرة ، فالكالاباري تمثيل صحيح لأغلبية سكان إفريقيا ، فإن وجهة نظرهم إلى الآلهة هى فى الواقع مفتاح حياتهم .

ويقسم اللاهوت الكالاباري العالم قسمين من الكائنات : — « أوجو » (المادى أو الجسمانى) ثم « تيم » (الروحانى أو اللامادى) . فأيما كائن له « أوجو » يمكن أن يراه الإنسان العادى ، إذا كان فى مركز يسمح له بذلك ، لأن أوجو سواء أكان رجلا ، أم سمكة ، أم ثعباناً ، أم شجرة ، أم حشائش ، أم أحجاراً ، دائماً يشغل حيزاً محدداً فى الفضاء .

أما « تيم »، من الناحية الأخرى ، فيمكن أن يراه الناس العاديون حينما يكونون صغاراً جداً فقط ،قبل أن يطفئ فساد العالم المادى نور قلوبهم .

ويمكن استرداد هذه القدرة المفقودة ، ولكن لا يستردها إلا المستعدون للخضوع لعلاج عشبي شديد يطلق عليه « تجلية العينين والأذنين » . وهكذا يجند المقدسون الذين لهم القدرة على التخاطب مع « تيم » ومعرفة إرادته .

وبالرغم من أنهم يتكلمون عن « تيم » كأنما قد حضر إلى مكان معين، واستقر فيه ، فهم أيضاً يصفونه بأنه فى كل مكان « كالنسيم ». ويمكن لتيم أن يكون بغير أى مقابل جسدى فى عالم « أوجو »، كما يحدث بالنسبة لآلهة القرية الأبطال . أو أمواتها مثلا .

هؤلاء هم الذين لاتراهم . ولكل شيء فى « أوجو » ما يقابله فى « تيم » . وحينما يفقد إنسان أو حيوان « تيم » فإنه يموت ، وهذا يطبق على كل الأشياء فى العالم العادى ، حيوانية أو غير حيوانية ، بل حتى بالنسبة لفئة معينة من الآلهة المعروفة باسم « شعب المياه » — إن « تيم » يسيطر على « أوجو » كما يسيطر الربان على قارب الصيد .

ويمكن نظرياً عبادة كل « تيم »، ويمكن الدعاء لهم وإرضاؤهم بالصلاة أو تقديم قربان إليهم . ويقول الكالاباري : إذا كسر أحدهم عصاً، وسكب أمامها خمراً ، فإن العصا تصبح إلهاً فالعصا بها « تيم » . ولكن فى مزاولات الحياة العادية توجد نخبة محددة من « تيم » هى التى تعد أن لها قوة كافية تسوغ مجهوداً كبيراً . وكما يمكن توقعه، لايتفق كل الكالاباري، على أى « تيم » يجب احترامه وأيها يمكن إهماله .

وهناك وجهة نظر غريبة تماماً على العقلية الغربية، فى حين أنها شائعة فى التقاليد الدينية الإفريقية ، وهى ممثلة فى المثل الكالاباري الذى يقول : « إن الرجال هم الذين يجعلون الآلهة عظاماً ، وإن قوة إله إنما تزداد بالتعبد البشرى . فكلما زاد التعبد حمية ازدادت قدرة الإله على مد يد المعونة إلى عبده » .

واللفظ الذى تطلقه قبائل يوروباعلى الصلاة هو « شى أوريشا » . ومعناه أن «يصنع » الإله . وحينما يتعبد الكالاباري لإله فإنهم يشاطرونه قواه الحيويه . وهذا بدوره يساعدهم على حياة أفضل . ولكن ، على نفس الأساس . تتجدد قوى الإله بالتعبد له ، وبذلك تساعد الجماعة على بقاء وتجديد قوة الإله .

وأحياناً يبدأ إله التصرف بخبث وحقد ، وهنا يجب وضعه فى مكانه — يجب الإقلال من شأنه . وكمثل لذلك يحكى صياد كالاباري عن قرية اسمها « أووم » حيث كان الناس يعبدون رجل مياه اسمه إكبانا . وكان المعروف أن إكبانا كثيراً ما يتجسد « أوجو » سمك القرش . وبعد أن التهمت الحيتان عدة صيادين من أوو ، توجهت الجماعة إلى قديسيها تطلب المعونة . وبعد دراسة مستفيضة قرروا أن إكبانا هو المذنب .

واتخذ مجلس الزعماء خطوات سريعة لوضع حد لتدخل رجل المياه الشاذ ، وغير المرغوب فيه . وأصدروا قراراً باصطياد حوت ، وسكب دمائه فى بئر القرية . وفى احتفال مهيب شرب كل رجل رشفة من ماء البئر الملوث ، وكانت النتيجة الموثوق فيها من هذا العمل الرمزى لنبذ المجتمع هو غلّ قوة إكبانا من عمل الخير والشر معاً .

وإذا ما سئل الكالاباري كيف يمكن أن تؤثر طقوس الرجال فى قوة إله ؟ يقررون أن ذلك يحدث أيضاً بالنسبة للبشر الذين يقوى لديهم « تيم » وينشط ، أو يضعف ، ويتكاسل ، بالتناسب مع مايضفيه عليهم أهلوهم من شرف . إن عدم قدرة الغرب على تفهم مثل هذه الأشياء كان مدعاة للحزن فى إفريقيا .

« إن الرجل الأبيض ساذج . حقيقة أنهم تعلموا أن يخترعوا أنواعاً شتى من العجائب ، ومع هذا ليس لديهم الذكاء الكافى . إنهم لايفهمون شيئاً عن الآلهة » .

وإن المثل القائل : « بأن الرجل يقترح والله يفعل » ليس له أى معنى لدى قسيس كالاباری . إن الآلهة موجودة لتشاطر الإنسان قواها . أما إذا كانت الصلوات والقرابين لا تفلح فى إيجاد الفوائد المرجوة فإنه لا يمكن أن يكون هنالك إلا تفسيران فقط – فإما أن يكون القديس قد وجه صلاته إلى الإله الخطأ ، أو أن العبادة نفسها لم تمارس بطريقة صحيحة .

ويختلف الكالاباری فى تقدير القوة النسبية لبعض « تيم » ، ولكن هنالك عائلتين من الآلهة تحتم قواها ونفوذها على الكل مراعاة احترامها .

وأول طائفة هم الذين يطلق عليهم حكام الكيان والتقدم . ففى المبدأ أسس الإله الأعظم قوتين لتعملا معه ، الأولى الأنثى الأصلية وسماها « تامونو » ، والأخرى الذكر الأصلى « سو » . ومن تامونو جاءت الأرض ، وأعطى « سو » سلطة ترجيه الأرض . وكل شىء فى العالم به جزء من تامونو ، وسو . كما أن مجرى الحياة لكل قرية ، وكل كوخ ، كل فرد ، قد خلق ، وسير ، بواسطة « تامونو » ، و « سو » .

إن مصير الإنسان ، كما يقول الكالاباری ، هو « ما قاله قبل أن يأتى » . ومرة ثانية يختلط الأمر على الغربى . ولكن مغزى هذا المثل يمكن تفهمه بعد الشرح . فقبل مولده يذهب « تيم » الشخص إلى تامونو ليقول لها أى طرق الحياة يختار . وتستمع تامونو إلى هذه « الكلمات » وتعتز بها . وتتجسد الكلمات « سو » أو مصير الإنسان الذى حضر تيم قبله إليها ليتكلم . وترسل تامونو بعد ذلك « تيم » الإنسان ليدلف إلى الجسد الذى خلقته فى رحم الوالدة . وبذلك يكون منطقيًا جدًّا القول بأن الشخص هو ما قاله قبل أن يأتى .

وهنالك « تامونو » متعددات « وسو » متعددون بتعدد الناس والأشياء الموجودة فى العالم ، لكن تامونو المختلفات هى تامونو كبيرة واحدة ، وسو المتعددون هم سو واحد كبير . ومن ثم فإن وحدة الحياة وتعددها تتضمن كل منهما

الأخرى ، وكل شيء فى العالم يمكن تفسيره بتامونو وسو ، وهما يقومان بأدوارهما المختلفة .

وسوف نرى بعد لحظة أن طريقة التفكير ، التى تشتمل على نظريات تامونو وسو تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التى تهتم بتفسير الطائفة الثانية من الآلهة . فتامونووسو هما الأساس الذى تقوم عليه طبيعة معنوية متسعة سواء فى الخلق أو التطور . فيما عدا هذه الوظائف ليس لشخصيتها وجود حيوى فلا بكاء ،ولا ضحك، لا حب ، ولا كراهية .وكما شرح أحد كبار المتعلمين الكالاباريين « إن تامونو وسو يمكن أن يحترمها أكثر من عالم ذرة » .

والطائفة الثانية من الآلهة مسألة أخرى ، لأننا هنا نلتقى بأبطال القرية وشعب الماء ، والأسلاف ، وتدخل مع كل من هؤلاء إلى التجارب اليومية فى حياة الإنسان كما نجد التعليلات لكل ما يحدث فى عالم الكالابارى .

فأولا أبطال القرية الذين يوجدون الآن فى تيم فقط ، جاء وقت عاشوا فيه بين ظهرانى مؤسسى قرى الكالابارى فى شكل « أوجو متكامل » . وتشرح أسطورة شائعة بتفصيل واسع أعمالهم،وشخصياتهم،فى أثناء كينونتهم الجسدية . ويقال إن أبطال القرية قد أتوا من أماكن سحيقة ليساعدوا فى تأسيس قرى الكالابارى . وكان غرضهم من المجيء هو تعليم رواد الكالابارى الأوائل شتى أنواع المهارات الضرورية . فالقرويون فى « أووم » مثلا تم تعليمهم حرفة التجارة بواسطة أواميكاسو ، والرقص والإيقاع على الطبول للحفلات التنكرية كانت المواهب الخاصة « لأكين با » ، والقوى الخاصة بمختلف أنواع القتال وصيد الرءوس كانت من اختصاص كل من أوكبولادو وسيريودو ، وفن العلاج والنظافة استورده أماكارسا وكرجباسا .

ماذا يمكن أن يطلب أى مجتمع بادئ أكثر من هذا ؟ ومع ذلك يقال إن أبطال قرية «أووم» سرعان ما تضرروا من الشعب المتأخر الذى تبنوه . ويلوح أن القرويين أصروا دائماً على مخالفة الأقانيم التى وضعها

الأبطال مع كونها أساسية للمهارات التى تخصصوا فيها . وقد تكررت التحذيرات ، ولكنها أهملت ، وعندئذ اختفى الأبطال واحداً فواحداً — تلاشوا .

وعلى أى فإنهم لم يصعدوا إلى السماء إلا بعد أن تركوا تعاليم مفصلة عن الصلوات والقرابين التى تقدم لهم ، والتى سوف يستمرون فى مقابلها فى مراعاة مصالح أووم . ولكنهم سوف يفعلون هذا فى المستقبل « كتيم » ، فقد خلع الأبطال عنهم رداء أوجو إلى الأبد . وألقيت مسئولية تقديس التعاليم ، وحفظها ، على ذرية رجال القرية الذين صادقهم الأبطال فى أثناء كينونتهم الجسادية ، وإن كانت الأقانيم يجب أن تتم لمصلحة المجتمع .

وثانياً يوجد شعب الماء الذى يلعب دوراً مغايراً متمماً لدور أبطال القرية ، واهتمامهم ليس موجهاً إلى اختراع المهارات الإنسانية وصيانتها ، ولكن فى السيطرة على الطبيعة التى تتحدى أهواؤها كل قدرات البشر . ومهمتهم الخاصة فى السيطرة على منسوب المياه ، والتيارات فى الجداول ، وحركات وعمق أسراب الأسماك . وكل رجل مياه يقوم بحراسة الجزء المخصص به من الجدول ، أو الشاطئ . وتحدد منطقته تحديداً جغرافيًّا واضحاً ، وتعساً للصيادين الذين لا يعلمون فى مملكة أى من رجال الماء تقع المنطقة التى رموا فيها شباكهم .

وشعب المياه لم يكن أقل تكريماً من أبطال القرية بما حيك حولهم من أساطير مناسبة تشرح حياتهم الفنية والمتغيرة فى مدن تحت مجارى الجداول ، وتشرح مبدأ تعرف الكالاباري عليهم .

ولكن لا يوجد ود كالذى يحكى عن أبطال القرية . فلم يتجسد سكان المياه قط فى « أوجو » بين القرويين .

واتصالاتهم بالرجال لا تتضمن مودة متبادلة . وهكذا استطعنا أن نرى أن إكبانا يمكن أن يعتقد رؤساء أووموا أنه المسئول عن الضرر الشرير

ضد القرية . وفى الواقع – نظراً لأن شعب المياه ينحصر اهتمامه أساساً فيما هو تحت سلطانه – يمكن أن يتصل بهم أى شخص أو أى قرية ، ولا يستبعد أن يبيعوا خدماتهم لمن يدفع أكثر . وشعب المياه – وليس أبطال القرية أو الأسلاف – هم الذين يعتقد أنهم ذوو منفعة للرقى بمستقبل الفرد .

وأخيراً الأسلاف الموتى – وهو تيم الأشخاص المتوفين الذى انسلخ عن أجسادهم بالموت ليستمروا فى كينونتهم فى العالم غير المادى .

والاعتقاد أن شخصياتهم وقيمهم تماثل تلك التى كانت لهم وهم أحياء ، كما أن علاقاتهم بعضهم ببعض هى تماماً كعلاقة الأحياء فى الكالاباري . وهم ، كأبطال القرية ، وشعب المياه ، نسجت حولهم أسطورة حية ، ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالقرى أو بالأفراد . إن اهتمامهم موجه إلى المصلحة الجماعية للعائلات التى أنشئوها . وأى خير ، أو شر ، قد يقع على العائلة يفسر عادة بنشاط وتصرفات الموتى .

ومع هذا ليس الموتى أحياء ، بمعنى أنهم ليسوا أحياء بمفهومنا نحن الغربيين عن الحياة . إن الموتى كائنون ، وبالتالى فهم ليسوا أمواتاً . هم كائنون ووجودهم يظهر نفسه للأحياء من نسلهم عن طريق قوى متذبذبة . ويتلو جاهينز جاهن قصيدة للشاعر السنغالى الجامبى بيراجوديوب تصف وصفاً رائعاً وجهة نظر الإفريقين فى استمرار كينونة الموتى :

استمع إلى الأشياء أكثر من الكائنات
صوت النار وهى تنصت
استمع إلى خرير المياه
استمع فى الرياح
استمع إلى الأحراش تنتحب
إنه تنهد أسلافنا

* * *

هؤلاء الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً
هم هنالك فى الظلال المتكاثفة
فالموتى ليسوا تحت الأرض
هم فى حفيف الشجرة
هم فى الخشب الذى يئن
هم فى المياه التى تجرى
هم فى المياه المستقرة
هم فى الكوخ ، وهم فى الجمهرة
إن الموتى غير ميتين

* * *

هم فى صدر المرأة
هم فى الطفل الذى ينوح
وفى النار المتوهجة
إن الموتى ليسوا تحت التراب
هم فى النار التى تموت
فى الحشائش التى تبكى
هم فى الصخور الناشجة
هم فى الغابة ، وهم فى المنزل
إن الموتى غير ميتين .

* * *

إننا قد تحدثنا كثيراً عن الكالاباري ، وأرجو ألا يغضبهم حديثنا عنهم ، لكى نصور بالجملة كيفية تصوّر شعب إفريقى مثالى علاقاته مع الكيان . فأبطال القرية وسكان المياه يتناسبان فى رداء واحد لنظام متناسق للسيطرة على المهارات الإنسانية ، وقوى الطبيعة ، فى حين أن العائلات تحرسها وتقودها دائماً أرواح الموتى الحاضرة دائماً أبداً .

ومعاهدة الطوائف الثلاثة من الآلهة ، تعطى تفسيراً تحكمياً فى كل

موقف فى العالم المادى . وهذا الثالوث يشابه فى تكامله الذاتى ، بطريقته الخاصة ، نظام الكيان والتقدم ».

والواقع أن أبطال القرية، وسكان المياه ، والموتى ، يكونون بديلا كاملا عن « تامونو وسو » وأكثر من هذا ترقد خلفهم طريقة عكسية تماماً للتفكير ، فالطريقتان تختلفان من ناحية الفلسفة الدينية اختلاف مارتن لوثر مع بنيدكت سبينوزا . وأمام الأساس العابس المجرد لتامونو ، تظهر أشخاص آلهة الأسلاف بشخصيات حقيقية مملوءة بالحيوية .

ولعلنا نتساءل كيف نفسر أن شعباً يعتقد أغلبنا أنه ماكاد يتخطى طور الهمجية تكون له مثل هذه الأفكار المحكمة وغير العادية ؟ والإجابة الأساسية عن هذا السؤال طبعاً هى أن الإفريقيين ليسوا أقل ، أو أكثر ، من ناس لايختلفون عنا فى أى شيء جوهرى للإنسانية . إن استجاباتهم الدينية للحياة هى محاولة الروح البشرية أن تفهم ، وأن تسيطر . فالكالابارى ، كأى شعب آخر ، فى أى مكان فى العالم ، اعتقدوا منذ زمن بعيد جداً بوجود الآلهة ، وأنهم يستجيبون لمن يقترب منهم عن الطريق السليم . ومثل هذه الضمانات هى منبع سلام لا نهائى ، منذ الأزل ، لراحة عقل الإنسان فى عالم مهدد مملوء بالمعاجآت . والكالابارى ، كمعظم الناس قد واجهوا إخفاقاً لايمكن تفاديه فى تقربهم إلى الآلهة . وهو بدوره تهديد ثقيل جداً يستصرخ طالباً حلا ، مهما كان خيالياً .

وقد سلك الكالابارى سبلا إنسانية مألوفة حينما ألقوا عبء إخفاقهم على أخطاء فى القيام بالطقوس الدينية الحديدية على الوجه الصحيح . ويقص سفر اللاويين فى العهد القديم من التوراة خبر العقاب القاسى الذى طبقه يهوه[1] حينما وقع ناداب وأبيهو ، ولدا الكاهن الأكبر هارون ، فى الخطأ المؤسف من تقديم نار غريبة فى أحد طقوسهم . لقد التهمتهم النار فوراً .

---

(١) هو الاسم العبرى لله ، وكذلك ياهو ، والوهيم.

ولكن هنالك دائماً الأمل فى إجراء مصحح . ودارسو الهنود الأمريكيين الحمر سوف يذكرون أن قبيلة « النافاهو » تخصصت فى إجراء طقوس بالغة التعقيد، حيث لا حدود لاحتمال حدوث الخطأ. أما الكالاباري ، والإفريقيون عامة، فحافظون أكثر كثيراً من ذلك ، فطقوسهم تعطى بعض المجال — ولكن ليس كثيراً جداً — لأخطاء غير بشرية . وهم بدلا من ذلك يعترفون أنه يمكن لأكثر من فئة من الآلهة أن تشترك فى موقف معين . وهكذا يمكن للكالا بارى شرح أى خطأ فى العبادة بأن الطقوس قد وجهت إلى « تيم » غير صحيح .

وعلى الكهنة يقع شرف ، وخطر، التعرف على « التيم » المقصود . والكل يعلم أن الكهنة قد يخطئون فى بعض الحالات ، بل إنهم قد يعمدون إلى الغش، وبهذا لا يكون الإخفاق نهائيا . فهنالك دائماً الأمل فى أن « طبيباً » آخر سوف يرى بوضوح أكثر ماذا يجب عمله ليتصل الطالب بالإله المختص حقيقة .

ولأن يكون لديك طريقتان لشرح عالم من الألم والفرح أحسن قطعاً من واحدة . ولكنا قد نستمر فى التعجب من سبب هذا الاختلاف الجذرى بينهما فى الأسلوب والنمط ، ومع ، هذا هل هو عجيب ؟ إن أوربا نفسها هى التى أخرجت لوثر وسبينوزا . وأمريكا نفسها احتضنت أورال بروبرتس و بول تليش. إن آلهة أى مجتمع يلزم أن تعكس العبقرية الإنسانية للتغيير . وإن رغبات الناس ومصالحهم متشعبة لدرجة أن الأرجح أن آلهتهم تتغير تبعاً لذلك فى أنماط متضاربة .

وقد يلوح أن ثمة تضارباً فى كالاباري بين نظامى الآلهة المتعارضين فى الواقع مع رغبات « الكالاباري » ومصالحهم. وكما فى أى مكان آخر هنالك من الكالاباري من يرغب فى تفسير للحياة ، بغض النظر عن رغبته فى السيطرة عليها. وكل الغربيين الذين عاشوا مدة فى القرى الإفريقية أدهشهم اكتشاف أن لكل قرية رجالها المفكرين المتزنين . ومن المهم لمثل هؤلاء الناس فى العالم أجمع وجود التفسيرات

المنظمة المعقولة الواضحة مع بعض مبادئ شاملة حتى يستطيعوا تطبيقها على كل ما يحدث فى العالم . وحكام الكيان والتقدم – تامونووسو – آلهة الذين الكالاباري الصارمة غير الشخصية – تناسب تماماً رغبات مثل هؤلاء الناس .

إن كتابات كبار فلاسفة الكاثوليك الرومان تسمو بالقارئ إلى مجالات رقيقة من البراهين على أن الله هو السبب المعقول الذى لا يتغير ولا يمكن تغييره ، وهو السبب الأول ، والكامل ، لكل ما يحدث فى عالم التجارب ، والواقع ، والحوادث . ولكن الملاحظ للأعمال اليومية للكاثوليك العاديين يرى جلياً من طقوس تهتم بالسيدة مريم والقديسين أكثر من الله .

إن الرغبة فى المشاركة الفعلية مع مجتمع أشخاص فوق العاديين ينتج ظمأ مخالفاً تماماً لما تنتجه العقلية الفلسفية . وهذا الظمأ فى بعض الثقافات أقوى منه فى الأخرى ، وأقوى بين بعض أعضاء ثقافة معينة منه بين الأعضاء الآخرين.

وهنالك قبائل إفريقية – النيوب مثلا – تعامل الآلهة كقوى بدون شخصية وبدون وجه ، تتلاعب بالإنسان والطبيعة ، ولا تكاد أبداً تكون شخصيات : وتنعكس الآية بين الكالاباري ، فالآلهة أشخاص ملموسون مملوءون بالشعور والأحاسيس العميقة ، وقد اجتذبوا ميل أكثر الكالاباري وإخلاصهم ، ولكن هذه الرغبة فى إظهار الآلهة كشخصيات ممتلئة دماء لا بد أن تتعارض مع رغبة باقى الكالاباري فى دقة التفسير وسعته : وإذاً لا سبيل إلى التوحيد غير الطريقة التى اتبعها الكالاباري بحكمة ، أى وجود طرازين من الآلهة صيغا على نسقين متباينين تماماً . وبهذه الوسيلة أمكن أن يشبع الكالاباري أهواءهم الروحية المتضاربة .

تامونووسو آلهة بلا أوجه ، تمنح ولاء هادئاً رصيناً ، وتقدم إليها القرابين ، وتتلى الصلوات ، ثم يستوى الوضع حتى تظهر النتائج . ولكن يختلف الأمر بالنسبة لأبطال القرية وسكان المياه والأموات ، فتأخذ العبادة أسلوباً حاراً دافئاً ، وتظهر أشد عواطف الكالاباري حسية . فأيام القداس هى أوقات

آمال حارة تتردد فيها أغنيات النساء المنشدات فى أرجاء القرية مادحة قوى الآلهة وأعمالها .

وحاول الشاعر الغانى ، فرنسيس إرنست باركس ، أن يلتقط روح الأمل فى القرية فقال شعراً خصص ليناسب الأذن الغربية :

أعطنى بعض طبول
فليكونوا ثلاثة
أو ربما أربعة
واصنعها سوداء
قذرة وسوداء
من الخشب
وجلد شاة متجلد (ناشف)
ولكن ، إذا شئت
دعها تطنّ فقط
تطن
تطن عالياً
تزمجر
عالياً
وأعلى أيضاً ،
ثم خافتاً
وأخفت قليلا ،
دع الطبول تطن
ولتكن القرعة
ملفوفة بالخرز
بخرز « آجرى » أزرق
دق بعنف

نغمات متنافرة
بهدوء
بأوزان ،
دع القرعة تدق
مع نغم الطبول
امزج هذه الأصوات
مع طنين
الخشب على الصفيح
كتنسكين
كن تسى كن كن كن
أرجوك أن تعطى أصواتاً
عادية
أصوات أشباح
أصوات نساء
وجهير الرجال
وصراخ الأطفال
فليكن هنالك راقصون
زنوج عراض المناكب
يدقون الأرض
بأقدام عارية
ونساء
نصف عاريات
يتأرجحن أماماً وخلفاً
بإيقاع
متوافق تماماً

لتوم شيكى شيكى
وكين
وأصوات الأشباح
تغنى
تغنى
فلتكن هناك
شمس غاربة
النخيل الأخضر
حولنا
ودجاجة مذبوحة
والكثير من
اليام

* * *

ويا إلهى العزيز
إذا كان المكان
ليس مزدحماً جداً
فأرجو أن تسمح ،
أن تسمح بنظارة
وليكونوا
بيضاً أو
سوداً

* * *

اسمح بنظارة
ليستطيعوا
أن يروا :

الفرحة الدامية

واليام :

النخيل

والأشباح الراقصة

* * *

أدومانكوما

أرجوك أن تسمح بنظارة

حتى يمكنهم

أن يسمعوا :

أغانينا الشعبية

وطنين الخشب على الصفيح

ونغم الخرز

والطبول الصارخة

* * *

تورامبون . أرجوك أرجوك

اسمح

بنظارة

حتى يستطيعوا

التدفئة

فى بلسم أشعة

الشمس الغاربة

فى جنتنا الإفريقية

البديعة

* * *

ولو أننا ذهبنا كنظارة إلى قرية من قرى كالاباری فى موعد الاحتفالات بأداء الطقوس لسمعنا الابتهالات ورأينا القرابين ، ثم لشاهدنا أكثر تصرفات

كالاباري الدينية إثارة ، وهو مشهد تمثيل حضور الآلهة .

يرقص الممثلون محاكين تصرفات متتابعة تمثل بطريقة أو بأخرى الأعمال والميزات الخاصة بالآلهة . وهي أفضل طريقة ، كما يفهم الكالاباري ، لاستحضار الآلهة فعلا إلى القرية . وفي أثناء هذا التمثيل يتصرف الأهاون وكأن الآلهة حاضرون فعلا كضيوف ممجدين يستحقون أحسن أنواع الترفيه والضيافة . ويصفها الكالاباري بأنها « اللعب مع الآلهة » .

ويمكن ببساطة أن نفهم لماذا لا يتصورون تاموزو وسو كضيوف أشباح للقرية . إنه من العسير جداً على الكالاباري تصوير شخصيتهما الغامضتين بطرقهم المألوفة . وعلى العكس من ذلك نجد أن شخصيات أبطال القرية ، وسكان الماء ، والموتى ، موضوعات شائقة للتصوير الفني .

ويستحضر ممثلو الكالاباري الآلهة إلى القرية بثلاث وسائل مختلفة . فالطريقة الأولى هي مضاهاة شخصيات الإله ، وفيها يقوم الممثل بمجرد محاكاة مميزات الإله وأفعاله . والطريقة الثانية هي التخفي ، وفيها تتم محاكاة ميزات وأعمال الإله ، ولكن الممثل في هذه الحالة يكون مدثراً بلباس وقناع يكونان أيضاً رمزاً للإله . وأكثر الطرق الثلاثة تقديراً هي الاستحواذ ، وفيها يعتقد أن الله قد حل في رأس الشخص في أثناء تأديته الرقص ، واحتل مؤقتاً قيادة الجسد بدلا من تيم .

ورد الفعل الطبيعي للشخص العادي أن يتعجب كيف يمكن للكالاباري أن يعتقد أن محاكاة شخصية الإله والتخفي لهما نفس أثر الاستحواذ في استحضار الآلهة واتصالهم بشعبهم . فالاستحواذ يحيطه جو مقنع لا يتوافر في الطريقتين الأخريين . ومع هذا يربط الكالاباري الطرق الثلاثة بعضها ببعض في تفكيرهم .

ويوجد مفتاح هذا السر في المثل الكالاباري القائل : « إن الآلهة تأتي وتستقر مع أسمائها » . وهنا نجد أن الكالاباري يمثلون تفكيراً إفريقيا يكاد أن يكون عاماً . وهي سجية كتب عنها جاهينز جاهن بفاعلية في كتابه

« مونتو » ، سجية يصفها شعب البانتو بلفظ « نومو » القوى السحرية للكلمة وطبقاً لوجهة النظر الإفريقية هذه ، فإن الرجل بمفرده هو الذى يملك العقل الواعى النشيط فى العالم المادى .

والعقل من نوعين : الذكاء، والحكمة . والطفل عاقل بالمعنى الأول ، فهو أهل لأن يتعلم ، ولكن الحكمة تأتى بعد الفهم الحقيقى لطبيعة العالم وصلاته ، وهذا يتضمن — كما يبرز جاهن — معرفة للطريقة التى يستفيد بها العقل البشرى من الأشياء ، ويحرك القوى الكامنة فيها .

ويستمر جاهن فى قوله إنه فى سنة ١٦٠٣ تم نشر تقرير تنبأ فيه كاتبه بما سيحدث من سوء فهم شامل من الغربيين للنفسية الإفريقية . ويذكر التقرير أن تجاراً هولنديين قالوا للإفريقيين بساحل الذهب إن هولاندا تدين بكل ممتلكاتها المادية لله . وتعجب الإفريقيون لهذا وتساءلوا لماذا لم يمنحهم الله أيضاً نعمة الملابس الحريرية، والحدائد، والأوانى النحاسية، وسائر البضائع التى يتلقاها الهولنديون من آلهتهم .

وكان الهولنديون ، بورع علمى، سراعاً فى أن يشيروا إلى أن الله كان كريماً أيضاً مع الإفريقيين ذلك بأن أعطاهم الذهب ، وخمر البلح، والفواكه والحنطة، والثيران، والماعز، وكذلك الموز والنباتات الأخرى اللازمة لحفظ حياتهم .

ولم يقبل الإفريقيون ذلك . والواقع أنهم احتجوا بشدة على الزعم بأن الله كان مسئولا عن أى من هذه الأشياء ، وقالو إن الله لم يعطهم أى ذهب ، ولكن الأرض هى المعطية حينما بحثوا هم عنه ، ثم بعد ذلك أخرجوه وجمعوه ، أما الماعز الصغير والحملان فإنها قد خرجت من بطون أمهاتها ، وأما الفاكهة فإن الأشجار هى التى أعطتهم إياها بعد أن زرعوها بأنفسهم ، وأعطاهم البحر الأسماك ، ولكن عليهم أن يصطادوها . وعلى ذلك فإن الله لم يعطهم هذه الأشياء ، وإنما هى الأرض وهى المياه ، ثم هم كسبوها بعملهم .

والواقع أن هذه النظرة إلى الأشياء ليست مجهولة فى المحيط العملى فى

الجزء الخاص بنا من العالم ، وتمثلها أملوحة القسيس الجديد الذى زار أحد الفلاحين التابعين لأبرشيته وأخذ يكرر أن الفلاح والرب فعلا العجائب بالأسوار ، والحقل ، والزرائب ، والمواشى . وتحمل الفلاح قدر استطاعته ، ثم انفجر قائلا : أيها القسيس كان يجب أن ترى هذا المكان حينما كان الرب يديره بمفرده » .

وبينما قد ينظر الغربى المتدين إلى مثل هذا الفلاح على اعتبار أنه مغرور ، إن لم يكن كافراً ، ينظر إليه الإفريقى على أساس أنه بدأت تلوح عليه ملامح الحكمة الحقيقية . ليس الإله . وإنما الرجل هو الذى يحرث ، وهو الذى يزرع ويروى ؛ ليس الإله ، وإنما الرجل هو الذى يصلح الأسوار ، ويبنى الزرائب ، ويغذى البهائم . ومع هذا تحتاج الأرض إلى أكثر من العمل اليدوى لتغل ثماراً . وكما يقول جاهن فى شرحه لوجهة النظر الإفريقية : يجب على الرجل أن يعمل أكثر من مجرد الزرع والحصاد . لأن الحبوب ليس لها فى حدّ ذاتها نشاط ذاتى . إنها لا تفعل شيئاً بدون تأثير الرجل ، لن تنمو ، بل سوف تبقى ملقاة على الأرض بدون مساعدة . بدون تأثير « أوبوينجى » (العقل الفاعل) . كيف يفعل الرجل هذا ؟ بواسطة « نومو » قوة الحياة ، التى تنتج كل حياة ، والتى تؤثر فى الأشياء فى صيغة « الكلمة » .

إن قوة الحياة فى كل مكان ، وفى كل شىء . والإنسان بقوته على الكلمة يستطيع أن يستدعى قوة الحياة ويوجهها . هذا معنى الحياة : أن يتلقى الإنسان « الكلمة » ، وأن يستحضرها ويشاطرها مع سائر الكائنات : بشرية أو قدسية ، حية أو ميتة ، « أجو » أو « تيم » .

وحينما يقول الكالاباري إن الآلهة تبقى وتذهب مع أسمائها ، فإن كلمة « اسم » تشمل أية أغنية ، أو استحضار ، أو قناع . أو ذكورة ، أو رقص مما يمثل الإله ، كما تشمل أيضاً معنى الاسم الحرفى للإله . وكل هؤلاء هم قوة الحياة ، وبتواجد الكلمة (مع الاسم) يتم حضور الإله المطلوب . وقد يغنى الاسم الحرفى للإله ثلاث مرات ، وقد تدق به الطبول ثلاثاً ، وقد يحفر المثال صورة جديدة ، وربما يضع الممثل قناع الرأس المحفور ويمثل بالرقص

تصرفات إلهه ، إن أحد هذه الأشياء أو كلها مجتمعة إنما تدنى الآلهة بقوة « الكلمة » .

وبهذا تفسر القوى السحرية « للكلمة » — مفتاحاً قاطعاً للنفسية الإفريقية — الغموض الذى يكتنف مساواة الكالاباری للتشخيص والتمثيل مع الاستحواذ الفعلى لإحضار الآلهة فى القرية . وحينما « يلعب » القرويون مع «وثن» يتصلون بإله ، تماماً كما يشهدون وسيطاً غارقاً فى لجة من الاستحواذ . ويضاف إلى هذا أنها — فى طريقة للتفكير — ترى أن كل تغيير إنما يتم بقوة الكلمة ، فإنها مجرد خطوة راقصة قصيرة تفصل بين حضور الإله — عن طريق التشخيص والمحاكاة — والاستحواز الفعلى من نفس الإله .

ويعتمد الرجال ونشاطهم ، والطبيعة وحركاتها الحيوية ، على قوة « الكلمة » التى هى قوة الحياة نفسها . وهؤلاء القادرون على إضفاء النشاط العقلى على استعمال «الكلمة» يضمون الرجال الأحياء والأموات ، والآلهة جميعاً ، برباط من نشاط قوى ذاتية تعطى ، وتحافظ ، على حركات الحياة . وهذا النظام الضخم بدوره ينبع من المصدر الأعلى لكل الحياة ، وواهب كل القوى الحيويه : الله .

وإذا درسنا النظرية اللاهوتية لقبيلة إفريقية مثالية ، كالكالاباری ، فإننا نجد أننا نستطيع أن نفهم ببعض العمق كلمات فيليب كجوزانا « آلهة إفريقيا العظام » وهى كلمات تسمه بهذه المناسبة ، بأنه إفريقى محض ، أو وطنى إفريقى وهب نفسه للبعث الروحى للشخصية الإفريقية التى ليست « أوربيا أسود » ولكن إفريقى بكل معنى الكلمة .

والواضح أن الإفريقيين ، أمثال كجوزانا ، الذين وصلوا إلى المدارس الثانوية وبعدها ، قد اتصلوا بعالم تختلف وجهة نظره تماماً عن النظريات الدينية للكالاباری وغيرها من الأديان القبلية .

والواقع أن الصور التقليدية للعالم تتداعى فى كل مكان ببطء ، ولكن بتأكيد ، أمام هجمات الجيل الجديد . ومع هذا فمن الواضح أيضاً أن « آلهة

إفريقيا العظام » يحوطهم الغموض . فالكلمات لها معان حرفية لآلاف الإفريقيين ، ومعان نفسيه لأمثال كجوزانا ، الرجال المتعلمين ، القادة . إن فى الكلمات نفسها ، بالرغم من معانيها المختلفة للمتعلمين وغير المتعلمين ، يلتقى القادة والتابعون لينهلوا معاً من ميراث روحى مملوك لهم ، لإفريقيا . إن كلمات « آلهة إفريقيا العظام » تعنى أن هنالك تقاليد روحية إفريقية ، وأن هذه التقاليد تقف الآن موقف الحكم على الذين تفتحت عيونهم الآن على مصير إفريقيا الجديد .

ولا تعنى الكلمات محاولة لإحياء الماضى و بعثه كما كان . فهى لا تعنى عند كجوزانا وأمثاله العودة إلى الوثنية البحتة . إن ما تفسره هذه الكلمات لنا هو أن الإفريقى لن يقبل الادعاء القديم أنه رجل بلا ماض روحى . إنه رجل ذو ماض روحى غنى خصب نشيط حيوى . وهو ــ كوارث وخلف لهذا الماضى ــ لديه القوة لمجابهة مستقبله الجديد .

والزعماء الإفريقيون العقلاء يرغبون فى إدماج ما يلوح أنه قيم من الماضى فى المستقبل . وبمعنى آخر ، يرغبون فى بعث التقاليد الإفريقية بحذر ، وإدخال التقدمات الغربية ، أو أى عوامل غيرها تستلزمها العصور الحديثة . وهذه مهمة دقيقة وصعبة للغاية ، ولا يساعد على تحقيقها أغلب الشعب الإفريقى الذى يسيطر عليه السحر والشعوذة ، ولا هؤلاء الإفريقيون الذين تستهويهم الإثارة والرعب اللذان ينالونهما من القراءة عن طقوس سحر الأجداد .

جوجو

نشرت مجلة لايف (٢١ أبريل سنة ١٩٦١) مقالة عنيفة عن الدين الإفريقى حوت الكثير عن الخرافات والسحر . وتضمن العدد نفسه أيضاً مقالة عن مدح لاعب جولف أبيض من جنوب إفريقيا . بوجه جاد واحترام واضح نقلت المجلة تفسير لاعب الجولف عن كيفية دخوله المباراة الدولية للجولف (التى فاز فيها) بأن « الرب أرادنى أن أفوز » ومرة ثانية أخبر القراء بدون أى أثر لتردد هازئ أن لاعب الجولف المذكور كان واثقاً أنه « قد سمع رسالة من أعلى » . . ويلوح أنه لم يخطر لمحررى مجلة لايف أن خرافة شخص قد تكون شيئاً مقدساً عند آخر . وهكذا ، بحواجز أعلى وأضخم مما نعلم . نمنع من الدخول حقيقة فى حياة الآخرين .

وليس فى إفريقيا ما يشده الغربيين ويثير لائمتهم أكثر من عالم الجوجو الغامض ، وهو عالم مملوء بالسحر والشعوذة والتنجيم والطب . وربما يكون من المستحسن أن أوضح المعنى الذى استعمل فيه كلمة « جوجو » . هى كلمة ، بالرغم من تخفيها ،لا تزيد فى الأصل على الكلمة الفرنسية « yauiyzou » أى اللعبة أو الدمية ، وقد استعملت لتفشى التمائم والتماثيل فى الديانات الإفريقية . وبمعناها الواسع تتضمن « جوجو » قوى الطبيعة الخفية غير المدركة ، ولكن معناها الأضيق يشمل فقط ممارسات ديانات السحر فى مناطق عيش الكفاف ، أو ما نطلق عليه عموماً الحياة البدائية : كاللعان ، والطيرة ، والتعاويذ ، والسحر الأبيض ، والأسود ، والعرافة بوجه خاص .

وإنى أعترف أن كلمة جوجو ليست كلمة مناسبة لبيان ناحية لا شك فى أنها أكثر النواحى أهمية وشمولا وجدلا فى الديانات الإفريقية . ويعارض كثير من الإفريقيين فى استعمال هذه الكلمة لخوفهم من أن تغذى الفكرة السائدة

الرب والله

بأنهم متوحشون متأخرون ، ويرون إسقاط التعبير كلية . كلمة الدكورة ويديله عنها ، ولكنها ليست فى الواقع خيراً منها . وحينما زار الملاحون والتجار البرتغاليون ساحل إفريقيا الغربى الأول وجدوا أن كل واحد من الأهالى كان يلبس تميمة بشكل أو آخر – قرنًا سحريًّا : ، صدفة صغيرة ، أو حلقاً ، وكلها كانت قد شحنت بقوة الأرواح (مرقية بالكلمة) ، ويثق الأهالى أنها تساعدهم وتحميهم من كل أنواع المضرات . وكان البرتغاليون أنفسهم من اللابسين المتحمسين لمداليات ، أو صلبان ،أو رموز أخرى مقدسة قام القسيسون بمنحها البركة ، كما تعزى إليها مزايا متشابهة . ومن البديهى أن البرتغاليين قد استنتجوا أن الحلى الإفريقية بنات عم حليهم ، فأطلقوا عليها نفس ما كانوا يطلقونه على ما يلبسونه هم أنفسهم ، أى « دكورة » .

وأيًّا كان اللفظ ، جوجو أو دكورة أو غيرهما ، فإن المهم أن تلقى نظرة على واقع واضح فى الحياة الإفريقية ، وأن تكون هذه النظرة بغية التعلم وليست لمجرد الثرثرة والتسلية .

وعند الأغلبية الساحقة بين الإفريقيين لا توجد تفرقة واضحة بين السحر والدين . بل إن تداخل التعبيرين يستمر حتى بين بعض المتعامين .

وقد حدثنى صديق أمريكى ، متزوج من فتاة من غانا وقضى بضع سنوات فى خدمة الحكومة الغانية ، عن مقابلته مع شاب غانى متعلم كان متلهفاً لإتمام دراسته فى أمريكا . وأكد الشاب بحماس ، كمؤهل إضافى ، أنه مسيحى مخلص – ولاحظ صديقى أن بأصبع الشاب خاتماً نحاسيًّا للجوجو ، فأشار إليه وسأل الشاب هل يحاول خداعه بقوله إنه مسيحى مخلص ؟ وأجاب الشاب : « إننى أومن بكل قلبى أن الله سوف يعاقب أى شخص يحاول أن يضرنى ، ولكن هذا الخاتم يمنعه من عمل الضرر أصالة » .

وإننا إذا سخرنا من هذا ، وأوحينا إليه بأن السحر لا وجود له ، وأن قوى الشر لا تستطيع أن تجلب المرض أو الموت للشخص إلا إذا كان لديه سحر أقوى ليمنعه فإن الإفريقى ، حتى المسيحى ، سوف يهز كتفيه لجهلنا .

إن السلطة الروحية الضخمة، نومو، تسيطر. وكل أعمال السحر تعود إليها، وإذا لم تكن التميمة مرقية « بالكلمة ». فليس هنالك أى نفع فى خاتم جوجو، ولا فى تميمة من جذر ملتو ولا طب، بدون « الكلمة ». وليس لهذه الأشياء نشاط إلا بالكلمة: وبدون (الكلمة) لا يمكن لأى سم، أو تعويذة شر، أو لعنة أن تضر فريسة معينة. فهذه أيضاً عاجزة حتى تطلق « الكلمة » سراح قواها الشيطانية.

إن كل ما يحدث فى العالم، كل خير، وكل شر، إنما يتلقفه التجاذب بين الكلمة وعكسها. فالحياة وحدة تدور دائماً مع القوى التى تطلقها الكلمة، ومعظم الإفريقيين لا يفهمون شيئاً سوى هذا. فى الطفولة، أو الشباب. أو الكهولة. سواء أكانوا يقطعون جوز النخيل، أم يقودون مصائر الحكومات، يبنون أكواخاً من الطين، أو يشترون السيارات الفارهة، يستسقون الأمطار، أو يخطبون فى اجتماع وطنى. كل ما يفعله الإفريقى يتصل طبقاً لما ورثه. بعالم روح القوة الحيوية « نومو »، الكلمة الحاضرة أبداً. وإذاً فحقيقى جداً — حينما مات حوت على شاطئ أكرا — أن الرئيس الغانى نكروما وأعضاء مجلس وزارته تركوا أعمالهم وحضروا جنازة أعدت له.

إنه من اليسير علينا نحن الشعوب البيضاء، ونحن نقرر أن طقوسنا الدينية الشعبية معقولة، أن ننظر إلى المثل السابق كخرافة بدائية. ولكن لم يمض أمد طويل منذ أن دعى أحد زملائى فى بوسطون لتعميد وإنزال مركب جديد تملكه أسرة من بوسطون محترمة اجتماعياً.

والحوت له معنى خاص بالنسبة للقرى الساحلية فى غانا. فقوة حيويته تمثل إله البحر ويجب أن يحاط جسده بالتشريف اللازم. وعدم القيام بهذا يعنى مجازفة خطيرة بأن تسعى روحه للانتقام من أساطيل الصيد المحلية. وإذا كنت لا تعتقد — كما هو الحال بالتأكيد مع نكروما — بأن روح حوت معين تستطيع أن تلعب دوراً مقصوداً له تأثيره فى الصيد، فلا تزال توجد تلك العلاقة الغامضة ذات المعنى بين الصياد والبحر، علاقة « نومو ».

وفى التقاليد الساحلية لغانا أن حوتاً ميتاً يعنى شيئاً مهمًّا جدًّا . والرجل هو سيد الأشياء خلال قوة الكلمة المنتجة أو الهادمة . وأن يدفن حوت بما يناسبه من التكريم وبطريقة مناسبة هى بالنسبة للإفريقى طريقة مثلى معقولة ، لإعطاء الخير فرصة طيبة ضد الشر . كانت لفتة خاصة لشعب غانا تلك التى أحضرت نكروما ومجلس وزرائه حفل جناز الحوت .

ويلعب السحر بالنسبة لمعظم الإفريقيين دوراً مستمرًّا وهامًّا . وإن أهم القادة السياسيين الإفريقيين — من أمثال نكروما ومبويا من كينيا ونيريرى من تنجانيقا ولوثولى من جنوب أفريقيا وبالبوا من نيجيريا وسنجور من السنغال — ليستطيعون أكثر من أن يملأوا مراكزهم فى رفقة عالية فى أى مكان فى العالم ، ولكن هذا لا يعنى أنهم فقدوا الاتصال مع ما يجرى فى العقل الإفريقى العادى ، ويجب ألا نفقده نحن ، فالسحر أبعد ما يكون عن الانقراض بل إنه بدأ يبعث بحدية . إن الضغط المزدوج الواقع على الإفريقيين أن يبقوا على تقاليدهم ، وأن يتطوروا مع التقدم ، فيه تضارب شديد ، كما أنه عسير الحل . فقد أضاف عدداً جديداً للمخاوف التقليدية ، التى لا ينتظر لها حل فى المستقبل القريب. وهذه حالة تبعث على القنوط . وإحدى نتائجها هو الاعتماد المطلق على دروب السحر المعتادة . وبإختفاء المستعمرات البيضاء تضعف القيود القانونية على السحر ، أحياناً كسياسة متعمدة من الحكومات السوداء الجديدة ، وأحياناً أخرى لمجرد عدم الاهتمام . وإحدى النتائج الجانبية للاتجاه للإفريقية هو زيادة الاهتمام فى كل الممارسات الإفريقية التقليدية بما فى ذلك السحر . وإن المطلعين الإفريقيين الملاحظين لنهضة السحر ما زالوا يضعون فى المقام الأول الخوف المتفشى بين الأشخاص العاديين من أن الطريقة الأكيدة للوقوع فى براثن السحر الأسود هو التفكير والتدخل فى الممارسات السحرية بهذه الصفة .

وكثيراً ما لاحظت هذا الخوف ، وإن كان ضعيفاً ، بين الإفريقيين المتعلمين ، وفئة ضئيلة نسبيًّا من نخبة الأعضاء السياسيين من تجرؤ على

معارضة السحر جهرة ، وإن حملة يقوم بها أحد السياسيين الإفريقيين فى الحالة الراهنة ضد السحر لتشابه فى حكمتها حملة يقوم بها سياسى من ألاباما ضد هذا الدين القديم « المسيحية » .

وقد استعان روبرت كوجلان ، المحرر بمجلة لايف ، المسئول عن المقال المنوه عنه فى صدر هذا الفصل ، بشبكة خدمة الأخبار الواسعة التى تحت تصرفه ليكدس أمثلة من استجابة السياسيين الإفريقيين للسحر ، بغض النظر عن مدى إيمانهم هم أنفسهم بها . ويشابه هذا فى ثقافتنا ، فيما أعتقد ، الطريقة التى يصبح بها الرؤساء الأمريكيون ، قبل وبعد الانتخابات مباشرة ، من النظارة المواظبين فى الكنائس بغض النظر عن عدم اهتمامهم المعروف فى الماضى .

وهناك ألبرت كالونجى ، الذى توج نفسه « ملكا » على « بالموباس » بالكنجو ، والذى تبحث عيناه فى الجماهير عسى أن يرى امرأة برصاء كلما عاد من رحلة رسمية؛ ولأن بالموباس تعتقد أن كل من أبصر امرأة برصاء سوف يتجنب سوء الحظ ، كان أتباع كالونجى يتأكدون دائماً من استحضار واحدة له ليراها .

ونفى مكتب المستعمرات البريطانى فى وقت من الأوقات حاكم بوغاندا .

واحتجاجاً على ذلك ترك أصدقاؤه لحاهم تنمو . وحينما سمح له أخيراً بالعودة أزيلت اللحى فى حفل عام ،وكانت النية متجهة لعمل مخدة منها للعرش الملكى ، وبعد تفكير متروٍّ رُئى ، أن الأعداء السياسيين ربما يستدلون على المخدة ويستعملون الشعيرات فى تعاويذ خطيرة ضد أصحابها ، ومنعاً من المخاطرة قرروا إبادة كل ما حلق .

ويستعمل فيلكس هوفويت بوينى ، الرئيس المتألق لساحل الذهب وعضو مجلس الوزراء السابق فى وزارة ديجول ، الجزء من اسمه «هوفويت» ، كرأس مال سياسى . فالكلمة بلغة قبيلته معنى غير نظيف ، وهو

بالرعة ، لكن قيمته السياسية هى كما يلى: إن اسم الرئيس بالمولد هو بويجنى ، وهو يستعماه تشريفاً وتكريماً لأمه ، وأما اسم هوفويت فإنه اسم سمى به جداه طفلهما الخامس بعد أن فقدا أربعة أطفال . وكان صاحب الاقتراح هو الطبيب الساحر ، وذلك ليريك الأرواح الشريرة المسئولة عن الوفيات الأربع السابقة . وقرر أن طفلا يحمل مثل هذا الاسم الحقير لن يستأهل اهتمام الأرواح . وأفلحت الحيلة ، وشب الطفل ليكون والد الرئيس . وحتى يمنعوا القوى الشريرة من اكتشاف الحيلة و إنزال الانتقام انتقل الاسم مع سلسلة الأحفاد .

« وحزب إفريقيا الوسطى » هو منظمة سياسية متواضعة متعددة الأجناس فى رودسيا ونياسالاند . وكان سكرتير المنظمة فى فرعها بنياسالاند (برادفورد فيرى) الذى يدعى أنه استقال لأن لعنة قد انصبت عليه بواسطة أتباع الدكتور هاستنجس باندا . وطبقاً لأقواله شخصياً : « فى يوم ابتدأ أنفى يأكلنى فجأة ، وتحرك شيء حارق من أنفى إلى رجلى اليسرى حيث استقر مسبباً لى ألماً شديداً نتج عنه عدم استطاعتى السير . وهذا المرض قد افتعله بواسطة السحر الأشخاص الذين يكرهوننى » .

ويروى كوجلان عن متعلم غانى مرموق ومنافس لنكروما اضطر أن يترك منزله خوفاً من لعنة جوجو صبها ضده أتباع نكروما . وانتقل إلى نغمة أطرف . تعرف إلى أحد الوزراء السابقين فى غانا يدعى السيد/ك.أ. جبيدما ، وهو رجل مؤدب وظريف جداً . وفى أثناء حديثنا عن الديانة قرر لى أنه يصف نفسه بأنه متدين بمعنى شخصى . لكنه حر التفكير لدرجة أنه لا يستريح فى كنيسة أورثوذكسية مسيحية أو جامع إسلامى . وقال : « إننى أبتدئ كل يوم من حياتى بالتأمل ، وأحاول أن أقضى يومى كله فى تنمية الناحية الروحية . وأدعو أن يكون لى ثلاثة أشياء : الصحة لأقوم بعملى ، والحب فى قلبى . وشعورى بالله فى حياتى . وأنا لا أكره أحداً . وإذا ما خالفنى أحد . كما فعل الكثيرون ، فإننى أحاول أن أدعهم يتخذون طريقهم ولكن بغير عداوة » .

وفى الوقت الذى كنا نتكلم فيه كان جبيديما قد اشترى سيارة « بنتلى » حديثة جداً ، وكان مغرماً بها . وقبل أن يبدأ سفره فى رحلة مع سائقه كان مساعدوه الشخصيون يصبون قرابين ، ويقومون بطقوس أخرى لتأكيد سلامة الرحلة . وعند عودته أقاموا احتفالا أكثر صخباً يتضمن التضحية بذبح ماعز صغير شكراً لعودة الوزير سالماً . ونظراً لحالة المرور فى غانا فإن فى ذلك منطقاً أقوى مما قد يظن .

وقد سألت جبيديما عن شعوره إزاء هذه الأعمال ، فقال إنه قد سره أن يسكب القربان شخصياً ؛ كما كان شاكراً جداً لأى مجهودات تؤكد سلامته. وهو قطعاً لم يتضرر من أمثال هذه الطقوس ، كما لم يكن مستعداً للمناقشة ضد معتقدات الآخرين وإمكان تأثيرها . والتضحية بالماعز وحدها ، شخصياً . غير مستساغة . ولكن هنا أيضاً كان من اليسير احترام الدافع لها .

وكان من العسير تحديد ماذا كان تفكير جبيديما فعلا فى مثل هذه الطقوس التقليدية ، ولكنه كان من الواضح أن تفكيره الحر لم يكن يتضمن حمله تحطيم أصنام ضد السحر الدينى الذى يمارسه شعبه . ولا أريد أن أشير إلى أنه كان يجب أن يفعل ذلك .

قبل عدة أيام من هذه المحادثة كنت قد تقابلت مع المرحوم المطران داجادو من كنيسة غانا الميثودستية ، وقد روى لى هذا الرجل الراهب ، وقد مات الآن ، أنه لم يطق أى مهادنة فى موقف كنيسته ضد تدفق القرابين طالما أن هذا العمل له مغزى دينى ، ويمثل الإيمان بأن السلف وأرواح الجوجو يمكن أن تتدخل فعلا . وكنت أزور مع المطران داجادو المنزل المبنى بالمصيص والذى اتخذ مكاناً لاجتماع أتباع كنيسة أكرا الميثودستية الذى ينعقد كل ثلاثة أشهر ، وكنت قد سمعت دعاء طويلا من أحد المندوبين ، يطلب فيه المعونة من الله للحصول على جزء من أرض الحكومة ، يرغب الميثودستيون فى الحصول عليها لبناء كنيسة جديدة .

وكم كنت أود لو أننى ناقشت المطران داجادو فى النقط الخاصة بتدخل

الأسلاف وأرواح الجوجو ، مع مقارنتها في المسيحية بتدخل الرب عن طريق السيد عيسى المسيح . وكانت الأسئلة في ذهني ، ولكنني لما كنت أعلم مخطط المطران لزيارة ماثاشوتس في الأشهر التالية ، رأيت أنه قد يكون أكثر لباقة أن أناقش الموضوع معه في مكتبي عن مناقشته في مكتبه ، ولكن للأسف لم يعش المطران داجادو ليقوم برحلته للبلاد الأمريكية .

وإنه من السهولة بمكان ، على الأمريكيين والأوربيين الحديثين أن يتناسوا استعمالات السحر في ماضيهم وحاضرهم ، وأن ينسوا أن السحر ، وقد انعدمت التفسيرات المقنعة عنه كما انعدمت وسائل السيطرة عليه ، له سلطة روحية ومنطق داخلي محبب إلى النفس . وأساساً هو رد الفعل الغريزى للإنسان على التصرفات الغامضة ، والشريرة غالباً ، للطبيعة التي هو جزء منها . هو يرى نتائج نشاط كائنات مرئية مثله ، ويفترض أن النشاط الذى لا يمكنه فهمه نابع من كائنات غير مرئية ، ومن هنا ينشئ عالماً روحياً كاملا .

وبدأ إنشاء مثل هذا العالم الروحى منذ أمد طويل في إفريقيا ، وبالتالى جذوره عميقة . ويعتقد الإفريقيون ، كما ذكرنا ، في كائن أعلى خلق الكون . وكما شرح سيكوتورى ، رئيس دولة غينيا ، حينما تهكموا عن إمكان اتجاه دولته إلى الجدل الوجودى — وجود الله منكور في الجدل الوجودى — أنه من العسير جداً أن يوجد أى شخص في إفريقيا وخاصة في غينيا لا يؤمن بالله .

على أن هذا الكائن الأعلى ، بالرغم من الإيمان به قلبياً ، لا يعبد بالضرورة في الحياة التقليدية للعائلة أو القرية الإفريقية . الرب غير شخصى ، وبعيد . وفى أحسن الأحوال هو محكمة الالتجاء الأخير . على أن من الله تنبع القوة الحيوية لتنصب في العالم الروحى الواسع الذى خلقه . وقد تم هذا كله في الأصل بتوافق ؛ ولكن هذا التوافق قد دخله الاختلال من أعداد لا حصر لها من أنواع المخارقات التي تتلقى القوة من نومو ، وكثيراً ما تشع هذه المخلوقات بدورها قواها في طرق متضاربة فتخل بنظام الكون المقدس . هذه الفكرة الأساسية من أن العالم تخترقه قوى يتملكها الإنسان والحيوان والسلف

والآلهة ، والأرواح ، بل الأشياء ، تجعل الحياة مجالا لعلاقات متفجرة بين القوى حيث يمكن فى الواقع لأى شىء أن يحدث . فالدين يكون بهذا مجرد طقوس نشاط الإنسان خلال الكلمة لحفظ توازن القوى . وليحافظ على توافق هذا الكون الحيوى .

تأخذ أعمال الطقوس الأشكال التى سبق أن فحصناها فيما يختص بالكالاباری ، أرواح السلف ، وقوى القدر الروحية ، والطبيعة ، والقرية ، والقبيلة . كلها تتشابك ، وواضح أن الشخص الذى يمكنه أن يكتسب كل هذه القوى الروحية ويقودها لمصلحة قبيلته ، أو الذى يستطيع أن يحمى عشيرته من الأرواح الشريرة ، صديق قوى . وحينما يسير شاب من بانتو فى طريق بأرضه التى سبق رقيها بإفريقيا الجنوبية ، فهو يطأ فى وسط زحام روحى من خليط من الأمل والرعب . وكلمات الاحتقار تكون عاجزة عن أن تصف استهزاءه وخوفه على الشخص ، رجلا كان أو امرأة ، الذى يزعم أن يسلط عليه أو على عائلته أو قبيلته الأرواح الشريرة . ومثل هذا الشخص عرافاً أو ساحراً له أهمية كبرى فهو ، « كقدم أشيل » فى الحياة الإفريقية ، هادم للتوافق . مسبب للعنات الخبيثة والأمراض المرعبة والموت . وأن تقول لإفريقى مؤمن إن دنياه الروحية لا وجود لها ، وإن لعنات السحر ما هى إلا خزعبلات ، وإن الشعوذة لا يمكن أن تأتى بأمراض لا شفاء منها ، كأن تقول له إن النار لا تحرق . ويهتدى الإفريقيون إلى المسيحية ويقتنعون بأن الرب المسيحى أقوى من كل العرافين والسحرة ولكن كما يعلم كل مبشر ، قليل جداً من الإفريقيين المهتدين من يتوقف عن الاعتقاد فى العرافين والسحرة . أو كما يقول مثل من الكونغو : إن العادة جبل ضخم من العسير جداً اجتيازه أو هدمه .

ولما كان احتقار القوى الخفية يتم عن طريق السحر ، فلا بد من الاستعانة ببعض المتخصصين مثل القسيسين أو القديسين الذين يقومون بخدمة آلهة معينة ، والوسطاء الذين تتكلم بواسطتهم الآلهة أو الأرواح . والعرافين الذين يستطيعون الإجابة عن الأسئلة الدقيقة أو التنبؤ بالمستقبل ، وأطباء السحر أو رجال الجوجو

الذين يعتبرون ملاذ القبيلة أو الفرد ضد العرافين والسحرة . وللعراف أو رجل الجوجو الذى يتخصص فى السحر الأسود عدة طرق لابتداع الشر . هوخبير فى السموم الخبيثة التى إما أن تقتل أو ، ما هو أسوأ ، أن تدفع إلى الجنون . وهو يصنع التماثيل ويغرز فيها الدبابيس ، وتسمى هذه الطريقة قوة الدمية ، وهو أستاذ فى التنويم المغنطيسى ويستطيع أن يسبب الموت بقوة الإيحاء . يستطيع أن يلعن الطعام الذى تبقى ، أو الشعر أو بقايا الأظافر ، وعمله يقتل مالك الشيء الذى لعنه ، ويستطيع أن يشير إلى رجل بعظمة مرقاه ويقتله . ولا نهاية لما يعتقده الإفريقيون فى قوة العراف ، ولكن قليلا من الرجال البيض الذين عاشوا فى إفريقيا مدة كافية من يفكر فى أن ما يسميه الإفريقيون السحر ، أو ما يعتقدون أنه سحر يعمل حقيقة . والسحر لمثل هؤلاء الإفريقيين حقيقى ومنطقى ، وليس من الخيال ، فالسحر هو القدرة على تحويل قوى الحياة الجوهرية إلى أغراض شريرة . والشك فى إمكان هذا ، هو الشك فى كل وجهة النظر التقليدية الإفريقية عن العالم الروحى . وكل من عاش فى إفريقيا يستطيع أن يدلى بنصيبه من قصص الرعب والمآسى والموت الذى لا يمكن تفسيره بالوسائل الطبية العادية أو التحاليل النفسية . على أنه إذا كان هنالك سحر سيئ فيوجد أيضاً السحر الخير . وإذا كان المشعوذ عدو الشعب ، فالطبيب الساحر ، كما سوف نرى ، هو وسيلة الدفاع ضده وضد قواه ، كما هو أيضاً الدفاع ضد السحر والسحرة .

وفى مقالة روبرت كوجلان بمجلة لايف تشويه يظهر عادة فى الكتابات عن السحر الإفريقى ، التى تخلط بين العرافة والسحر ، فى حين أنهما متميزان تماماً فى إفريقيا . العراف هو الذى يزاول السحر عامداً فيستنزل اللعنات ويعطى السم وهو عالم به وبإصرار سابق وهو عادة رجل .

إن من قرءوا قصة جويس كارى الظريفة ، « الساحرة الإفريقية » سوف يذكرون المهارة التى صورت بها كارى امرأة تصب اللعنات على أعدائها ، وكيف شلت حركة الحكومة . وفيما عدا أنها امرأة ، فهذه الساحرة لا تتشابه

إطلاقاً مع أية ساحرة فى إفريقيا . الساحرات فى إفريقيا نساء تماماً كما كن فى أوربا وسالم ، ولكنهن ـ على خلاف بطلة كارى ـ لسن شخصيات شعبية يزاولن السحر عامدات لأغراضهن الخاصة .

إن السحر ما زال معروفاً فى أجزاء من أوربا وأمريكا . وإن تكن قد هبطت حدته منذ أيام الجهل . أما فى إفريقيا فإنه لا يزال يمارس بعمق ونشاط فى الأعمال العادية ، بل لعله أيضاً فى ازدياد . وفى تصرفات الإفريقيين العقلية والاجتماعية عموماً لا يوجد اعتقاد مغروس أكثر عمقاً من وجود السحرة . وتؤخذ احتياطات جدية للبعد عن نشاطهم ، وكثيراً حينما كنت أضع السؤال . ما أخبرنى متعلمون إفريقيون أنهم فعلا يعتقدون فى السحر . ومع هذا كانت الإجابة تعطى بحد من التضرر ، وربما من الخجل أيضاً ، والواقع أن الموضوع ينهى المناقشة عادة بين الإفريقيين والأجانب .

ومن البديهى أن هنالك حالات شاذة مثل ذلك الكاتب فى وزارة الصحة الغانية الذى قال : « ساحرات ! أيها الرجل إن هذا للعجائز والمسنين . إن فتنتنا تستقى من توم باين وأينشتين وماركس نشاط الكتلة والمهارات الفنية والنظريات الاجتماعية » .

ولكن للسحر أيضاً مغزاه الاجتماعى ، أو لعل الأصح أن يقال اللااجتماعى فى إفريقيا ، كما أن فيه تبايناً كثيراً . ومن العسير جداً الآن أن نعرف كيفية قياس الاعتقادات فى السحر أمام قوى هامة عاملة أخرى كالتعليم والطب الحديث والطرق العلمية والكنائس ، فإن شبكة التغيير المعقدة تدفع بعض التقاليد القديمة إلى زيادة التماسك أكثر من أن تضعفها . ويلوح أن هذا صحيح فى المدن المكتظة بالسكان كما فى القرى . فالسحر يسيطر على المخاوف الإفريقية فى الدوائر العامة ، وفى كل المسالك الخادعة للأمراض الغريبة ، وفى الحوادث ، وفى عدم استطاعة الترقى فى الوظيفة ، فى المنجم ، أو المتجر ، فى الرسوب فى المدرسة ، فى الإخفاق فى الحب ، فى كل افتقاد للنجاح عامة . وعلى قدر ما يخشى الإفريقيون الساحرات فإن قدرتهم على احتمال وجودهن وعلى مقاومة عدم مطاردتهم المستمرة مدهشة حقاً ؛ ويشرح باريندر هذه الظاهرة كما يلى :

إن الكثير من الأشخاص يعتقد فيهم أنهم سحرة ، ولكن لما كان الظن عامة أن قواهم غير نشيطة فلا يوجد الداعى لإقلاقهم . وفقط حينما تظهر أدلة على أن الساحر بدأ يزاول ، يجب العمل للحد من نشاطه .

ويشرح الدكتور ولف ساتشيس فى كتابه « الغضب الأسود » الذى قام فيه بتحليل نفسية رجل الطب أو الطبيب ، الساحر الإفريقى ، أن جون شافافانا ميبرا طولب أول مرة لمزاولة فنونه . وبالرغم من الإنذار الذى تلقاه من روح والده المتوفى بأنه مازال صغيراً جداً على المزاولة (فعلى الصغير أن يتعلم وللكبير أن يزاول) ، فإن جون قد سمح لنفسه بأن يوضع فى موقف كان ينتظر منه فيه أن يطهر قرية مسحورة لم تهطل فيها أمطار لثلاث سنوات . وكان الناس يتضورون جوعاً والماشية تنفق .

وأوضح جون للدكتور شاتشيس كيف كان وقع المكان عليه بأن قال : « كانت الأكواخ قذرة وغير مرتبة ، وكان منظرها غريباً سبب لى ألماً فى قلبى ، وكان الأطفال الصغار قلائل وقذرين جداً وبدون حيوية ، وهذا غير عادى بالنسبة للقرى ، إذ أنها تطن عادة بالأطفال . ووقفت أنظر إلى هؤلاء الرجال والنساء الفقراء البؤساء المرضى ، وتساءلت عما إذا كانت متاعبهم مرجعها كلية إلى الجفاف والجوع . ربما تضرعوا إلى الله خطأ ، أو ربما كانوا مسيحيين ونسوا أمواتهم » .

ولكن زعيم القرية أخبرنى بحالة تدعو إلى الرثاء على أن السحر كان هو السبب ، وأن جون الطبيب الشاب المانييكى الطيب القوى كان آخر أملهم فى إخراج الشرير الذى سحرهم .

ووجد جون نفسه هدفاً لعوامل متضاربة : « كنت واثقاً من أن سوء الحظ هو الذى قادنى إلى هذه القرية المسحورة ، فهل كنت أنا أيضاً فى خطر من التعرض لهذا السحر ؟ كان لدى دواء فى جيبى لحمايتى ، وكنت أفكر : هل أخالف والدى لأمد يد المعونة لهؤلاء الناس البؤساء ،

وأوافق على إظهار الشرير ؟ » ولكن كان من الواضح أنه لم يكن قراراً يسيراً ، كما لم يوافق أهل القرية بسهولة على التعرف على الساحر ، وإنما دفعهم إلى هذه الخطوة موقفهم البائس .

وتقوم موجات من مطاردة السحرة من وقت إلى آخر فى طول إفريقيا وعرضها ، ولكنها حالات استثنائية . تقول مارجريت ج . فيلد ، وهى دارسة غير عادية للحياة الإفريقية ، إنه بالرغم من الصبر المتناهى فى تعليمها على يد أكبر ساحر طبيب ورجل دواء فى غانا ، فقد مضت أربع سنوات ونصف حتى تبلور موضوع السحر فى رأسها — كما فى الشكل الذى تراه الآن . وهذا نوع من التفكير نحتاج إليه نحن الغربيين لكى نفهم مدى تعقيد بعض الأمور التى نطالب بفهمها فى أجزاء أخرى من العالم . ولكن للأسف ، فهذا النوع من التواضع قلما نصادفه فى المبشرين والمدربين والدبلوماسيين والفنيين الذين يرسلون للعمل مع المواطنين ؛ وإننى فيما سوف أكتب عن السحر الإفريقى أعتمد كثيراً على عمق معرفة أمثال هؤلاء الناس مثل دكتورة فيلد ، وايفانز بريتشارد ، وبارindر ، ومايرفورتس .
وللأسف ، لم يبدأ الإفريقيون بعد فى الكتابة الجدية عن السحر ، وهم كما قلت يتحرجون جداً حتى فى الحديث عنه . لكن أخضع غربيين قلائل أنفسهم للأنظمة ، وقضوا سنوات طويلة فى اشتراك شخصى بما يكفى لإعطاء تفسيرات وملاحظات يعتمد عليها .

ومن التقاليد العادية فى علم السحر فى معظم القبائل الإفريقية أن السحر تزاوله عادة امرأة ، فى حين يزاول الرجال عادة العرافة . وفن الساحرات الأسود ، هو دواء شر وأهل للقيام بأعمال هدامة فى حياة الأشخاص الآخرين . ويتميز الساحر عن العرافة بأنه لا توجد طقوس معينة أو احتفالات أو مظاهر خاصة تلتزم الساحرة باتباعها ، فالساحرة يشع عملها الشرير رأساً من عقلها ، خفية وبدون لعنات عادية أو غيرها ، وتتصرف الساحرات كما يفعلن بدون أسباب عادية كالبغض أو الغيرة أو

الحسد ، فهذه الأحاسيس مفهومة وطبيعية لدى الأشخاص العاديين . ولكن الساحرات لسن أشخاصاً عاديين ، وليس شرهن مجرد استعمال بسيط لقوى فوق الطبيعة ، فهن يؤذين ويقتلن أشخاصاً من غير الطبيعى لهن أن يكرهنهن . ومن كلمات الدكتورة فيلد أن « دواء الشر » العادى يوجد حيث يتوقع الشخص أن يجده ، عند الأشرار ؛ أما السحر فيوجد حيث لا نتوقع . أى عند الأشخاص الطبيعيين ، ولا أعنى أن السحر لا يعمل فى التيارات التحتية من الغيرة والحسد التى تجرى تحت سطح علاقات كل عائلة أو مجتمع ونادراً ما تلمس السطح ، فهنالك يكون من الطبيعى أن نبحث عنه ، وإنما دوافع الساحرات تنتمى إلى أوضاع وحشية وشريرة للأشياء يتخطى مفهوم الشر والخير . إن ثورتنا الفرويدية تسهل لنا فهم افتراض أصبح معروفاً الآن عن السحر ، وهو أنه ظاهرة طبية . إن الساحرات مريضات إما عقلياً ، أو من ناحية الشعور بأنهن يسيطر عليهن شعور ، برغم أنفهن ، بأن لديهن قوة استعمال أفكارهن فى شن غارات ضارة بالآخرين . وأقول مع الدكتورة فيلد إن هذه النظرية الطبية ليست من عملى إلا فى حدود أنها تساعد فى إقناع الأوربيين بأن وجهة نظر الإفريقيين تدل على حقيقة واقعة ، وليست مبنية على خرافات ، أو خزعبلات سخيفة قاسية .

إن الكثير مما يمكن أن يقال عن السحر ، قد تحول إلى ألفاظ غريبة فى علم النفس ، وقد قال إفريقى للدكتورة فيلد : « إن الساحرات كثيراً ما يخفين سحرهن خلف طيبة واضحة ورقة . يلوح أنهم أشخاص خيرون وطيبون كل حياتهن ، وحينما يكتشف أمرهن أخيراً ، يعترفن بأنهن كن طيلة الوقت يقتلن الناس خفية» . وقد وجدت الدكتورة فيلد فى كتاب فرويد « قدرات الفكرة » هذا المقابل الشائق وإن يكن ثقيلا . إن المصاب بجنون التعقيد قد يسيطر عليه شعور بالجرم خليق بالقاتل بالجملة ، فى حين أنه فى الوقت نفسه يتصرف حيال زملائه الآدميين بطرق كلها تقدير ومحبة ،

وهو تصرف يكون قد نشأ علية منذ الطفولة .

ولعلى لا أعدو الحق إذا ما قررت أن أكثر من قسيس عاقل قد يتعرف فى هذه الكلمات على حد الموسى الذى يفرق بين من يطلق عليهم الإفريقيون السحرة ، ومن يطلق عليهم فرويد المصابين بجنون التعقيد .

وإن ما بين أيدينا الآن تعريف للسحر يمكن أن تتفق عليه عقول الإفريقيين والغربيين . إن الساحرات مخلوقات غير عاديات تخطى بهن شذوذهن الحد وراء السيطرة العقلية الطبيعية والاتزان . ولمعظم الإفريقيين ، تعد المملكة « وراء الحد » مرعبة وشريرة . ويجب أن نذكر أنفسنا ، نحن الغربيين ، بأنه لم يمض زمن طويل منذ نظرنا إليها نظرة مغايرة ، بل إن الكثير منا لم يغير وجهة نظره حتى الآن .

وتقول الدكتورة فيلد : « يدخل ضمن النظام الإفريقى طبقتان إضافيتان من الأشخاص الشواذ ، قد يعتبرهم الأوربيون أيضاً من الحالات الطبية . فأولا ، هناك الذين يسيطر عليهم الخوف من أنهم مسحورون . وثانياً ، الفئة الأكثر رعباً من المختلين الذين يعتقدون أنهم سوف يصبحون سحرة برغم إرادتهم » .

وحينما نتذكر مدى التغيير الذى يعترى الحياة الإفريقية : سرعة الانتقال الثورية ، والتصنيع ، وعدم الاستقرار ، وغيرها من العوامل ، فلا غرابة فى أن هنالك ارتفاعاً فى صفوف الذين يعتقدون أنفسهم سحرة ، والذين يرتعدون من احتمال أنهم قد مسهم سحر ، والذين يتضاءلون أمام الرعب من أن يصبحوا سحرة . وإن لعصر القلقلة فى إفريقيا من العفن المعدى على الأقل كما عندنا .

ومن المظاهر المدهشة فى السحر الإفريقى الاستعداد والسهولة اللتان تعترف بهما الساحرات إذا ما اكتشف أمرهن ، ووجهن بأعمالهن الشريرة . وإن الإنسان ليتذكر مثيل هذه الظاهرة تماماً حينما كان السحر يسيطر على

أوربا ، وكذلك الشيء نفسه الذى رأيناه حديثاً فى المحاكمات السياسية فى روسيا السوفييتية وغيرها !

وإن اللائى وصمن بأنهن ساحرات عن طريق الكهانة ومحاكمات صيادو الساحرات سرعان ما يطلقن سيلا من تفاصيل ودقائق وحشية عن أعمالهن الشريرة . وطريقة هذه الرحلات القاتلة عموماً واحدة ، لأن هنالك تماثلا كبيراً فى علم السحر فى إفريقيا . تترك الساحرات أجسادهن نائمة فى أكواخهن بالقرية أو منازلهن بالمدينة ، فى حين تطير أرواحهن عارية إلى الاجتماعات الليلية الفلكية . ويندر أن يكون فى الاجتماع أكثر من عشر ساحرات . وهن أحياناً يطرن فى شكل بومة أو أنواع أخرى من الطيور ، وأحياناً يركبن ظهور حيوانات مدربة يعملن معها فى اتصال شديد عادة كالنمور والثعابين والقطط السوداء وما يشبههما .

ويسود الاعتقاد أن ممارسة السحر وراثية تنتقل من الأم إلى الابنة ، ولكن الطفلة لا تظهر عليها أية علامة لآفتها حتى سن البلوغ ، كما أن أولاد الساحرات قليلون . وبينما تولد بعض النساء ساحرات فإن بعضهن يكتسبن هذه الموهبة الشريرة . وهنالك بعض الاعتقاد فى أنه يمكن شراء السحر بدفع مبلغ مناسب ، ويمكن اكتسابه من الشياطين أو الساحرات الميتات . وأنه يمكن بذره مع طعام مسحور . وأن الساحرة تستطيع أن تنقل بحقد « مادة » سحرها لشخص عاقل بطرق متعددة .

والسحر دائماً نشاط للروح أو النفس، وليس نشاطاً مادياً للبدن أبداً . وحينما تذهب « تيم » الساحرة إلى أى اجتماع فإن جسدها النائم فى المنزل يهلك إلا إذا عاد « التيم » .

وفى تجوالها الليلى تفترس الساحرات الأشخاص الآخرين . هن يرتشفن من جوهر نفوس ضحاياهن بامتصاص دمائهم ، وأكل بضعة أجزاء من أجسادهم ، روحياً دائماً وليس مادياً أبداً .

ولا يمكن تحديد علاقة هذا ، إن كانت هناك علاقة ، بالذكريات الأولى لمبدأ أكل لحوم البشر . وفى الظاهر لا علاقة للسحر إطلاقاً بممارسة أضحت غير قانونية منذ زمن بعيد ،أى القتل وفقاً للطقوس الدينية بين بعض القبائل الإفريقية . ولكن إذا كان نشاط الساحرات فى مص دماء ضحاياهن. وأكل لحوم أجسادهم غير مادى إطلاقاً فإن النتائج المادية مسألة أخرى . فأمراض الذبول يعتقد أنها تنهب أجساد الضحايا مسببة الموت إذا التهم روحانيًّا عضو حيوى كالكبد أو القلب مثلا .

على أن الالتهام ليس هو نشاط الساحرات الوحيد . فتجوال الساحرات فى أحلام ضحاياهن لا يقل خطورة إذا تنبأن لهم بكوارث مزعجة ، أو مصائب للأفراد أو العائلات أو القبائل . وهنالك صب اللعنات بمجرد التفكير الذى تكفى نتائجه لتلقى الرعب فى أشجع القلوب .

وفى هذه الأيام ، لما كان لا يمكن عقاب الساحرات بدنيا إلا قليلا ، فإن اعترافاتهن أضحت لها قيمة طبية إضافية . وقد كانت ظروف الدكتورة فيلد فريدة لتسمع وتسجل مثل هذه الاعترافات بين شعب « جا » . وبعض هذه الاعترافات يستحق الترديد :

سئلت ساحرة ، بواسطة الطبيب الساحر عما إذا كان أولادنا جميعاً أحياء . فأجابت بأن سبعة ماتوا وبقى واحد .

— وما سبب موتهم ؟

— إن أعضاء جمعيتنا (جمعية الساحرات) عليهن أن يساهمن بالدور . وحينما حل دورى من وقت لآخر أحضرتهم لكى يقتلوا بواسطة جمعيتى .

وأجابت أخرى :

— لقد قتلت أدوينا أدبروينى وقتلت أطفالى الخمسة .

وقال رجل ساحر (هنالك قليل من الرجال سحرة ، فمذكرات

الدكتورة فيلد تعدد ثلاثة وسبعين ساحراً مقابل ثلثمائة وستين ساحرة) .

ـ قتلت خمسين شخصاً من ضمنهم أخى وابنه ، وكانت منهم اثنتا عشرة امرأة .

وقال ساحر آخر :

ـ أنجبت عشرة أطفال منهم خمسة ما زالوا أحياء وقد قتلت الباقين بنفسى .

ويجب أن نذكر أنفسنا مرة ثانية أن هذا ليس فعلا ماديًّا ، وإنما هو قتل للجوهر كما يسميه شعب جا : « كلا » الضحية . على أن نية الاعتراف ليس حيلة لخيالات ، فالموت المادى قد حدث وتم تفسيره .

وبالمثل فإن الاعترافات بأكل لحوم البشر ليس ماديًّا ، كما أن اجتماع الساحرات ليس بأجسادهن ، فجسد الساحرة يبقى على فراشه . إن شخصيتها هى التى تطير لتلحق بالساحرات الأخريات لتلتهم زبد الأرداف والرءوس أو أى جزء من الضحايا ، وبرغم هذا ، فإن الاعتراف له حقيقة واقعة مرعبة كما فى هذا المثل :

اعترفت إحدى النساء بندم قائلة : أنا والدة الطفل المريض الآن ، وقد اقتسمت جماعتنا فعلا جسده ، لقد أعطونى قلب ابنتى لآكله ، ولكنى لم آكله وأعدته إلى ابنتى .

ولعل من أكثر الجرائم التى وجدت فى الاعترافات نذالة ، ذلك الذى يسبب العقم ، فإنه يعد عادة أسوأ من القتل . إن الطفل المقتول يمكن أن يعود للظهور فى ميلاد مستقبل ، أما العقم فهو حرمان الأسلاف الموجودين من حقهم فى التجسد ثانية .

واعترفت امرأة بأنها أخذت رحم أخرى . وقد سألت الطبيبة الساحرة :

ـ منذ متى تحتفظين به ؟

ـ حوالى عام .

– وأين وضعته .

– إنه فى إناء فخارى فى منزلى .

– هلا أعدته إليها ؟

– سأعيده إليها ثانية بكل سرور .

– هلا باركتها أيضاً ؟

– سأفعل ذلك .

وفى مثل هذه الحالة فإن من المقطوع بأهميته أن يكون الرحم المسروق (أو عضو التناسل إذا كان الضحية رجلا) هو العضو الصحيح . وألا يكون قد مسه أذى . إذا كان يرجى من إعادته النتائج الشافية المرجوة . وهذه التفصيلات تلاحظ بدقة فى تطهير الساحرات . ولا يلزمنا أن ندخل فى غارات متعددة أخرى للساحرات تسبب العمى والجروح . والعجز عن إيجاد زوج ، وباختصار جميع أنواع المصائب . على أن السحر يعد عملا مسئولا عادة عن عوارض مادية ، كحدة الطبع ، وسرعة الغضب ، وعدم القدرة على الإنتاج . وهذه هى علاقته الوطيدة بالحياة العادية .

وحينما نأتى إلى عملية الالتحام الهامة مع الساحرات ، نبدأ فى تقدير مركز وأهمية الشخص المجنى عليه ، الطبيب الساحر الإفريقى ، رجل الدواء ، أو رجل الجوجو الطبيب . فإذا اعتبرنا العراف أو الساحرة هما الرجل الوغد والمرأة الدنيئة ، فإن الطبيب الساحر هو البطل ، وينظر إليه كذلك فعلا فى الحياة الإفريقية . وقد تم تصحيح أحد الأخطاء للإدارة الأوربية فى إفريقيا فى هذا المضمار . كان القصد مفهوماً . فالسحر مصدر رعب وخوف كبيرين . كما أن له اتصالا بطريق ما بالأطباء السحرة . « امح الأطباء السحرة فربما يمكن محو هذه الخزعبلات الملعونة من رءوس الأهالى » .

ومن العسير التفكير فى سخافة مشابهة فى مدنيتنا ، ولكن ربما يمكن

مقارنتها بإلغاء قوات الأمن في حربنا للجريمة أو بعقاب الأطباء النفسيين في محاولتنا مقاومة الأمراض العقلية . إن لوم الأطباء السحرة على السحر يماثل لوم جوناس سولك على شلل الأطفال .

وبالرغم من هذا فإن قوانين العقوبات التي أصدرتها إدارة الاحتلال مملوءة بالمواد التي تعاقب بالحبس كل من يتهم أو يهدد باتهام أشخاص بأنهم سحرة أو بأن لهم قوة سحرية . وواضح أن الغرض هو حماية الأشخاص الأبرياء من نسخة (مكارثية) إفريقية . ولكن من وجهة نظر الإفريقيين الذين يؤمنون بشرور السحر ، والذين يعانون فعلا منه سواء أكان وهماً أم لا ، لا يوجد أي شيء أكثر تغفيلا من عقاب الأبطال الشعبيين الذين يقضون عليه .

والتفكير في هذا قد يساعد بعضنا ممن يجد صعوبة في تفهم سير عقلية بعض الأمريكيين ، أعني هؤلاء المعارضين جداً للشيوعية ، الذين يستشيطون غضباً من القوانين والمبادئ الدستورية التي يلوح أنها تحمي أولئك الذين يرغبون في « فضحهم » . إنني لا أعني بهذا مقارنة بغيضة ، ولكن وسيلة التفكير هي التي تهمني . إذا كنت تؤمن بقوة كافية في ضرورة معارضة شيء (كما يفعل معظم الإفريقيين إزاء السحر وبعض الأمريكيين إزاء الشيوعية الوطنية) ، وإذا كنت تعتقد أن هذا الشيء خطر حقيقي حال وكبير (كما يفعل معظم الإفريقيين إزاء السحر وبعض الأمريكيين إزاء الشيوعية الوطنية) فعندئذ يكون معقولا أنك لا ترى سوى سخافة في تقييد الطبيب الساحر من جهة وأعمال المحققين غير الأمريكية من جهة أخرى . يجب أن نفهم أن السحر ينظر إليه من كل شخص تقريباً في إفريقيا على أنه قوة شريرة هدامة . وعمل الطبيب الساحر إذاً ، سواء أكان عالم نبات أم كاهناً أم قسيساً ، هو عمل يستحق التمجيد . وقد وجدت أن هذا لا يقل صدقاً في البلدان أو المدن التي ليست بها قبائل عنه في قلب أرض الثقافة الإفريقية القبلية القديمة ، وهي القرى . إن إحدى

الظواهر الغريبة جداً فى الساحرات أن قواهن يعتقد أنها تزول بمجرد أن يكتشف أمرهن ، على أنه يلزم شخص أكثر قدرة من الساحرة ليتمكن من كشف القناع عنها . ويسود الاعتقاد أن الشخص الأقل قوة الذى يحاول كشف ساحرة يصاب بكارثة محققة . وقد كتبت الدكتورة فيلد « أن مواطنى الساحرة يأخذونها إلى كاشف الساحرات كمشتبه فيها فقط ، أما الاتهام الفعلى والفضح فمتروك له ، وحتى لا يعرض هو نفسه للمجازفة ؛ ولكنه يتبع فضحها بإجبارها على أداء حفل إنكار وتطهير ».

وقد أصبح قتل الساحرات عملا غير قانونى منذ مدة طويلة ، كما أعلن وزير داخلية تنجانيقا جورج كاهام : « يجب أن أذكر الجميع أن السحر عمل غير قانونى مهما كان الغرض منه ، ومن التخلص من الساحرات الأخريات » . وعليه فإن الساحرات لا يتخلصن منهن : ولكن ليس من غير العادى أن تفرض عليهن غرامة أو يعاقبن بالضرب ، ولكن الضاربين هم أهل قريتهن وليس الأطباء السحرة . إن إذلال ساحرة يهدم مركزها الاجتماعى تماماً . وهنا يتدخل الطبيب الساحر كشاف للروح . وتتفاوت وصفات الطبيب الساحر تفاوتاً كبيراً ، ولكنها عادة تتضمن اعترافاً كاملا وطقوساً تطهيرية وتمائم لشفاء ضحايا الساحرة . وتبدو ذروة الحالة النفسية فى إعلان أن المدانة الذليلة لم تعد ساحرة ، وأن الأرواح الشريرة فى نفسها قد هزمت .

أيبدو عجيباً إذاً أن يعد الرجل الذى يباشر هذه الطقوس الخاصة بالندم والشفاء ، الرجل الذى تفوق قواه قوى شياطين الساحرة ، مارداً فى صهيون ؟

ولا تقتصر واجبات هذه الشخصية القديرة على شفاء الساحرات المعترفات ، بل يلتجئ إليه أيضاً الأشخاص الذين ترتعد فرائصهم من الخوف بأنهم قد يتحولون إلى سحرة . إن أعصابهم لتضطرب وأجسادهم تمرض ، وهم حالات للطبيب الساحر أشق فى معالجتها من هؤلاء المقتنعين بأنهم سحرة فعلا .

ومثل هؤلاء التعساء يلجأون إلى الأطباء الأوربيين ، أو إلى أطباء إفريقيين تعلموا فى أوربا ، وكثيراً ما يتم فحصهم ويقال لهم إنه لا يوجد أى خطأ بأجسامهم ثم يرسلون إلى منازلهم لتزداد حالتهم سوءاً .

وقد لاحظت الدكتورة فيلد حالات كثيرة من هذا النوع ، وسجلت بعض حالات شفاء مثيرة للدهشة تمت على يد الأطباء السحرة . فهى تقص مثلا حالة فلاح الكاكاو الذى كان صورة مجسدة للبؤس المطارد ، وقد بدأ مرضه بالأرق وتخلل أحلامه كابوس مرعب كانت فيه روحه تجرّ إلى اجتماع للساحرات ، وابتدأت قوة إبصاره تضعف وطنت فى رأسه أصوات الساحرات ، وكانت معدته قد تحطمت من الألم ، وظهرت بها آثار الجروح حيث حدثت قطوع لإخراج المرض .

وفى يأس سافر أخيراً فى عربة نقل الكاكاو كل المسافة إلى « أكرا » ليرى طبيباً قد تعلم فى أوربا ، وقد قال الطبيب له إنه لايرى أى مرض عضوى فى جسده .

وحينما رأته الدكتورة فيلد لأول مرة كانت الساحرات اللائى فى عائلته قد تم اكتشافهن ، وقد أقسمن على عدم التعرض له . وكان يعيش مع الطبيب الساحر وقد تم استرداده لبصره .

وتقول الدكتورة فيلد : « كان لايزال بائسا ومتعباً ، يجلس على الأرض ويخشى أن يبتعد عن الطبيب الساحر . ولكن فى حضور الطبيب الساحر كان لديه شعوربالأمان ، والاعتقاد بأنه سوف يتم إنقاذه . وقد مكث مع الطبيب قرابة عام ، ورويداً اكتسى لحماً ، وفقد نظرة الذهول ، كما ابتدأ يجرؤ على الخروج بمفرده ، وفى النهاية كان مخلوقاً مختلفاً ، وتكونت لديه روح الدعابة وامتلأ حيوية وثرثرة ، ثم ذهب إلى منزله بعد شفائه تماماً وثقته الكاملة فى الاستمرار هكذا .

إنه ليس من المستغرب بعد عمق تجربة الدكتورة فيلد أن تشهد باقتناعها الشخصى بأن طبيباً ساحراً خيراً يستطيع التعرف على ساحرة حينما يراها ،

وأنه يستطيع أن يقرر عما إذا كان المرض عادياً أو من فعل السحر . ويترجم هذا إلى تعبيرات أوربية بأنه يستطيع أن يقرر ما إذا كان الشخص مصاباً باضطراب عقدى أو أن المرض عصبى أو جسمانى . وهو يستطيع أن يشفى ، ويشفى فعلا .

ولا شك أن من الأطباء السحرة مهرجين وأنذالا فى بعض الأحيان ، ولكن من المؤكد أيضاً وجود المهرجين والأنذال فى مهنتنا الطبية ، هذا إذا تركنا جانباً جيش قارئى الفنجان ، والبخت ، والوسطاء ، واليوجى ، والمهن «الشافية» الأخرى التى يذهب إليها الآلاف بل الملايين منا ، كالخراف تقاد إلى المذبح . ولكن من المؤكد أيضاً أن هنالك أطباء سحرة ليسوا مدعين . ويؤمنون بقواهم وبأدويتهم ، ويقومون بأداء مهمتهم بإخلاص فى تطهير وشفاء الذين يخشون أن يصبحوا سحرة وشفاء أولئك الذين يعتقدون أنهم قد سحروا .

إن تدريب الطبيب الساحر بعيد كل البعد عن أن يكون أمراً يسيراً كما يقرر الدكتور إيفانز بريتشارد فى دراسته عن قبيلة الأزاند . إنه يبدأ بفترة شاقة تحت التمرين ، تتبعها فترة ممارسة لا تقل عنها مشقة ، وإن إدراجه فى مصاف مهنته كممارس تام التمرين لايقل مهابة ، وإن كان أكثر تلويناً ، من الطقوس والإجراءات الرسمية الحمراء المتبعة فى الاعتراف بالطبيب الغربى كممارس مرخص له .

وليس السحر هو اهتمامه الوحيد . إن من عادة الإفريقيين أن يرجعوا كل الأمراض إلى أسباب روحية ، وأن يبحثوا عن سبب وعلاج روحيين لها . وينتقد الجميع المستشفيات التى على نمط أوربى وكذلك مهنة الطب فى إفريقيا ، على أساس أنها جافة ، وغير إنسانية ، وتهمل هذه الناحية من الأمراض . ومن المؤكد أن هذه الاتجاهات لا تعد غير معروفة فى الغرب ، ولكن فى إفريقيا تعد مجرد فكرة شفاء الإنسانية المعذبة فكرة روحية ، ويعد الطبيب الساحر أولا وأخيراً رجلا روحياً .

ويتكلم الطبيب النفسانى « ولف ساتش » فى دراسته للطبيب الساحر جون

شافا فامبيرا ، عن مقدرته الفائقة فى التقرب والاتصال بالإفريقيين الموجودين فى مستشفى الأمراض العقلية بجوهانسبرج . ويقول الدكتور : « يجب أن أعترف أنه بوسيلته فى التقرب يستخرج من المجانين ثروة من المعلومات أكثر مما فعلت .

إن معظم المرضى لم يسلموا أنفسهم لأسئلته فحسب ، ولكنهم نظروا إلى مجهوداته باطمئنان وثقة . فجون ، بعظامه وقرونه و وصفاته السحرية وتمائمه كان يعنى لهم رجل الطب الحقيقى . وإنى لأعجب عما إذا لم يكن من المستحسن، من الناحية النفسية ، أن تستعمل نجانجاس « الطبيب الساحر » فى معالجتنا للأهالى المجانين . إننا لن نفقد شيئاً على أى حال إذ أن وسائلنا قد أخفقت تماماً .

وكما سبق أن قررت ، أصدرت حكومات الاستعمار الأوربية بحماس تشريعات كثيرة ضد السحر والأطباء السحرة ، وهم بفعلهم هذا قد أعاقوا وطاردوا الطبيب الساحر ،واكتسبوا احتقار وسخرية الإفريقيين الذين أصبحوا الآن — مع الاستقلال — فى مركز يسمح لهم بوضع نظمهم الخاصة . ما هو مستقبل السحر والأطباء السحرة فى إفريقيا الجديدة ؟

يمكن التوصل إلى معرفة الاتجاه من مقالة ظهرت حديثاً فى مجلة « قائد غرب إفريقيا » تطالب بتأميم السحر .

« أمموا السحر» .

لقد آن الأوان الآن لتأميم السحر فى نيجيريا . إننا يجب أن نفعل ذلك حتى نضع حداً للدمار المقيم الذى يتلاعب بالإنسان منذ قرون .

دعونى أقرر فوراً أن السحر فى أيدى أشخاص متمدينين منحة إلهية ، ولكنه أداة شيطانية فى أيدى الجهلة . إنه يشابه المبضع فى يد جراح أو الخنجر فى يد سفاح مجنون .

ويجب أن يلاحظ أنه فى البلاد المتمدينة قد أمموا السحر كعامل من عوامل التقدم العلمى ، وأقيمت معامل وطنية للنهوض بالبحوث عنه ولهذا

اعتبرت الدول المتمدينة ، كبيرة أو صغيرة ، من القوى العالمية . ولن نستطيع أن نكون قوة عالمية إذا تجاهلنا هذه الحقيقة .

ولنجعل استقلالنا يستأهل الاسم .أقترح أن تكوّن لجنة تحددها الحكومة الاتحادية أو أى من مصالحها ، لأخذ الأداة التصويرية من المناطق المناسبة؛ لأنه بهذا العمل يتعلق أملنا فى دفاع وطنى » .

وقيمة المقالة من الناحية الأدبية تكاد تنعدم ، ولكن ما يقترحه المحرر يستحق التحقيق . إنه يقول إن السحر ، والنشاط المضاد له ، يخدمان غرضاً حقيقياً فى الحياة الإفريقية . وفى الواقع أنهما يخدمان أغراضاً تتابعها الدول المتمدينة بواسطة بحوث علمية واسعة النطاق فى مجالات علم النفس والمستشفيات والمعامل .

ويتسلط الخوف على هذه المملكة فى إفريقيا ، أولا نظراً لطبيعة السحر الخادعة ، وثانياً لوجود بعض الغش فى ممارسة بعض الأطباء والسحرة ووكالات البحث عن الساحرات . ولكن السحر يبقى قبضته على عقول الأشخاص لأنه يعمل فى نطاق روحى يفهمه الإفريقيون ويؤمنون به . وفى أيام الاستعمار الماضية لم تكن هنالك محاولات للتحقق من هذا أو فهمه (فيما عدا فئة قليلة من علماء السلالات البشرية) ، والقوانين الحكومية — التى هدفت منع الاتهامات غير العادلة الموجهة ضد أشخاص أبرياء كان غرضاً شريفاً وإن ضلت قيادتها — لم تلق رضاء من الشعب ، كما أنها لم تفعل سوى القليل ، إن كانت قد فعلت شيئاً ، لتغيير الاعتقادات فى السحر . عالجت العوارض وتركت الأسباب .

إن المعرفة هى ما نحتاج إليه : تفهم الأسباب التى تطور فيها الإيمان بالعرافة والسحر والطرق المؤدية لعلاج الأمراض الاجتماعية التى تعكسها ، لبترها .

ويجب إيجاد وسائل لإحلال مقدمات جديدة ونيرة محل الرعب المتمثل فى السحر . ولكن يجب أن يتم هذا بشروط إفريقية وتقدير كامل للجذور

العميقة للتعارفات الروحية الإفريقية ، وإلا فإن الظروف الاجتماعية غير المتزنة للحياة الإفريقية الحديثة يغلب أن تقوى الشرور المرتبطة بالسحر بدلا من أن تضعفها . ويجب أن نتناول الموضوع من وجهة نظر شخصية وعلمية — ووطنية .

وهذه ليست طريقة « اقتلعها من جذورها » التى تفرضها الحكومات الاستعمارية المسيحية ولا هى نصيحة ، « دعها وحدها » التى يقول بها بعض علماء السلالات البشرية والإرساليات ، إن الاعتقاد فى السحر ينتج ويحلل المخاوف والتوترات فى الحياة الإفريقية . إن الخوف والتوتر هما اللذان يجب فهمهما أولا ، وكما يقترح السيد محرر جريدة « قائد غرب إفريقيا » أن هذا مشروع من الضخامة بحيث يلزم لتبنّيه تكوين لجنة من حكومة اتحاد نيجيريا على الأقل .

وبالرغم من السخافات التى تكتبها المجلات والجرائد فى الغرب عن التطبيب الإفريقى للسحر ، فإنه يندر أن يسخر طبيب غربى ، مارس المهنة لمدة طويلة بين الإفريقيين ، من وسائل الشفاء الإفريفية . وبدلا من هذا فإن هنالك تقديراً متزايداً يضفى فاعلية على بعض أنواع العلاج التى يمارسها الأطباء السحرة . وتجهد معامل الأدوية فى أوربا وأمريكا نفسها منذ مدة لتحليل بعض النباتات الطبية الإفريقية التى أرسلها إليهم أطباء وصيادلة تأثروا بفائدتها .

إن التنازع المرير بين الأطباء المبشرين والأطباء السحرة أصبح موضوعاً شعبيًّا مفضلا فى القصص القصيرة والروايات . وهذا التنازع ، حتى حديثاً كان صحيحاً ، ولكن هناك مجهودات كبيرة للتحقق من أن التشخيص بواسطة الطبيب الساحر أساسه الناحية الروحية . وهو بالنسبة للطبيب الغربى ينحصر أساساً فى محاولة تعرف أسباب جسمانية يقدم عليها دليل علمى . ويساير هذا الآن فى الطب الغربى تقدير عام للناحية النفسية — الإحساس ، والشعور ، وعامل الروح ، فى المرض . وفى الوقت نفسه تأثر الأطباء السحرة ، وإن يكونوا

مضطرين ، بالنجاح الذى يلاقيه زملاؤهم الغربيون ، وبالتدريج ، ومع القليل من الحماس يتقابل الطرفان ليتعلم كل منهم من صاحبه .

إن الكثير من أعشاب الأطباء والسحرة ما زال تحت الفحص ولم تصل إلا إلى تفسيرات ضئيلة عن أسباب فاعليتها . ومن أكثر هذه الأعشاب مدعاة للعجب ، تلك التى تسبب إدرار اللبن البشرى . وقد كتب الدكتور كوادجوبتا كوه ، وهو طبيب إفريقى تعلم فى أوربا ، رسالة الدكتوراه عن الأطباء السحرة فى إفريقيا الغربية ، وهو يصف كيف أنه ينتظر من الجدة أن تقوم بإرضاع طفل إذا ماتت الأم فى مولده . إنها تبدأ أولا بنظام غذائى غنى من حساء العسل والكبد والكلية ، وضرة الماعز والخاصى . وفى فترات منقطعة خلال اليوم ، تقوم بتغذية نفسها على نبات الكسافا النىء والفول السودانى الطازج والشعير وبذور من شجيرات القطن أو البالباز ، وتدلك ثدييها بانتظام بهذه النباتات نفسها .

وفى وقت قصير جداً تكون الجدة مستعدة لإرضاع حفيدها . على أنه خلافاً للعادة فى إفريقيا ؛ يفطم الطفل فى أسرع وقت ممكن ، ليس لأن اللبن يجف ولكن لارتفاع تكاليف تغذية المرأة .

وقد ذهبت الآن سرعة ميل الأطباء الغربيين إلى الاستهزاء بتأثير مثل نظام التغذية والتدليك السحرى هذا إدراراً للبن ، والانتقاص من قيم الكثير من أمثال هذه العلاجات الإفريقية . ولم يحدث تقدم مذكور لتحديد السبب الذى من أجله تحدث هذه التأثيرات من الأدوية الإفريقية والطب الإفريقى ، ولكن السخرية القديمة حل محلها نظرة أكثر تواضعاً وصبراً بغية المعرفة . ويفسر الدكتور بال ، من المتحف البشرى بباريس ، هذه الظاهرة بقوله : «كنا فى الماضى نقوم بتحليل نبات يستعمله الإفريقيون بدون أن نستطيع أن نجد له أية قيمة طبية أو غذائية . فمثلا بتحليل نبات الكسافا ، اتضح أن قيمته الغذائية ضئيلة جداً ، واستنتجنا من هذا أن الإفريقيين إنما يستعملونه بكثرة نظراً لسهولة زراعته . ولكن حينما قررنا أن نعيد تحليله

مرة أخرى بعد غمسه فى ماء تقارب حرارته مياه فروع الأنهار الإفريقية ، ظهرت لنا أنواع غذاء لم يكن لوجودها حتى مجرد الإشارة فى التحليل الأول . إن التحايل يكون له مفعول فقط عند محاكاة الظروف فى إفريقيا تماماً . وبهذا ، ومع تحسين طرقنا فى التحليل نكشف قيماً جديدة فى نباتات كنا حتى هذا الوقت نسخر منها » .

إنه من العسير جداً أن نتوقع من العلماء الغربيين الذين يتبعون ميل هذه الطريقة حيال الأعشاب الإفريقية أن يكونوا متسعى التفكير أيضاً عن الخصائص الشفائية للأضحية ، والرقيات السحرية ، والرقص ، والعزائم . فهنالك براهين كثيرة عن إخفاق الأطباء السحرة فى التغلب على أمراض الجذام والملاريا ومرض النوم بوسائلهم السحرية . ولكن هنالك أكثر من بصيص من الحكمة فى مقالة الدكتور بال بوجوب محاكاة الظروف فى إفريقيا لإمكان تفهم الخصائص الشفائية للأدوية الإفريقية .

وهؤلاء الذين يسخرون من الأساس الروحى للحياة الإفريقية لايستطيعون إصلاح معتقداتها السحرية ولا الممارسات الطبية بها . فبينما الأطباء السحرة الإفريقيون يزدادون اعترافاً بأن الطب الغربى فعّال وصالح ، إذا هم لايزالون يشكون جداً فى قدرة الأطباء الغربيين على التصدى لنفسيات المرضى . ولبعض الوقت فى المستقبل فى الحياة الإفريقية العادية ، سوف يعبر هذا الاهتمام بروح المريض عن نفسه بالطرق التقليدية المعتادة للسحرة ، بالتضحية والتمائم والتعاويذ وغيرها . ولكن دعنا نتذكر أن هذه الوسائل إن كانت ممقوتة من وجهة النظر العصرية فإنها طرق معتادة ومجرّبة فى وضع القوة المنتجة « للكلمة » تحت إمرة الرجل . (نومو) قوة الحياة التى تنتج عنها كل الحياة ، وكل الأمراض ، وكل الصحة ، وكل الشر ، وكل الخير فى صيغة « الكلمة » . وبما أن الإنسان له السلطة على « الكلمة » فهو الذى يمكنه أن يوجه قوة الحياة .

إن نفوذ وجهة النظر هذه ، من تقدير أسباب وعلاجات كل مصائب وأمراض الحياة ، من النادر أن يفهمها سوى من نشأ فى مجتمع يؤمن بها .

إن العرافة والسحر والكهانة والتطبيب بالسحر ، ليست مجرد شعوذة أو أباطيل ، إنها وسائل إفريقيا التقليدية لإيجاد فلسفة فى الحياة ، وتطبيقها لتساير الحياة اليومية . إن النظام التقليدى قد داخله الاختلاط الآن ، وفى المدى الطويل لامشاحة فى أن معظم ممارساته القديمة مقضى عليه نهائيًا ، أما ما سوف يبقى ، بل ما يجب أن يبقى ، إذا لم يكن فى النية القضاء على الروح الإفريقية ، فهو الإيمان القوى بأن الإنسان فى استطاعته السيطرة على قوى الحياة وتسييرها ، سواء فى الشر أو الخير ، وأنه يستطيع من خلال سيطرته على « الكلمة » أن يحقق معنى الحياة وأغراضها .

أما كيف يمكن ترجمة هذه الفلسفة ، وإخراجها من حيز العرافة والسحر إلى شىء يمكنه أن يضم ويفوق العلم الغربى ، فإنه موضوع هائل ما زال مجهولا إلى الآن ، كما أنه لا تزال مجالا للأبحاث فى إفريقيا اليوم ، تماماً كما قال محرر جريدة « قائد غرب إفريقيا » إن الروح التى تدفع إلى تفسير الشر وتخفيف الآلام ، ومواساة الحياة البشرية هى « بروميتوس »[1] المختزنة فى جعبات إفريقيا المجففة المليئة بالسحر والخرافات .

إنه كان مونتانى الذى قال : « إن كل إنسان يطلق لفظ البربرية على ما لم يعتده » ، وقد كتب برونيسلو مالينوفسكى « إذا نظرنا من عليائنا الآن فى مدنيتنا المتطورة فإنه من اليسير أن نرى سخافة السحر وعدم ملاءمته » .

ويزداد عدد الأفريقيين أنفسهم الذين ينظرون من عليائهم إلى ماضيهم ويتحيرون فى فلسفة مجتمعاتهم الحديثة الناهضة . وقد كتب أساناسياك ، السنغالى والمحاضر فى الجغرافيا فى جامعة داكار : ربما كانت إفريقيا السوداء — من بين المناطق المتخلفة التى لم تتطور — هى الوحيدة التى كانت مدنيتها قليلة الإشراق نحو معرفة هادفة للعالم ونحو اكتساب قوة مادية . لقد ترك الإفريقيون كل محاولات لاكتشاف قوانين الطبيعة والسيطرة على المادة ،

---

(١) بروميثوس هو الذى سرق النار من الآلهة فيما تقول الأساطير الإغريقية .

وبدلا من ذلك حاولوا اكتشاف الروح فى كل كائن أو شىء حتى يتمكن الإنسان من التحرك فى العالم طبقاً لنظمه الداخلية . « إن وجهة النظر هذه فى العلاقات بين الإنسان والعالم المحيط به قد تنتج عنها طريقة من الحياة خالية من كل مبدأ دافع قوى حتى إنها قريبة جداً من مجرد التوازن ، ولو أنها قد سمحت بالمحافظة على الجنس الأسود ومدنيته على الرغم من ضعفه من الناحية الفنية . وهذا الافتقار إلى القوة المادية يساعدنا على أن نفهم إلى أى مدى كانت سهولة نشأة الاستعمار فى إفريقيا .

وبمعنى آخر أن العالم الإفريقى التقليدى كان غريباً عن نوع مجتمعنا الدنيوى ، وفريسة سهلة فى يد قواه المادية المتفوقة . إن اهتمام إفريقيا « بالنظام الداخلى » للحياة « وبالروح فى كل كائن أو شىء » ، قد ساعد إلى أقصى حد على الاحتفاظ بالأوضاع متوازنة ، ومقاومة كل تغيير .

وإنى أتذكر الوصف البسيط الواضح الذى قاله أحد زعماء يوروبا « أو . ديلانو » عن إيساكو وهو حفل جناز المتوفى ، بين شعبه : « إن احتفالات الإيساكو لا تبدأ إلا فى ساعة متأخرة من الليل . وقد يكون المتوفى عجوزاً ، رجلا أو امرأة ، ويحدد السن بما إذا كان الميت جداً أم لا ، أو كان له ولد فى سن الزواج قادر على إجراء الطقوس المتعلقة بجنازة والده أم لا .

والشخص المتوفى فى حالة بعثه أو يوم الإيساكو يظهر بمظهر الرجل السعيد ، وهذا الموقف إنما يقنع أقرباءه بأن الموت ما هو إلا مجرد ممر إلى العالم الأبدى العظيم . وفى أثناء حياة الشخص المسن يقوم المسئولون عن الاحتفالات الخاصة بجنازته بإعداد أشياء كثيرة . هم يتمرنون خفية على طريقة سير وحركات وخصائص الرجل العجوز ، ويقاربه جداً الرجل الذى سوف يقوم بتقليده يوم البعث .

وفى يوم « الإيساكو » يخرج الميت فى اللباس الذى كان معروفاً به حال حياته حتى يقتنع الناس أنه — الرجل الميت — قد عاد إلى الدنيا لدقائق

قليلة لينهى أعماله . وإذا كان الشخص الذى يقلد شخصيته قد تمرن بدرجة كافية فقد يمثل دور الرجل المتوفى لدرجة أن كل الجماعة تنفجر فى البكاء لدى ظهوره . إنه يظهر بغتة من اتجاه غير متوقع ، ويبدأ هؤلاء الذين كانوا ينتظرون ملاقاته لآخر مرة بارتجال أغنية فى مدحه ذاكريه بأعماله الطيبة خلال حياته على الأرض . وهذه المناسبة كان لها قبل ذلك تأثير على أكثر من رجل عجوز حينما يتذكر أن هنالك يوماً سوف يحاسب فيه ، ولن يكون له حق الشرح ، وأن إدانته قد تكون مصدر عار لأولاده . فالأغانى فى يوم الإيساكو كما قد تكون مدحاً قد تكون إدانة .

وإن الأثر الحتمى لحفلات « الإيساكو » كما وصفها برقة الزعيم ديلانو ، هو المحافظة على التوازن والاستمرار غير المتقطع والجوهر غير المتغير لطريقة ثابتة ومستقرة فى المعيشة . ولا يقل الزعيم إدراكاً عن كثيرين غيره فى أن الطرق القديمة مسئولة عن افتقاد إفريقيا للقوة المادية ، والتقدم فى العلوم والفنون التى هى بدورها علة ما وصفه رئيس الوزراء « نهرو » كمأساة إفريقيا الأليمة خلال القرون القليلة الماضية ، ومع هذا أضاف الزعيم بحصافة « إننى أعتقد أن ثقافة يوروبا » لها قيم كثيرة قد تطورت خلال مر القرون، ولا أود أن ننساها أو نتجاهلها . وبالرغم من أن كثيراً من العادات والتقاليد قد عفى عليه الزمن ، فإن هنالك بعض الخصائص الرئيسية التى أعتقد أن فى إمكانها أن تسهم بصورة قاطعة فى الثقافة البشرية . لست أود فقط أن نحتفظ بها ، بل أيضاً أن توضع فى وقتنا هذا ، فى مقدمة أطماعنا للمستقبل .

وربما لم يدر بخلد الزعيم أن أحد منتجات إفريقيا ، فى لقائها المحموم مع ما فوق الطبيعة ، قد بدأ فعلا ينتشر كوحى للغرب : النحت . حينما تجول « ماتيس » من حانوت إلى آخر فى مونبارناس وهو يلتقط تمائم لقاء بضعة فرنكات لكل تميمة ، لم يكن يخطر فى باله إطلاقاً أنه كان مكتشف الفن الإفريقى . إنه هو وأضرابه ، بيكاسو ويراك وديران — أحبوا الجوجو

لأنه كان إهانة للفن التقليدى ـ كان شيئاً يلوح به ليسخروا من عبدة الأشكال التقليدية .

إن العبقرية القيدة للنحاتين الإفريقيين ـ بالنسبة لهؤلاء الثائرين المجددين الفرنسيين على الأقل ـ كانت وسيلة هزئهم من الواقعى « هنا كان جمال لا يأبه مقدار ذرة لمحاكاة أشكال الطبيعة . فالنحاتون الإفريقيون خالقون بالمعنى ، كانوا أحراراً كما كان كوجان وسيزان وفان جوخ أحراراً . أو هكذا ظن المجددون الثائرون . وقليلا ما أدركوا أن اكتشافهم من ناحية أخرى يستحسن مقارنته مع الفن الدينى فى القرون الوسطى وليس مع الفن الحديث المنشأ . ومع هذا فالنحت الإفريقى قد ساعد فعلا فى تطوير الفن فى قارتين إذ قام مؤيدوه الغربيون بانقلاب ساخر .

ووصلت القعقعة إلى موطنها ، وعلم الإفريقيون لأول مرة أن لهم فنًّا . وكانت أخباراً مثيرة للنحات الإفريقى أن يعلم أنه كان فناناً . فالمجتمع القبلى لا يعرف شيئاً عن الفن فالفكرة أوربية ولغة المتعلمين الذين حاولوا أن يعماوا مع الشعور بالجمال فى لسان القبائل، اتضح لهم أنه يمتزج بكلمات أخرى ، مثل الخير والمصير والكفاءة مما يسبب الارتباك ، لم يكن النحات الإفريقى يحاول أن يخلق الجمال ، وإنما حاول الاتصال بالأرواح لكى يمنعهم من فعل الشر ، ولكى يكتسب ودهم ومساعدتهم ، ولكى يتناسق مع نغم الحياة . وليدفع رعب المجهول . إن ما رآه الغربيون فى تمثال بوكونجو هو عمل فنى ، أما ما رآه النحات الإفريقى فهو موضوع عبادة ، فكل نتاج من يديه وآلاته إنما هو جزء من عالمه الروحى المحيط به ، شىء مقدس لدور مقدس يقوم به ، وعاء « لنومو » . إننا من علياثنا الآمن فى أحضان المدنية المتقدمة ، ننظر باحتقار إلى قناع بازمونج من الكرنجو ، ونحن إذا كنا مخلصين للمنازل التى اعتدناها ، يلزم أن نقول إن هذا مجرد سحر سخيف غير مقبول » ـ وذلك لأن ما يمثله القناع للقروى الذى نحته هو تجسد ملحمة مرعبة بين قوى ما فوق الطبيعة .

حينما تكلم الزعيم ديلانو عن الرجل الذى يقوم بمحاكاة شخصية المتوفى فى احتفال « إيساكو »، لاحظ مدى الواقعية فى التمثيل . ولكن الواقعية رمزية أكثر منها تشخيصية ، كما هى دائماً فى النحت الإفريقى . إننا نريد طابعاً وصفيًّا، ولهذا نقول إن الفن الإفريقى «تعبيرى» ولكن لكى تتجسد روح الميت لا يلزم للشخص فى إيساكو ، ولا للمثال الإفريقى أن يصور بدقة ملامح وجهه فى حفلة « الإيساكو » . قد تلاحظ بعض المظاهر الخاصة ، كالملابس والمشية وربما تظهر فى القناع أيضاً ميزة غالبة ، الأنف أو الشفتين ، ولكن الباقى لا داعى لأن يشابه الشكل البشرى . فلا يوجد أى إسراف أو زخرف . إن الغرض المقدس هو استدعاء الجوهر فقط ، القوة الحيوية ، النظام الباطنى .

على أن هنالك شيئاً آخر فى الفن الإفريقى يستميل الغربيون الذين خنقتهم مدنهم بأسفلتها وصلبها ، ألا وهو نزعته الدنيوية الشهوانية . حينما يبدأ الطبالون وضاربو الدفوف يوقعون على آلاتهم ، فإن الدماء التى تتدفق فى العروق البشرية تتجاوب بنغم خاص بها . وتثير أقدام الراقصين التى تدق الأرض أكثر من مجرد غبار ، ويتضمن النحت الإفريقى بطريقة ما نفس هذه الدنيوية ، ليس فقط فى أشكاله ومواده ، ولكن فى المشاركة البدنية . وليس الفنانون الإفريقيون فئة مهملة ، تخدم نظارة ومتفرجين . إذ يلاحظ الأستاذ مارسيل جريول فى دراسته عن الفن الإفريقى أن مهارة الصناعة تعد جزءاً من الحياة القبلية لا يحلم أحد بمجانبته . وتماماً كما يقوم الرجل بالصيد فهو أيضاً يقوم بالنحت ، والرسم ، وبالنقش والزخرفة ، والرقص والإيقاع على آلة موسيقية . وقد يتفوق بعضهم على بعض آخر طبعاً . ويفخر القرويون بأحسن راقصيهم وطباليهم ، وقصاصيهم ونحاتيهم ، ولكنها مسألة درجة وليست تفرقة . وقد وصف لى المغنى الذى كان فى « أو أوماما » على أنه الأحسن فى كل أرض إيبو ، ولكن شهرته لم تنبع من الابتكار ، ولا هى كذلك فى أى نوع من الفنون الإفريقية التقليدية ، وهنا المقصد . لم يكن هنالك فى

الحياة الإفريقية القديمة أى تكريم فنى للابتكار ، وإنما هدف الجميع كان الحفاظ بأمانة على نفس طرق الماضى .

فنى حين منح اكتشاف الفن الإفريقى الغرب هدية ثمينة من الحرية المبتكرة ، فإنه يجب الحكم عليه فى أرضه كقطعة أخرى من عالم خامد . خلال سحره المسيطر ، تمت مساعدة جنس ومدنية على البقاء ، لكن الآن بين الباقين من هذا الجنس يتزايد عدد القلقين والطموحين ، وهم ينظرون حواليهم ليروا فى كل مكان أن عالم إفريقيا القديم المقدس يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وأن عالماً دنيوياً جديداً يكافح ليولد . وظهر نقص العالم القديم فى تطور شخصية إفريقيا الجديدة .

ولعل أحد المظاهر الغريبة فى مصير الفن الدينى الإفريقى ، أن الهداية الدينية الحديثة قد أصابته إصابة مميتة . وفيما عدا بعض المناطق النائية جداً والبعيدة عن العمران ، فإن الفن الإفريقى فى تدهور لأنه لم يكن دنيوياً ، إن وحيه كان يعتمد على نظام (فوق الطبيعة) المغلق حيث لا مكان ولا موجب لبديل ، وفى هذا النظام المغلق جاء الإسلام المحطم للأصنام ، كما جاءت المسيحية التى لا مهادنة بينها وبين طقوس الوثنية . فحيثما ألقت بذور الشك فى الآلهة ، ذهبت الشعلة من تعبيرات الفن الإفريقى . فمن بين أصدقائنا القدامى ، الكالابارى مثلا ، يقنع رجال كثيرون الآن ، على عكس الماضى ، بالمساهمة فى حفلات القرية ببعض المال الذى يستطيع الكهنة ونوابهم أن يستعملوه لتقديم القرابين إلى الآلهة فى حين أنهم يقبعون فى أعمالهم بالمدينة أو مخيمات الصيد البعيدة .

ولكن الهبوط بالفن الإفريقى إلى مستوى الصناعة السياحية لا يقع عبؤه كله على عاتق الإسلام والمسيحية فقط ، بل إن هنالك أكثر من هذا بكثير ، إذ أن الإغراء بالانحناء لعبادة قوة عالم الرجل الأبيض المادية كان لا يقاوم . وكما كتب « توماس ديوب » : «لا حاجة بنا إلى الخوض فى التفصيلات

المرعبة لهذا الذل الطويل الأمد . إن هذه المأساة تضمنت الاختفاء الطويل للشخصية الإفريقية ، وهبطت بالإفريقى إلى درجة رجل أدنى ، رجل مستهزأ به » . كيف حدث إذاً أن إفريقيا خلال سنوات قلائل قد خطت هذه الخطوات العملاقة نحو الحرية ؟ ويجيب ديوب « بدأت إفريقيا فى تعلم دروس جديدة فى مدرسة الحياة القاسية ، لقد أعادت اكتشاف شخصيتها العميقة وحاولت أن تعيد تشكيلها ، لكى تواجه مطالب الحياة كما رأتها خلال تجاربها الأليمة ، وفى الواقع كان هنالك (توافق) فى رحلة إفريقيا الروحية المؤلمة خلال العبودية » . ومن كلمات ديوب :

« وقد لاحظت إفريقيا — بالتفكير المستمر فى مصيرها — أن سبب وقوعها فى وقت معين من تاريخها فريسة لقوة أعلى فى إهلاك الحياة البشرية ، هو أنها خلال المراحل الأولى لتطورها المنعزل ، لم يكن يخطر فى خيالها إطلاقاً أنه قد يوجد أى سبب لأن تهتم بتطوير فن القتل والإبادة إلى مثل هذه الدرجة من الكمال ، ولو كان الغرض منه مجرد الحفاظ على سلامة الفرد الشخصية فقط ».

واستتباعاً لتفكيرهم فى طبيعة ومظهر المأساة المتناهية لإفريقيا ، أدركت الأجيال المتعاقبة من الإفريقيين أن العبودية الروحية هى أســوأ أنواع العبوديات إطلاقاً ، وأنها تؤدى إلى تجمد الشخصية . وحاولت الشخصية الإفريقية منذئذ أن تحرر نفسها من التعصب المشوش للتفرقة العنصرية الذى أحاط بها .

وكما أن التجارب البشرية لا نهاية لها ، كذلك تتطور الشخصية بلا توقف وهى تتجه بلا حيدة إلى تحقيق أرقى الاحتمالات لإفريقيا .

وهكذا ازداد شعور المفكر الإفريقى بأن مبالغة ثقافته الروحية فى الاهتمام بالعالم الروحى قد جمدت النواحى المادية : الصناعة والعلوم ، وأهم من هذا قوة المحافظة على السيادة . وعلى هذا إجماع آراء الزعماء الإفريقيين ، فهم يتلهفون على الإقلال ، بسرعة ، من استقلال المجتمعات المطلق

فى إفريقيا والمؤسس على عالم الروح الذى حاول فيه الإفريقى أن يكتشف الحياة .

وعلى الرغم عن هذا يصر هؤلاء الزعماء أنفسهم على وجوب الحفاظ على وجهة النظر الإفريقية التقليدية عن جوهر الحياة التى تقرر وجود قوة معينة تغذى كل الكائنات بالمعانى والأغراض . وبغير هذا ، كيف يكون هنالك أمل فى اكتشاف شخصية إفريقيا الأصلية ؟ ويتساءل المفكر الإفريقى كيف أمكن أن تبقى الثقافة الإفريقية ، وقد واجهت كل هذه الاعتداءات الغاشمة التى انصبت عليها ؟ ما الذى جعل البقاء ممكناً للمجتمعات الإفريقية على الرغم من تسلط الجمود عليها ، وعلى الرغم عن ضعفها المادى المستفيض ؟ كيف أمكن أن يتحمل الجنس الأسود ويبقى مع إذلاله ، ليس فقط فى إفريقيا بل فى جميع العالم الجديد ؟

ويعتقد الآن الكثير من مثقفى إفريقيا أن العثور على الردود على كل هذه الأسئلة ، وحل لغز تحمل الجنس الأسود ، وشرح تصميم المجتمعات والثقافة السوداء على البقاء ، على الرغم من سوء معاملتها الساحق ، سوف يوضح معانى قدسيات وتقاليد وجهة النظر الإفريقية الروحية وظهور الدول الإفريقية الحرة .

ويقترح البعض أن أحجية البقاء الإفريقى ، لا بد أن تعزى إلى عقلية متفوقة ، والواقع حقاً أن الكثيرين يؤكدون أن مثل هذا الاعتقاد أساسى جداً إذ أرادت إفريقيا الآن أن تصل إلى مؤالفة جديدة بين حياتها الخاصة، ومادية الشرق والغرب ، بدون أن تفقد روحانيتها . ويدعون أن الانسجام بين الإنسان والطبيعة ، بين الإنسان وعالم الروح ، لم يميز مجتمعات إفريقيا التقليدية ، فحسب ؛ بل يجب أيضاً أن يبقى القوة الحيوية والمبدأ الأساسى للمجتمعات الإفريقية الجديدة .

ويعتبر ليوبولد سيدار سنجهور ، رئيس جمهورية السنغال ، أحد

الكثيرين الذين حاولوا اكتشاف غوامض هذا التوافق ، وقد كتب : « ماهو التوافق ؟ هو المهندس البناء للكائن ، والحيوية الداخلية التى تعطيه شكله . هو نظام الموجات التى تنقل إلى اهتمام الآخرين التعبير الصافى للقوة الجوهرية . التوافق ؛ هو الصدمة ذات الذبذبات ، هو القوة التى عن طريق الحواس تربطنا بجذور الوجود .

إنه بواسطة رقية العالم المتوافقة ، يمكن أن يستحضر الساحر القوة الجوهرية ، ومعنى هذا هنا ، هو الاشتراك فى الجوهر العالمى ، خلال الجنس ، فى معناه الأساسى غير الحقير ؛ على خلاف التأمل التقليدى فى الشرق والغرب » .

وقد لاحظ الكاتب الأمريكى الزنجى ، صامويل ألن ، علم سنجهور عن التباين الموجود فى الرقصات القبلية — كيف أن الراقصين غير المهمين يندمجون فى انفعال جنسى ، فى الوقت نفسه الذى يشارك فيه الراقص الأول جمال أقنعة الموتى الصارم . ويستمر فى قوله : « إن أثر ذبذبة الكلمة الملفوظة ؛ إذا صاحبتها دفوف الدق ، كما هو الحال فى إفريقيا ، تسبب الاشتراك العام فى القوة الحيوية أو الجوهر العالمى . وتذكرنا هذه بما يقابلها من التصرفات الأكثر فردية وتأملية ، الخاصة بالشاعرين الإنجليزيين ، بليك وفوجان . ومن العجيب أنه كان إفريقياً ذلك الذى منذ بضعة قرون خلت ، عد التأمل الدينى عملية جماعية ، والذى تأثر بالتواتر النغمى لكلمة الله » . ومن الصمت . قال أسقف هيبو (سنت أوجستين) : « جاء صوت الرب ، الكلمة الأولى ، ثم الثانية فالثالثة وهكذا حتى الكلمة قبل الأخيرة ثم الأخيرة ثم الصمت » .

وإذا كان لمجموع ارتباطات المجتمعات الإفريقية التقليدية بعالم « التيم » آثار سيئة ، فقد كان لها — فى المعنى الروحى العميق التوافق مثلا — مزاياها.

وينظر المفكرون الإفريقيون بحدة إلى برود الأساوب الفعلى ووجهة نظر العالم الآلية ، ويرون فيها محاسن كما يرون مثالب . وأهم أسئلتهم ما يلى :

كيف يمكن الحفاظ على روح وجهة نظر التقاليد الدينية الإفريقية التى تؤمن بعقل خالق كلاً من عالم المرئيات والعالم غير المنظور ، حين نستبعد الرعب البشع ، والرجعية الخانقة ، وأهم من هذا كيف تستطيع إفريقيا أن تصل إلى تركيب فلسفى جديد للإنسان والرب والإنسان والطبيعة ، والإنسان والإنسان ؟

ويقول صديقى الإفريقى : « إن هذه الأسئلة محيرة جداً » . وعلى الإجابة عنها ، يتوقف الكثير من مستقبل إفريقيا الجديدة . إن نزاعاً ضخماً يتجاوب فى النفوس الإفريقية ؛ ومن الحكمة لنا أن نرى فى هذا التنازع ما يسميه مالينوفكى : « الشمول السخيف للأمل السامى الذى ما زال أحسن مدرسة لشخصية الإنسان » .

الله فى إفريقيا

« مستمعىّ الأعزاء — السلام عليكم . بالرغم من أنه يلوح أننى قد تأخرت — قليلا فإننى لا أود أن يفوتنى أن أقدم تهانى القلبية بالعيد لكل المستمعين وعائلاتهم وأصدقائهم ، وأقول لكم عيد مبارك . وأدعو الله أن ينزل علينا جميعاً رحماته — آمين .

« وأنتقل الآن إلى الأسئلة : السؤال الأول ورد من السيد/ أولاجيد بكير المقيم ١٠ شارع ينكول بلاجوس » .

والصوت اللطيف الآمر الناطق بهذه الكلمات هو صوت مولاى نسيم صيفى رئيس أئمة الأحمدية ، والمتكلم عن برنامج يدعى « وجهة نظر الإسلام » الذى يذاع مساء كل اثنين من راديو لاجوس التابع لجمعية الإذاعة النيجيرية .

ويذاع على الأقل برنامجان إسلاميان فى كل يوم ، ويزداد العدد مرة أو مرتين عادة كل يوم اثنين وجمعة ، ويرئس هذه الهيئة النشيطة التى تهدف إلى التبشير بالجملة الحاج م . ك أكمود الذى ينظم فى أسبوع واحد برامج تشمل موضوعات متباينة مثل « طريقة الإسلام فى العبادة » ، و « الإسلام والطلبة » ، و « الإسلام والتطور البدنى » ، و « الإسلام دين السلام » ، و « القرآن الكريم معجزة قائمة » وبعض هذه البرامج يذاع باللغة اليوربية ، وبعضها بالهاوسية ، وبعضها بالإنجليزية ، ويستدعى الحاج أكمود إلى مذياع أفريقيا بنيجيريا أعظم المبشرين والأئمة وقادة الفكر فى مجتمع نيجيريا الإسلامى . إن هنالك تشققاً طائفيـًّا شديداً بين المؤمنين المسلمين ، ولكن السيد / آليموند يلم كل الشتات حول مبدئه — مبدأ نشر الدين الذى يدين به ، والذى يدعى أن الهداية مبنية على الأعمال الطيبة أكثر من مجرد

المبادئ فى كل غرب إفريقيا . وهو يتوقع مطمئناً أن يصبح الإسلام الدين الرسمى فى نيجيريا ، وبعدها فى كل أفريقيا ، وذلك يرجع جزئياً إلى أن أسسه بسيطة ، وميسورة ، وعملية .

ولكيما نرى إلى أى حد تظهر تعاليم الإسلام بسيطة ، وميسورة وعملية لمستمعى راديو نيجيريا ، نعود إلى مولاى نسيم صيفى الذى كان بهذه المناسبة، المتحدى غير المتنازع لبيلى چراهام خلال الحملة التبشيرية المشهورة بلاجوس . كنا قد تركناه وهو على وشك أن يتناول سؤالا موجهاً من السيد أولاجيد بكير عن معنى النافلة التى تقال عادة قبل أو بعد العبادة اليومية ، وقد أجاب السيد صيفى :

« النافلة معناها ما زاد على الفرض ، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم : «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

« ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » صدق الله العظيم »[١] .

والواقع أن الحب الصحيح لعمل أى شىء يمكن استنباطه فقط حينما يحاول الشخص أن يعمل أكثر مما هو مفروض ، لأن الالتزام يجب القيام به ولا يمكن التحلل منه ، وعليه فإذا ما قام به فقط فلا يمكن القول بأنه يحبه حقيقة . ولكن حينما يقوم بعمل أكثر قليلا يمكن معرفة اتجاهه معرفة صحيحة ، ويمكن حينئذ القول بأنه يقوم بعمله بمحض رضاه ، وإن مثل هذا العمل هو المجزئ حقاً . وفى الواقع أنه العمل الوحيد الذى يضع شخصاً فوق مرتبة الآخرين . إن النوافل التى يراعيها الأشخاص قبل وبعد

---

(١) من سورة الإسراء ٧٨، ٧٩، ٨٠ وقد كتبها المؤلف باللغة الإنكليزية ، ومن البديهى ألا علاقة لها سواء فى المعنى أو النغم بما هى عليه — المعرب

الصلاة ، وبخاصة تلك التى يقوم بها فى الهزيع الأخير من الليل ، هى وسيلة تلقى بركات الله ، فهى تقربنا جداً من خالقنا .

« وإنى لأود أن أنصح كل إخواننا المسلمين ،وأخواتنا المسلمات ، أن يراعوا جداً النافلة ، وإنهم خلال صلواتهم يدعون إلى انتشار الإسلام واتحاد المسلمين وتمسكهم به فى جميع بقاع العالم ، بارك الله فيكم أجمعين . آمين »

هذه بداية ودودة وسهلة وميسورة ، ولكن ماذا عن الناحية العملية فى رسالةالإسلام . والسؤال الثانى الموجه إلى السيد/ صيفى كان من السيد/إريبيرى مايجون القاطن فى ٣ شارع إيكدى بلاجوس . سأل : « بدأت الصوم فى سن العاشرة ، ولكننى فى فترة من حياتى مرضت مرضاً شديداً كان من نتيجته أننى منذ أن أبللت منه ، لم يكن فى استطاعتى قط صوم كل رمضان ، ماذا تعتقد أنه الحل لمشكلتى مع العلم بأننى أؤدى صلاتى بانتظام ؟ »

« عزيزى السيد مايجون : لعلك تعلم الآن أنك قد أخطأت خطأ فاحشاً بالصيام فى سن العاشرة ، فهذه سن رقيقة ويمكن للبدن أن يصاب بأضرار شديدة من جراء الصيام فى أثنائها .

« ولهذا فإن ديننا العملى جداً يمنع الأطفال من الصيام ، وربما قد سمعتنى كثيراً وأنا أنصح الآباء بأن يمنعوا أولادهم من الصوم ،وعلى أى حال وبما ، أنك قد آذيت بدنك فعلا فإن اقتراحى الوحيد أن تبذل قصارى جهدك لاسترداد صحتك كاملة ، وإلى أن تصبح من القوة كمن فى مثل سنك ، أوكما قد كنت تكون لو لم تؤذ بدنك ، فإننى أنصحك بعدم الصيام ، ولكن أرجوك ألا تقنع بحالتك الراهنة ، فيجب استشارة طبيب عن حالتك واتباع تعليماته لمعالجة نفسك ، وإننى لواثق أنك بمعونة الله سوف تسترد صحتك كاملة لدرجة تمكنك من معاودة الصوم ، وأرجوك أن تكتب إلى ثانية فى العام القادم لتخبرنى عن حالتك ، وسوف يسرنى جداً أن أعلم أنك قد استعدت صحتك كاملة » .

عمليّ جداً ، بل أكثر من ذلك أنه عملى فى صيغة شخصية ، ولكن ماذا عن تكيفه ؟

والسؤال التالى هنا يصدر من السيد/ ب . أ . أجاناكو (ويجدر الملاحظة أنه لم يوجه سؤال واحد من امرأة) سأل : « لقد قررت فى إحدى إجاباتك أن المسلم لا يجوز له أنَ يشترك فى حفلة دفن أحد أقربائه الوثنيين ، لنفرض أن وثنياً توفى فى مكان ما ، وكان جميع أقربائه من المسلمين ، فما هو رأى الإسلام فى مثل هذا الموقف ؟ هل يجب دفنه بدون غسل ؟ أو ما الذى يمكن عمله قبل دفنه ؟ »

« أبداً يا عزيزى السيد/ أجاناكو . لماذا يدفن بدون غسل؟ إن ما يحرمه الإسلام هو القيام بدور فى الاحتفالات الوثنية ، وجثة الميت ، أيّاً كان ، يجب أن تعطى احترامها الواجب ، لقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقف احتراماً إذا مرت جنازة يهودى ، أو مسيحى ، أو حتى وثنى ، إننا لا نكره أو نجافى الشخص نفسه أو جسده الميت ، إنما هى العادات الوثنية ، وعليه فإن القريب الوثنى الذى تتكلم عنه يجب أن يغسل قبل دفنه .

ولكننى يجب أن أعترف أن هنالك شيئاً لم أفهمه . هل هذا الوثنى الذى تتكلم عنه هو آخر وثنى فى العالم بحيث لا يوجد وثنى آخر ليقوم بغسله ودفنه ؟

« أرجوك أن تذكر أن الله تعالى قال فى قرآنه الكريم إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، ونحن الذين نتابع الرسول الكريم يجب أن نثبت أننا رحمة للعالم ، وأنه يجب عدم فقد اللمسات الإنسانية ، بل يجب تطبيقها حيثما كان ، ومع أى شخص ، وإن أكثر الحالات تطلباً للمشاركة فى الأحاسيس هى حالة موت أى شخص ، شارك الناس شعورهم ولا تزوّر عنهم . اللهم ساعدنا على أن نظهر للعالم أننا تابعون حقّاً للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذى كان رحمة للعالمين » .

هذا هو التكيف فعلا ، ولكنه من نوع يختلف تماماً عن ذلك الذى

يصفه المبشرون المسيحيون لطوائفهم فى بلادهم الأوربية أو الأمريكية ، إن ما يؤكد عادة فى مثل هذه التقارير ، التى لا يقصد منها سوى مجرد سرد حديث أن الإسلام يتكيف ، ليوافق عملا أى شيء فى الحياة الإفريقية ، وإن التعبير المفضل هنا هو : « أسس الإسلام الأخلاقية المنحلة ». لقد قرأت اثنى عشر تقريراً مطولا أو أكثر ، مقدمة من مبشرين مسيحيين ذوى خبرة يمثلون طوائف ملية متعددة ، وبالرغم من وجود بعض الاستثناءات ، فإن الأغلبية تقنع بمقارنة أحسن مافى المسيحية بأسوأ مافى الإسلام ، وليست هذه وسيلة لإثارة أذهان الشعوب الغربية عن دور الإسلام السارى فى أفريقيا ، إن هنالك طرقات سارفيها الإسلام فى إفريقيا شوطاً كبيراً ، وهنالك أخرى تهبط الآن فيها أسهمه ، وفى كلا الطريقتين يسير حشد من الوجوه السوداء .

إذا ما تركنا جانباً شمال إفريقيا ومصر – وهى بلاد أغلبيتها الساحقة من المسلمين – وركزنا أنفسنا فى المناطق التى تقع تحت الصحراء الكبرى حيث يتنازع الإسلام والمسيحية ، نجد أن النسبة التقديرية للذين تبعوا الإسلام هى :

الدولة أو مجموعة الدول	نسبة المسلمين إلى السكان
إكوادور الفرنسية الإفريقية (سابقاً)	٣٠٪ من مجموع السكان
إفريقيا الغربية الفرنسية (سابقاً)	٣٤٪ » » »
كامرون البريطانية (سابقاً)	٥٠٪ » » »
جامبيا	٨٤٪ » » »
ليبريا	٢٠٪ » » »
نيجيريا	٢٣٪ » » »
نياسالاند	٩ ٪ » » »
سيراليون	١١٪ » » »
تانجانيقا	١٩ ٪ » » »

إن رب المسيحيين وإله المسلمين يعرضان على الدولة النامية فى إفريقيا فى زوبعة المجتمع المتقد ، ويحكم الإفريقيون من جديد على العقيدتين اللتين كان لهما أكبر الأثر فى حياة الإنسان . وليست المسيحية والإسلام بالأديان الجديدة على إفريقيا ، ولكن الموقف الذى يواجهانه اليوم جديد فى عمقه وعرضه ، ونظراً لانحلال النظام الاجتماعى التقليدى . بدأت الأديان القبلية تفقد قوتها . ولما كانت هذه الأديان مركزة فى قرى فردية ، أو مناطق قبلية ، وبدون أى فاعلية خارج نطاق هذه الحدود ، فإنها أصبحت غير مستطيعة أن تتحكم فى الأعداد المتزايدة من الإفريقيين ، أو أن تؤثر فيهم ، وهؤلاء بدورهم قد جذبتهم الأديان الروحية الأكثر عالمية ، وهنالك من ناحية حنين إلى كيان، إلى معنى ، وإلى تحد لأديان التوحيد العالمية الكبيرة ، ومن ناحية أخرى ، رغبة عميقة للاحتفاظ بالقيم الروحية التاريخية للمجتمع الإفريقى .

والإسلام ، كأحد الممثلين الأول فى هذه المأساة . له ميراث ضخم لثلاثة عشر قرناً من الاتصال بمناطق معينة فى إفريقيا . وهو اليوم يظهر اهتماماً متزايداً بالتبشير ، وفى إفريقيا ، وعدد سكانها يقارب ٢٢٠ ملون شخص يوجد حوالى ٨١ مليون مسلم فى شمال الصحراء ، وربما حوالى ٣١ مليوناً فى جنوبها . ويتركز الأخيرون لدرجة كبيرة فى حزام عريض يمتد من داكار ، وجمهوريات السينغال، ومالى وغينيا ، إلى المناطق الشمالية فى كل إفريقيا الغربية وخصوصاً نيجيريا ، ومخترقاً جمهوريات تشاد والكونغو إلى كينيا ، والحبشة ، والصومال ، وتنجانيقا ، وسواحل المحيط الهندى .

هذه هى القاعدة التى يبدأ فيها التجار المسلمون ، والمبشرون ، والمدرسون ، ادعاءاتهم ، فى حلقات تتسع دائماً ، بأن الإسلام هو دين الرجل داكن البشرة ، وهو أيضاً أخوة عالمية مفتوحة لجميع الأجناس والشعوب ، ومناد إياهم أن « لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

وطبقاً للتاريخ حضر الإسلام إلى إفريقيا فى موجات ثلاث فى أول سنة للهجرة (٦٢٢ ميلادية) وقبل هجرة محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة

إلى المدينة أرسل بعض أتباعه الذين اضطهدوا إلى الحبشة ، رافعاً روحهم المعنوية بوعدهم أن الإسلام سوف يظهر على الدين كله ، وحتى يتضح تماماً أنه دين الحق ، وقبل مرور عشرة أعوام من وفاة الرسول (٦٣٢ ميلادية) كان الإسلام يغزو مصر بقوة . وفى خلال السنوات ٦٦١ — ٥٧٠ امتد الغزو الإسلامى عبر شمال إفريقيا وفى السودان . ومن القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر وجه الإسلام ضرباته إلى الجنوب ، وأنشأ مستعمرات ثقافية فى الإمبراطوريات الإفريقية القوية ، فى غانا وسرنغاى ومالى ، ويلوح أن ذبابة تسى المؤذية فقط هى التى أحرزت تقدماً أكثر خلال البطاح والغابات الممطرة فى الجنوب .

وقامت موجة ثانية فى نفس التاريخ جنوباً على شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وما حل القرن الرابع عشر حتى كانت هناك قلاع للإسلام ، أقيمت على شاطئ إفريقيا الشرق الخصيب كما أقيمت مستعمرات ناجحة للتجارة فى العاج والتوابل والصمغ والعبيد والذهب .

ويبدأ تاريخ الموجة الثالثة من حوالى ١٧٥٠ حتى هذا القرن ، وقد أرسلت خلالها بعثات تبشيرية من السنية المتحمسين للرد على البعثات المسيحية التى أرسلها الكاثوليك للرومان والبروتستانت الذين وفدوا أولا من أوربا ، ثم أخيراً من أمريكا الشمالية .

وقد تغلغل الإسلام فى إفريقيا خلال هذه المدد المختلفة بجماع أربع وسائل حكيمة :

١ — الغزو عن طريق الجهاد .

٢ — النفوذ التجارى للتجار والباعة المتجولين .

٣ — بعثات دعاية سلمية يقوم بها أتباع الطرق الصوفية والمتخرجون من المدارس الإسلامية بالقاهرة وفاس والزيتونة .

٤ — زواج التجار المسلمين والقادة الدينيين بنساء إفريقيات .

وقد وضع الدكتور تراس سترونج أستاذ البعثات الزائر لكلية اللاهوت الاتحادية بجامعة شيكاجو تلخيصاً جميلا عن موقف الإسلام فى المناطق المختلفة بإفريقيا . وإنى أتتبع تحديداته الرئيسية .

مصر والسودان

إن القاهرة وهى تحاول دائماً ازدياد الروابط مع إفريقيا الاستوائية ، تؤكد بحماس ضرورة اتحاد إسلامى عن طريق إذاعتها المنتظمة ، وإرسال مجموعة ضخمة من الأزهريين للتبشير ، وعقد مؤتمرات للإفريقيين المسلمين والخطباء ، وإن تشجيع زعماء المصريين المسلمين للقومية الإفريقية لا يقل عن تشجيع الزعماء السياسيين المصريين لها .

والسودان ، مع وجود ٦,٣٥٠,٠٠٠ مسلم و٣,٥٠٠,٩٠٠ تابعين للديانة القبلية و٤٠٠,٠٠٠ مسيحى ، فى اضطراب مستمر ، فالسودانيون الشماليون الذين تقبلوا الإسلام بحماس شديد استعملوا عبقريتهم فى المحاكاة فى تعديل دين الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبقاً لأهوائهم ضد رغبات رجال الدين ، وكما يقول سترونج « لقد غنوا فيه ، ورقصوا فيه ، وبكوا فيه ، واستجلبوا عاداتهم واحتفالاتهم فيه ، وأدخلوا فيه جوانب كثيرة من الوثنية ، ولكن مع احتفاظهم دائماً بحقيقته الحية من توحيد الإله الحاكم الواحد . وقد أصر القبليون فى معظم بقاع السودان من ناحية أخرى على التعلق بحياتهم الدينية التقليدية ، مقاومين بذلك البعثات التبشيرية الإسلامية والمسيحية على حد سواء . أما الذين اتبعوا الديانة المسيحية على قلة عددهم ، فقد تلقوا تعليماً أكثر ، وهم الذين يكونون معظم الزعامة السياسية .

الحبشة وكينيا وتانجانيقا

ذات مرة قال الإمبراطور منليك : « إن الحبشة جزيرة مسيحية وسط بحر من المسلمين » كما يوجه المثقف ج . ص . ج . س. تريمنجهام من جلاسجو ، الأنظار إلى موقف البعثات التبشيرية ، سواء المسيحية أو الإسلامية ، الدقيق نظراً لوجود كنيسة إفريقية للدولة فريدة فى أثيوبيا منذ زمن بعيد . ولكن لأثيوبيا تاريخ طويل من العلاقات مع الإسلام ، ويحتفظ الكثير من شعبها بمزيج غريب من الروابط الوثنية والإسلامية ، فالمواظبة على الصلوات الإسلامية ، ومراعاة رمضان، وتوجيه المقابر وجهة مكة ، يختلط مع الحلى المعتادة ذات الطابع القبلى التقليدى فى نماذج غريبة مشوشة .

وعلى طول المناطق الساحلية فى كينيا وتانجانيقا جماعات من عرب السواحل الذين يعدون من أقدم المجتمعات الإسلامية وأكثرها تديناً . وكان الأجداد العرب لهذا الخليط الأخوى الغنى ، هم المكتشفين الأوائل لشرق إفريقيا . ويوجد بينهم الكثير من العائلات الأرستقراطية الغنية التى مثلها كمثل بعض العائلات فى نيوانجلاند ، قد جمعت ثرواتها عن طريق الاتجار فى الرقيق . ويعاون عرب السواحل البعثات التبشيرية الإسلامية ، ولكن بطريقة ضعيفة ورقيقة .

ويتركز فى نيروبى ، وسط أماثيل من الثقافة الدينية ، ورغد العيش ، والنزعة الإنسانية المجتمع المنطوى على نفسه ، طائفة الإسماعيلية الإسلامية التى تتخذ من خريج هارفارد الشاب أغا خان الخامس زعيماً روحيًّا ودنيويًّا . ولأغا خان آراء حديثة جدًّا عن قيادة شعبه فى عصر الذرة ، ويعد أتباعه ،ومعظمهم من الهنود ، من أكثر الطوائف ثراء وتقدماً فى إفريقيا .

ولعل أكثر البعثات التبشيرية الإسلامية اندفاعا فى شرق إفريقيا هى

تلك التى تنبع من الأحمدية . ومركزها الرئيسى فى كينيا . ونظراً لنشاط هذا البرنامج الواسع النطاق فسوف نتكلم فيه أكثر فى مجال آخر .

روديسيا وجمهورية جنوب إفريقيا وجمهورية الكونجو وجمهورية إكوارد الإفريقية الفرنسية سابقاً والكامرون .

هنالك ازدياد فى نشاط البعثات التبشيرية الإسلامية فى روديسيا ، ولكن مجموع عدد المسلمين ما زال ضئيلا نسبيًّا . وإن كثيراً من الرجال الذين يأتون إلى شمال روديسيا من نياسالاند ورواند بوراندى للعمل فى مناجم النحاس ، يستحضرون معهم عقيدتهم الإسلامية . وفى العاصمة لوساكا مسجد جديد جميل أشار إليه بفخر سائق السيارة الإفريقى التابع لشركة جنوب إفريقيا البريطانية .

وقد قرر لى بيتر ماثيوز ، من مركز منولو المسكونى ، وهى مؤسسة غير عادية سوف نتكلم عنها بعد قليل ، أن الإسلام ينتشر بسرعة أكثر مما يظن كثير من المسيحيين ، وأنه يجب النظر إليه نظرة جدية .

وفى جنوب روديسيا بنى أكثر من ١٢٠,٠٠٠ عامل من نياسالاند شبكة من الجوامع والمجتمعات . وليس لهم ، حتى الآن ، اتصال كبير بمجتمع منظم من الهنود المسلمين ابتدأ بداية طيبة فى تجديد تعاليم الإسلام فى تعليم الصغار . وقد قال أحد زعمائهم لتراس سترونج ، إنه يرى أن الإسلام هو أقوى رابطة فى حياتهم لضم القوى ، حيث إنهم قلة من الهنود يتقاذفها التنازع على السلطة بين المجتمعات الإفريقية والأوربية .

وتضم ديربان الجميلة واحدة من أقوى الجاليات الإسلامية فى جنوب إفريقيا ،وهذه أيضاً معظمها مكون من الهنود.وفى جوهانسبرج كثير من العمال المهاجرين من موزنبيق والشمال ، مسلمون . وفى كيب تاون جالية قديمة من المسلمين من الملايو (وهم يعدون ملونين طبقاً لتعريف جنوب إفريقيا للون) والإسلام هو القوة التى تجمع هذه العائلة المحصورة . وحيثما يكن فى الاستطاعة ،

يرسل شبان الملايو إلى مصر، أو باكستان، أو البلاد الإسلامية الأخرى ، ليتلقوا تعليماً أرقى .

ولا يوجد سوى مسلمين قلائل فى ليوبولدفيل والمناطق الغربية من جمهورية الكونغو ، لكن فى أماكن أخرى من هذه الدولة الواسعة المستقلة حديثاً ، توجد جيوب من جماعات قبلية ذات ماض طويل فى الولاء للإسلام ، وكثيراً ما يرسل زعماء هذه القبائل إلى تانجانيقا للتمرين فى المدارس الإسلامية .

وفى سلسلة الجمهوريات التى تكون ما كان سابقاً إفريقيا الاستوائية الفرنسية ، قلة نسبية من المسلمين . أما تشاد فهى استثناء ضخم إذ يصل تعداد المسلمين فيها إلى ثمانية وسبعين فى المائة .

وفى الكامرون خضم متلاطم من القوى الدينية ، ويزداد نشاط المسلمين والمسيحيين بصفة خاصة . وكثير من الزعماء لهم عقول مادية ، والولاء للقبيلة ما زال قوياً ، والكنائس المسيحية لها مدافعون إفريقيون ذوو حماس غير عادى. أما فى الشمال — حيث الزعامة ما زالت نظاماً قوياً — فالإسلام بالذات فى عنفه .

داهومى والسنغال

بينما تقدر نسبة المسلمين بسبعة عشر فى المائة فقط من تعداد شعب داهومى ، فإن هنالك علامات على وجود دفعات تبشيرية إسلامية قوية فى قبائل يوربا فى الشرق كما تظهر الجوامع — سبعة فى السنوات الأخيرة القلائل . على أن الحياة القبلية شاقة ، ويلوح أن الإسلام مجرد غطاء سطحى بدون أى اعتقاد داخلى عميق .

ويسود الاعتقاد أن حوالى تسعين فى المائة من تعداد ميناء سنغال الحيوى « داكار » مسلمون . وقد قام أيضاً المبشرون المتجولون بمد سلطة

الإسلام إلى القرى في المناطق المجاورة ، ويظهر أن هناك اتحادا قويًّا غير عادى بين مزاولة الإسلام والأديان التقليدية ، فى حين أن المجموعة الحديثة الاستقلال ليست متحمسة لتشجيع أعمال التبشير المسيحية . وفى الواقع أن الموقف أضحى مثبطاً لدرجة تبعث الكاثوليك الرومان والبروتستانت على أن يتفاهموا جديًّا فى توحيد جهودهم .

غينيا وسيراليون وليبيريا

ليس سيكوتورى ، رئيس غينيا القادر الطموح ، من المتحمسين للهداية الدينية ، ويسود الإسلام بلاده ، وقد زار مكة حديثاً كما يجب على زعيم مثل هذه البلاد ، ولكنه يدعو إلى الاشتراكية المادية ، وقد لاح لمدة جواز قيام حملة تعليمية ضد الأديان، وأهملت الخطط قبل أن تتحقق . وإن أقل ما يقال عن الاعتقاد السائد بأن غينيا دولة شيوعية إنه سابق لأوانه . وتطبق المبادئ الماركسية فى التنظيم السياسى — كما رفعت يد الطوائف الدينية فى أكثر مجالات نشاط الشباب لتوضع فى يد الدولة . ولكن تورى يوضح بجلاء أن أساسه فى الوطنية الإفريقية ليس شيوعية السوفيت أو الصين ، فهو يؤكد ، كما سبق ذكره ، أنه من الصعب جدًّا أن تجد أى شخص فى غينيا لا يؤمن بالرب . وفى غينيا اسم الرب هو الله ، ورسوله المسيطر هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وتعداد سيراليون الصغيرة هو ٢,٣٥٠,٠٠٠ نسمة منهم ٥٨٨,٠٠٠ نسمة مسلمون و ٧٠,٠٠٠ مسيحيون . ويحتفظ أغلب الباقين بالعادات والتقاليد القديمة . ومن الميزات الواضحة فى غرب إفريقيا عموماً ، أن الشخص يمكنه أن يجد مجموعة من الأديان فى عائلة أو قرية واحدة يسود بين أفرادها التفاهم ولا تؤخذ الخلافات الدينية مجالا لاحتداد الشعور . وفى تقرير عن حرية فكر زعماء القبائل الإسلامية كتب ج. سبنسر « أنهم يقيمون عبادات الأجداد ،

ويعضدون الإسلام لدرجة التعصب ، ويشجعون بعثات التبشير المسيحية لدرجة أكبر من مجرد التقدير لنشاطها فى النواحى التعليمية والاجتماعية ، ويحضرون الصلوات فى الكنائس ، كما يكرمون الأعياد الإسلامية . إن كلا من الأديان الثلاثة يملأ ناحية اجتماعية ، ولما كان هناك موالون لكل دين فى كل زعامة قبلية ، فقد كفلت حرية الأديان للجميع . وتنشط حركة التبشير الأحمدية . وقد ساعدت على بناء حوالى خمسة وعشرين جامعاً ، كما أن لها مبشرين شباناً نشطين وقفوا جهودهم أنفسهم لتقدم البلاد روحياً وعلمياً .

وفى ليبيريا يصل تعداد السكان إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة منهم حوالى ١٠٠,٠٠٠ فقط من المسلمين ، وضعف هذا الرقم من المسيحيين ، ويتبع الباقون ديانة السلف . وتتركز الجاليات الإسلامية فى الشمال ، ويوجد جامع فى مونروفيا ، وتعترف بالإجازات الإسلامية ، كما تفعل عملا كل حكومات غرب إفريقيا . ولا تقوم أية محاولات لكبح الأعمال التبشيرية ، وقد نشطت الأحمدية لهداية الليبيريين ، مع أنهم لم يحضروا إلى ليبيريا إلا فى سنة ١٩٥٧

غانا ونيجيريا

إن دستور غانا الجمهورى ، الذى بدأ تطبيقه فى أول يوليو سنة ١٩٦٠ يقرر أنه : « لن يحرم أى شخص من حرية الدين » . القطر وتعداده زهاء ٥,٠٠٠,٠٠٠ يمكن تقدير ١,٠٠٠,٠٠٠ منهم كمسيحيين أو مسلمين ، وقد تكون نسبة المسيحيين ثلثى هذا العدد . وهنالك تاريخ طويل من المقاومة فى غانا للضغط الإسلامى ، مقاومة ترجع إلى عمق جذور معتقدات السلف . ولكن ما حلت سنة ١٩٣٢ حتى كانت الجمعية الإسلامية قد تكونت كمؤسسة ثقافية لتحتضن الوحدة الإسلامية ، ولتبحث إصلاحات تهدف إلى اعتراف أكثر بالإسلام فى النظم القانونية والتعليمية . وقد دخلت فى السياسة لأول مرة

فى سنة ١٩٣٩ بأن ظاهرت مرشحين فى انتخابات بلدية أكرا . وما حلت انتخابات سنة ١٩٥٤ حتى اتسع نطاق مؤيدى حزب الاتحاد الإسلامى فى المستعمرة وفى أشانتى ، ولكن لم ينتخب من مرشحيه الستة عشر سوى واحد فقط . وقد وجد تأسيس حزب الاتحاد الإسلامى معارضة قوية من الدكتور نكروما وحزبه المسمى حزب الإصلاح الشعبي . فالسيد / نكروما يعارض تدخل الدين فى السياسة . ولكى يمنع أى تدخل إسلامى فى السياسة فى المستقبل ، أقام حزب الإصلاح الشعبي مجلساً لمناقشة اقتراحات تأسيس مدارس لحفظ القرآن ، وإدخال القرآن فى المدارس للطلبة المسلمين ، وكفالة وجود أئمة من الحزب فى أكرا . ويلوح أن هذه المناورة قد أفلحت ، إذ لم يقدم حزب الاتحاد الإسلامى فى انتخابات ١٩٥٦ سوى ثلاثة مرشحين لم ينتخب منهم سوى واحد .

ولم يحاول المسلمون فى المناطق الشمالية أن ينظموا أنفسهم سياسيًّا ، ولكنهم ظاهروا جدًّا حزب الشعوب الشمالية ، ومن بين المائة وأربعة مقاعد فى الجمعية الوطنية سنة ١٩٥٤ ، أحرز المسلمون خمسة عشر ، بينها اثنان للأحمدية . وهذه هى بالتقريب نسبة عدد المسلمين إلى التعداد الكامل للشعب . وما زال الموقف كما هو ، فيما عدا نشاط حركة الأحمدية المتزايد . ومنذ استقلال غانا سنة ١٩٥٧ بنى الأحمدية بين ١٥٠ و ٢٠٠ جامع ، وأسسوا مدارس كثيرة . وبالجيش غانا المدرب أئمة مسلمون ، مما يخلق جوًّا من التوتر حينما يصدر الأمر لحضور حفلات رسمية كبناء قبر الجندى المجهول .

وفى سنة ١٩٥٩ أقيم مؤتمر من القسيسين المسيحيين ، وعقد فى الجامعة لتحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين . ومما ذكر لصالح القساوسة أنهم وافقوا على أنه من المفيد جدًّا أن يتقابل المسيحيون والمسلمون ، وأن يتناقشوا ، وأن يحاولوا التفاهم فى جو من الألفة والاحترام المتبادل . وقد ورد فى تقريرهم :

إذا كان المسلمون يعلمون شيئاً عن النظرية المسيحية فإنهم يميلون إلى

الظن بأن تعاليم نظرية التثليث هى وجود ثلاثة آلهة ؛ ومع أن المسألة النظرية لها أهميتها لكنها لا تتطاول أمام واقع العواقب الاجتماعية والأخلاقية والأدبية .

ينتشر الإسلام فى المناطق التى يحتفل فيها بأعياده . والاحتفالات تقام عادة فى المنازل ، لا فى الجوامع ، وتجتذب هذه الاحتفالات الجيران بما فيها من جمال ، وألوان ، وموسيقى ورقص ، وسهولة تميزها . ويأتى الناس ليشاهدوا فينجذبون نحو الدين . ويدعى المسلمون أن المسيحية تفترض قيام علاقة مستحيلة بين الرجل والمرأة ، وتأخذ العلاقة فى الإسلام طابعاً مختلفاً يستطيع الرجل العادى أن يسايره . ويقال أخيراً إن المسيحية تعارض بشدة أى شىء يمت ، ولو من بعيد ، للوثنية ، وهى بهذا تميل إلى هدم الكثير من طرق الحياة القومية ، وتجرف مهتديها مع طرق الغرب العالمية التى لا جذور لها .

أما المبشر الإسلامى فإنه يأتى كإفريقى ، ويترك الشخص الذى هداه وهو ما زال متمسكاً بطريقة حياته الوطنية ، ومع ذلك يقدمه إلى أخوة عمت العالم أجمع .

ويتوقع الدكتور نويل كنج ، عالم اللاهوت المسيحى منذ سنوات عدة فيما هو معروف الآن بجامعة غانا ، للإسلام أن يحظى بمكاسب ضخمة فى غانا فى بضع السنوات القادمة . وقد حدثنى عن مدى نفاد صبره من طريقة الدعاية التى يتبعها المسيحيون تجاه الإسلام . وقال : « إن قليلا جداً من المسيحيين النظريين من يأخذ فى حسبانه الوقع الانفعالى الهائل على رجل حين يذهب ليصلى مع إخوانه المسلمين . إنه فى هذه اللحظة يصبح حقيقة رجلا مساوياً لأى رجل آخر فى أخوة واسعة المدى . هو يخرج من صلاته واثقاً من قيمته مهما تأتى من أمر » .

إن سير أبو بكر تافاوا باليواه ، أول رئيس وزارة لاتحاد نيجيريا ، مسلم ، وكذلك على الأقل ثلث شعبه . وكل الطبقة الشمالية من هذه الدولة ، التى تعتبر أكثر الدول الإفريقية المستقلة حديثاً ازدحاماً بالسكان مسلمة . وقد

يبلغ مدى ارتفاع العــدد الإجمالى من المسلمين فى مجموع الشعب إلى ١٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفى سنة ١٩٤٨ تم تنظيم مجلس نيجيريا الإسلامى ، لتمكين وحدة التابعين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فى الدولة وللتعاون فى نشر الإسلام وتنشيط تقدمه كدين الإنسانية ، والحفاظ على علاقات وثيقة مع المجتمعات المماثلة فى مكة ، والقاهرة ، والخرطوم ، وإنجلترا ؛ وما حلت سنة ١٩٥١ حتى كان قادة المجلس مستعدين لعقد مؤتمر فى مدينة بنين ؛ وقد حضره مندوبون إخوة من سيراليون وغانا وجامبيا . وهناك تقرر تكوين جمعية غرب إفريقيا الإسلامية التى تضم الدول الأربع .

ومنذ أمد طويل أصبح الإسلام قوة متماسكة تصبغ الحياة فى شمال نيجيريا ، ولكن بدء دخوله فى جنوبى نيجيريا حديث نسبيًّا . وقد بدأ دخول قبائل يوروما ، التى تسكن غرب نيجيريا ، فى هذا الدين فى بداية القرن الحالى فقط ، وكان التقدم بطيئاً فى أول الأمر . وكان المبشرون هم تجار الهوسا من الشمال ، الذين يعتقد أغلب اليوروبيين أنهم أسوأ العناصر الممكنة فى الإسلام . وفى المبدأ كان المهتدون قليلين ، وكانوا موضع السخرية ومنبوذين . ولكن الإسلام اجتذب تدريجيًّا ، كما فى عبدان ، أشخاصاً محترمين ، قادة مدنيين ، وتجاراً موسرين ؛ ورحل من الشمال مدرسون عرب ليضيفوا لمسة مهنية إلى تعاليم ووعظ المؤمنين العاديين الذين قاموا بالتبشير فى أثناء أعمالهم .

واليوم توجد مئات من الجوامع فى عبدان ، ويرتفع عدد المدارس الإسلامية باطراد . وتهتم جمعية معروفة باسم « أنصار الدين » خاصة بنشر التعليم ذى الطابع الغربى بين الأطفال المسلمين .

وفى لاجوس ، العاصمة الاتحادية المزدحمة ، يبلغ النشاط الإسلامى الذروة فى كل الأوقات . هناك قابلت الدكتور بابس فافونوا — وقد حصل على

الدكتوراه من جامعة نيويورك » الذى كان مسئولا فى هذا الوقت عن المستخدمين والعلاقات العامة فى شركة إسو. وقد أصبح بعد ذلك عضواً فى الكلية بأنسوكا . وهو يصف نفسه بأنه مسلم بالميلاد والاقتناع ، ولكنه مسلم حر التفكير . ولما سألته كيف يحدد الحرية فى هذا المجال أجاب بأن « المسلم الحر يعتقد فى المثل القديم القائل إن الرجل قد ينام فى الجامع ، ويضرب رأسه فى الأرض فى أثناء الصلاة حتى تصبح عجينة . ولكنه إذا خرج وأصاب زميله الإنسان بضرر فليس مسلماً ».

وقد قال لى إنه قد وافق لتوه على تولى الرئاسة التعليمية فى نحلته : الجمعية الإسلامية ، التى تنظم مدارس ثانوية باطراد منتظم . وكان هو أيضاً مؤسساً ورئيساً للاتحاد الإسلامى فى نيجيريا الذى كان يشارك حملة لجمع موارد للشروع فى برامج ترفيهية وتعليمية للشباب ، تشابه أساساً جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات . وقد أنبأنى بأنه« يوجد تقصير بين شبابنا أكثر مما نحب أن نعترف . وكنا نحن المسلمين ، نعتبر (الأقارب الفقراء) لمدة طويلة لا سيما فى فرص التعليم . فالبعثات التبشيرية المسيحية ، كانت تدير ما يوجد من مدارس . ولم يرغب آباؤنا فى ذهابنا إليها خشية أن نخدع فتتنكر للإسلام . وقد كذبت عامداً عن دينى وادعيت المسيحية ، حتى أتمكن من دخول مدرسة ثانوية ، وكاد هذا يحطم قلب والدى . كان المسلمون النيجيريون ، وبخاصة فى الشمال ، رجعيين فى موضوع التعليم ، ويرهبونه كأداة للكفرة ، ولم يكن لديهم العقل الكافى ليقوموا بأنفسهم بعمل شىء حياله . والآن يتغير هذا ، ويتغير بسرعة ، ولكن ما زال عندنا عدد ضخم جداً من الأشخاص غير المتعلمين والخائبين يتجولون داخل المدن . لقد بدأنا نفعل شيئاً إزاء هذا ، وسوف نفعل أكثر » .

ولما سألت الدكتور فافانوا عما إذا كان يتوقع أن يصبح الإسلام الدين القومى فى نيجيريا أجاب : « إن هذا لا يهمنى فى الواقع ، وأن ما تحتاج

إليه نيجيريا هو العلم الدينى بأوسع معانيه . ويجب أن أقرر أن المسيحيين فى هذه البلد قطعاً أقل تحملا للمسلمين من العكس » .

وأضاف : « أنه من البديهى أن هنالك بعض الاختلافات الطائفية بيننا» .

هذه الخلافات الطائفية تتمثل فى وجود ما لا يقل عن ثلاثة جوامع رئيسية فى لاجوس وثلاثة أئمة ورؤساء أحدهم للمسلمين السنية ، والآخر للأحمدية ، والثالث لجمعية الإسلام التحررى .

الأحمدية : جمعية تبشيرية إسلامية حديثة

ذكرت عدة مرات نسج نفوذ الأحمدية إلى نموذج إسلامى بارز . وتعد هذه بسهولة أكثر الحركات الإسلامية التبشيرية نشاطاً واتساعاً فى إفريقيا الاستوائية . ومع ذلك فجذورها ليست إفريقية على الإطلاق . ولدت الطائفة فى بنجاب ومركزها الرئيسى فى باكستان . وفى أواخر القرن التاسع عشر ادعى مؤسسها ميرزا غلام أحمد ، أنه المهدى المنتظر والمسيح . ولكن المسلمين السنية اتهموه بأنه مخادع ومرتد . وبعد وفاته سنة ١٩٠٨ قامت انفصالية بين من قبلوا ادعاء أحمد بأنه خاتم الأنبياء ، والذين أصروا أنه كان مصلحاً دينيًّا عظيماً لا أكثر . ويمكن أن نجد امتداداً لهذا الشقاق فى إفريقيا ، ولكن أساس دفع التبشير الأحمدى ينبع من الطائفة الأصلية .

وقد وصل نفوذ الأحمدية إلى شواطئ إفريقيا الشرقية والغربية فى وقت واحد تقريباً فى سنة ١٩١٦ . وقد جاءت كحركة إصلاحية ، ونفوذ تحررى لمحاولة التوفيق بين تعاليم الإسلام والتعاليم الحديثة ، وتابعت فى وسائلها مجهودات البعثات التبشيرية المسيحية . ولم يحاول أول المصلين الأحمديين ، وهم مواطنون باكستانيون ، أن يخفوا اشمئزازهم من السحر ، والشعوذة ، اللذين كان يزاولهما كثير من المسلمين ، وقد نادوا بالتشديد فى معاملة الإهمال فى العبادات ، كما قامت دعوات حادة لإعطاء النساء مكانة أعلى فى الحياة الدينية. ومن الغريب

أنه كان هناك تمسك شديد بمبدأ عدم تعدد الزوجات .

وكان السند على نص الآية القرآنية : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » [النساء ٣] وقال المبشرون الأحمديون من الحمق أن ينتظر من الرجل أن يتصرف بعدل مع أكثر من زوجة واحدة .

وفى نظرية الأحمدية ، محمد (صلى الله عليه وسلم) هو أحسن الرسل وأحسن الخلق . والاتحاد الكامل مع الله مستحيل لأولئك الذين لا يعرفونه ولا يعرفون تعاليمه . ومن ضمن العشرة الشروط لعضوية الأحمدية قسم من الطالب بأن يقيم أخوة مع المؤسس أحمد بإطاعة نظامه فى كل ما هو خير .

ويقوم الخلاف الكبير مع المسلمين السنية على مبدأ استمرار الإلهام الإلهى . فالأنبياء ، مثل أحمد ، فى نظر الأحمدية يمكن أن يظهروا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه يلزم أن يكون من أتباعه وممن يحملون خاتمه . ومع ذلك فقد تكلم الله بواسطة رسل آخرين من أمثال زوروواستر وبوذا وكريشنا ، وراما شاندرا ، هؤلاء كانوا رسلا مقدسين يستحقون التبجيل ، فقد قادوا شعوبهم فى طريق الحق .

وقد علم مؤسس الأحمدية مسيحية فريدة ، يجب على الأحمدية الحديثين بواسطتها أن يستثيروا المسيحيين فى المناقشة . لقد صلب المسيح فعلا ولا شك فى ذلك ولكن نظراً لصلاح الجليلى وصدقه أنقذه الله من النهاية اللاذعة على الصليب بأن سبب له إغماءة تشابه الموت . وكان فى هذه الإغماءة حينما وضع فى القبر ، وفى اليوم الثالث استرد المسيح وعيه وقام . وبعد اجتماع سرى أكد فيه لأتباعه أنه حقيقة حىّ ، تجول المسيح فى أفغانستان وكشمير حيث كانت بعض القبائل الإسرائيلية التائهة قد استقرت سابقاً . وفى كشمير مات أخيراً . هنالك فى شوارع خان بار فى مسبر نجاجار يستطيع الزوار أن يروا قبر عيسى المسيح الرسول . ولكن روح عيسى ليست هناك . فقد ذهبت إلى الله كشأن أرواح جميع الرجال الصالحين .

وإن إجابة العالم المسيحى « جيوفرى باريندر » الذى هو عادة مسالم وصبور قد عكست حدة رد فعل المسيحيين على هذا الجزء من النظر التاريخى الأحمدى « إنه من غير الطبيعى أن يعرف أحمد حسن حواريى المسيح الذين عاشوا فى القرن الأول وكتبوا الأناجيل . وقد يكون القبر لمبشرين مسيحيين نسطوريين قدامى ذهبوا إلى الهند » .

ويتألم المسيحيون من وسائل الأحمدية الاعتدائية ، ومع هذا ما زالوا يعترفون مرغمين بأنها حركة أكثر تقدماً وسعة عقل من الطوائف التى يمكن وجودها فى صفوف السنية المسلمين. ويعارض العلماء (الذين تعلموا القوانين الإسلامية) والمعلمون (الأساتذة المسلمون) الذين يتمركزون فى شمال نيجيريا ، بشدة الأحمدية المارقين مع خشيتهم لنفوذهم القوى . وقد أبقت الدعاية ضد الأحمدية حركة الأحمدية صغيرة حتى الآن فى المدن الشمالية الصغيرة . ولكن هنالك علامات ازدياد ميل الفئة المتعلمة إليها . ويظهر صدام من هذا النوع أكثر فى سالتبوند المتدينة وفى مناطق كولونى بغانا وسيراليون . ويوجد تدفق سريع للقوى الأحمدية فى المدن الهامة فى جنوب غرب نيجيريا وقد فرض الأحمدية ضريبة دينية (زكاة) على أتباعهم . ولما كان الكثير من المهتدين تجاراً موسرين ، فإنه توجد موارد كبيرة لدرجة مدهشة تحت إمرة المجهودات التبشيرية ، وبعض هذه الموارد قد وجه بحكمه إلى إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية ، وهى خطوة يميل إليها الشعب الجائع الظمآن لسحر التعليم كثيراً . وخطوة أخرى أكثر تأثيراً هى إنشاء مدارس مختلطة للبنات والصبيان ، وهو بعد كبير عن التقاليد .

وتقف حملة الأحمدية منفردة عن جميع العمليات الإسلامية السابقة فى إفريقيا ، فى استيرادها لدوافع وأوضاع مختلفة تماماً عن الإسلام التقليدى . وإذا كان هذا قد أثار نزاعاً طائفياً ، فإنه جذب أيضاً الاهتمام إلى الإسلام التحررى بين هؤلاء الذين تضرروا من القديم وتحمسوا للاتجاه إلى الجديد . وإن حاكماً مسلماً مستبداً مثل الأمير فى كانو ، العاصمة الإسلامية لشمال نيجيريا ، محافظ لا يتزعزع فى عالم متطرف . وهو مشمئز جداً من مروق

ادعاء أحمد للنبوة ، ولكنه أكثر غضباً من بعض الأعمال الأحمدية الممقوتة كالسماح للنساء بدخول الجوامع للصلاة خلف الرجال وتشجيع العرائس فى حضور حفلات زفافهن لإعطاء موافقتهن . إن الأمير قد اعتاد خضوع المؤمنين للسلطة التى لا تقبل التحدى . وإن قصره المبنى فى القرون الوسطى فى الجزء القديم من مدينة كانو يحكم طبقة هرمية من النبلاء المتقدمين فى السن ورثت ألقابها ودرجاتها وأعمالها من قرون مضت وإن تضمنت الآن كثيراً من واجبات الرياح الحديثة المتغيرة ، ويمثل الأحمدية فى تصميمهم على إصلاح وتجديد القانون الإسلامى تهديداً حقيقياً للسلطة التقليدية ، فبرامجهم الاجتماعية والتعليمية النشيطة غريبة وبغيضة إلى الطباع القديمة .

كل رجل ناشر للعقيدة

إن الاهتمام بالإسلام التحررى قد فاق الآن حتى الأحمدية . يوجد فى لاجوس كما سبق أن أشرنا ليس فقط جامع يوم الجمعة الأحمدى ولكن أيضاً جامع الجماعة الإسلامية ، التى يرأسها رئيس الأئمة الحاج ل . ح . ب . أغسطو .

وقد زرت فى الحى القديم بلاجوس (٢١ / ٢٥ شارع باجبوز) داراً فسيحة واجهتها من مكتبين عاريين غامقين . وفى الخلف توجد ساحة مغلقة يحوطها مربع من المبانى المصيصية ؛ وكان عدد لايحصى من الأطفال يلعب حولى ، كما لمحت امرأتين تختفيان بسرعة خلف بابين يؤديان إلى طابق أرضى . وهناك درج من سلالم خشبية خارجية كانت تئن فى أثناء صعودى عليها لأصل إلى مسكن الإمام الخاص حيث كانت الحجرة الصغيرة الأمامية مكتظة بقطع الأثاث الفيكتورى الضخمة . وتناثرت الكتب والملفات والمستندات كلها فى مجموعات غير مرتبة أو منظمة . وكان الحاج ل . ب . أغسطو قد

استيقظ لتوه من قيلولته ، ودخل من ظلام الشقة الداخلى وهو يرتدى اللباس التقليدى الفضفاض المزركش بطباعة زرقاء . وهو رجل عجوز خشن ، واثق جداً من نفسه ، وقد اشتهر عنه بأنه قد كون ثروتين إحداهما من تجارة العقاقير ، والأخرى من اشتغاله بالقانون .

ورداً على سؤالى الأول : « ما هو رأيه فى مستقبل الإسلام فى أفريقيا؟» بدأ يتكلم لساعة وربع ساعة ، ولم يتوقف إلا ليسألنى ببلاغة بين آونة وأخرى عما إذا كنت قد فهمت . وقد وصف لى كل تاريخه كزعيم إسلامى من سنة ١٩١٠ حينما بدأ العمل فى جامع السنية المركزى . وفى غمرة من حماس أسس جماعة الإسلام الأدبية ، وهى جماعة تناقش أمهات الكتب ولكن بعد ست سنوات من تجارب غير مشجعة مع الأساتذة الرجعيين قرر أنه كان من المستحيل أن يأتى بالعلم والهدى إلى الجامع المركزى وقال : « إن عيسى كان على حق ، إنك لا تستطيع وضع النبيذ الجديد فى القوارير القديمة » .

وحوالى هذا الوقت وصلت الأحمدية إلى لاجوس . واستقبل أغسطو حركتها بسرور واضح وأضحى أحد أوائل مظاهريها . ولما كان متخرجاً فى كلية الصيدلية فقد أنشأ تجارة للعقاقير سرعان ما نمت ، وذهب بمدخراته إلى لندن للدراسة عدة سنوات انتهت بدرجة فى القانون .

ولما عاد إلى وطنه فى لاجوس جدد نشاطه فى الأحمدية ولكن داخله شعور خيبة الرجاء . لقد تقدمت نظرياته التحررية لعدة عقد ، كما أن الادعاء بأن أحمد هو المسيح المنتظر كان غصة فى حلقه . وبينما كان الأحمدية يفعلون الكثير فى ميدان التعليم ، فإنه قد خطر لأغسطو أن اهتمامهم كان ينحصر فى الهداية أكثر من تأسيس نظام حديث للدراسة . وقال : « لاح لى أن المبشرين الأحمديين كانوا يشابهون زملاءهم المسيحيين فى هذا الصدد إلى حد يثير القلق ، كانوا أكثر رغبة فى نشر رأى طائفتهم الإسلامية من احتضان التقدم الإفريقى » ؛

وبعد مضى بعض الوقت انفصل أغسطو عنهم تماماً . ونظم مع آخرين يشاطرونه آراءه « الجماعة الإسلامية » التى هدفها « التعليم ، والتفكير الحديث ، واستعمال العقل ، ومنح إفريقيا الأشياء السامية فى الحياة » .

وبعد أن فرغ من سرد تاريخ حياته الخاصة النشيطة ، حرك جسده الضخم على الأريكة ، ثم مال إلى الأمام مفكراً ، ثم بدأ يتكلم عن الأفق الأوسع .

« إن الإسلام ينتشر بسرعة فى إفريقيا الاستوائية ، وليس لدى دراسات إحصائية لإثبات ذلك ، فلا توجد مثل هذه الإحصائيات . ولكن ما عليك إلا أن تنظر حواليك . بعد أن مكث بيلى جراهام هنا فترة بدأ يتكلم كرجل مرتعب ، كما أن بعض أصدقائنا المبشرين الكاثوليك يرسلون إلى بلادهم تقارير مذعورة » .

وتكلم عن رغبته فى إمكان أن تكون هنالك دراسات أساسية يقوم بها أشخاص لهم قدرة التحديد الإحصائى للمركز الدينى الحقيقى فى إفريقيا . « ماذا يقصد حين يقال إن المسيحية تخسر ؟ هل يعنى أن المسيحيين لم يعودوا يستطيعون كسب أتباع جدد من الشعوب غير المسلمة فى إفريقيا ؟ أو هل تعنى أن أتباعاً سابقين مخلصين للمسيحية ، أو غير مخلصين ، قد تركوا الكنيسة ليلحقوا بالجامع ؟ إذا كان الإسلام يكسب ففى أى المناطق فى إفريقيا ؟ هل يكسب الإسلام فى المناطق التى كان راسخ القدم فيها قبلا ؟ أو هل يتقدم حيثما كان يلوح أن المسيحية قد وطدت أركانها ؟ أو هل هو فى الأجزاء المحايدة ، المناطق الانتقالية بين الشعوب الخاضعة أصالة للإسلام وغير المسلمة ، مثل حزامنا الأوسط هنا فى نيجيريا ؟ هل يتقدم الإسلام فى القرى أو المدن والبلاد فقط ؟ ما موقفه من الطبقة المتطورة أو النخبة الصاعدة ومن الجماعات ذات الدخل الضئيل ؟ هذه هى بعض الأسئلة التى أود إجابة واقعية عنها . وحينئذ نعلم أين نقف وما يجب عمله » .

ومرة ثانية حول أغسطو جسده الضخم وجذب أنفاسه . لقد بدأ يتحمس إلى توقعات كثيرة بغض النظر عن الإحصائيات .

« سوف أقول لك لماذا أعتقد أن الإسلام كسب » فأولا لا تحوط به شبكة من نظام الإرساليات الأحمدية منظمة تماماً كالجماعة المسيحية ، ولكن الباقين السنيين والتحرريين يعملون بمبدأ أن كل شخص ناشر لدينه . إنه يشابه نداءنا السياسى : « للرجل الواحد صوت واحد » ، فالرجل قد يكون محامياً موسراً مثلى ، وقد يكون جاهلا ، أو بائعاً متجولا مفلساً يتجول فى البلاد الداخلية ليبيع بضاعته فى قرى وثنية ، ولكنه ، مهما كان ، رسول الإسلام. وأينما ذهب فى ترحاله فهو يتوقف فى المواعيد المحددة لإقامة الصلاة ، ويلاحظ الشعب ويستمتع ويتأثر » .

وقد سمعت شخصياً عن قصص تروى كيف أن الباعة المتجولين قد أشاعوا الفضول عن الإسلام فى أثناء ترحالهم من بلدة إلى أخرى : فى الأحراش أو مناطق الغابات ، ولكنه كان لغزاً لدى ، كيف أن هذا الفضول قد تركز فى مجتمع إسلامى منظم . وقد أعطانى أغسطو الإجابة : « قد يعجب التجار الذين يحملون بضائعهم أحياناً ببقعة فيستقرون فيها . وفى مدة وجيزة جداً يصبحون من تلقاء أنفسهم أولياء وخدمة للدين . وتنعقد طائفة حول مثل هذا الرجل ليعطيهم تعاليم القرآن . ويقوم بتحديد مساحة مربعة للصلاة بأربع قطع من الخشب . وتزداد الطائفة عدداً بالتدريج وتجذب الشباب رويداً رويداً . وبمرور الوقت يبنى جامع من الطين على المنطقة السابق تحديدها للصلاة ، وبذلك يتأسس مركز جديد للإسلام .

« هذه هى الطريقة التى قد تحدث فى قرية ، ولكنك يجب أن تذكر أيضاً أن الشباب يترك القرى بكثرة فى هذه الأيام . إنهم يسمعون قصصاً مثيرة عن حياة المدن ، وأعتقد أن لكم معشر الأمريكيين أغنية فى هذا الصدد . « كيف تبقيهم فى المزارع بعد أن رأوا باريس ؟ » حسناً إنه نفس الوضع هنا . يرغب الشباب فى التحرر من سلطة الكبار التى تكون جزءاً هاماً من

حياتنا التقليدية كما يريدون أن يربحوا ما لا يمكنهم من الزواج . وعليه فإنهم يتجهون إلى المدن الكبرى ، وتعد هذه لأغلبيتهم تجربة مؤسفة فى المبدأ . فالحياة وحيدة ومرتبكة . هم يعملون ساعات طوالا ،أو يتجولون متثاقلين يبحثون عن عمل . وتنقطع جميع الروابط المتينة مع القرية إذ هم بعيدون جداً عن طمأنينة الحياة الروحية فى القرية . وفى المساء يعودون إلى مأواهم ولا يجدون أحداً يرقصون معه ،أو يتعبدون . ويأتى يوم يسأل فيه شخص : « ماذا تعلم عن الإسلام ؟ تعال معى وألق نظرة » ويفعل ،ليجد نفسه مرحباً به فى جماعة يتعبدون ، ويقولون بقوة كيف أن كل الأشياء تأتى من الله، وكيف أن كل الأشخاص إخوة فى تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم) : ويجد أيضاً أن هنالك حياة اجتماعية فى الإسلام لها تأثير محبوب .هنالك الكثير من الرقص والطبل والاحتفالات والرؤساء إفريقيون مثله تماماً ، وهم غالباً لا يتقاضون أجراً لعملهم الدينى ، ولكنهم يمتهنون عملا آخر يتعيشون منه . وفى مدى قصير جداً يكون فى طريقه للإيمان . وحينما يؤمن لا يشعر بعد ذلك أبداً بالوحدة أو الضياع ، ولايهمه أن يحاول العمل فى أى بلد، فسوف يستطيع أن يجد أستاذاً ليتابع تعليماته ، كما يستطيع أن يجد إخوة يأكل معهم ويصلى معهم ،ويرقص معهم

ودائماً ما ينتقدنا بعض أصدقائنا المسيحيين لأننا لا نتطلب من المهتدين أن يقطعوا أنفسهم كلية من جذور أديانهم القديمة ، ومما يؤخذ علينا الزعم بأنه من المخجل أن المسلمين فى المدينة حينما يعودون إلى قراهم يرتدون بسرعة إلى مزاولة حياتهم الروحية التقليدية . وأخشى أن أقول إن هذا الزعم يظهر نقصاً مخجلا لفضيلتى الصبر والتكيف. أنا أعلم أنك فى استطاعتك أن تنقل نصوصاً ، إسلامية أو مسيحية لنثبت بها كلا الرأيين فى أى مناقشة . ولكن هنالك كلاماً جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين » . ما هو الغنم من دفع الناس بأسرع مما يستطيعون ؟ إن ديناً جديداً يكون تغلغله أحسن ، إذا تغلغل ببطء ، وحينما يحتفظ باحترام كل ما هو قيم فى المثل والمزاولات القديمة ، ومن البديهى أن يكون هنالك حدود

لهذا . ولكن معاملتنا تختلف فى هذا الصدد عن معظم المبشرين المسيحيين . إنى أذهب بين الفينة والفينة إلى القداس كما أحضر كثيراً الخدمات الدينية لطوائف بروتستانتية متعددة ، وإنى لمندهش لقلة ما عندهم من الخصائص الإفريقية. إن التكيف الوحيد الذى يلوح أنه موجود ، هو الضغط على الإفريقيين ليتبعوا شكليات الدين الأوربى . وإن رأيى أن هذه طريقة خاطئة لزرع حركة روحية عميقة فى الأرض الإفريقية ؛ لأن الدين الذى يرغب فى الازدهار فى هذه الأرض عليه أن يتأقلم بإفريقيا .

« وربما تكون قد لاحظت الكتدرائية الكاثوليكية التى تبنى فى مارينا . لقد تعجبت كيف يلوح أن الأسقف قد تعلم قليلا جداً من تجاربه . إنه رجل طيب ممتاز ، ولكن يلوح أنه لم يسأل نفسه قط لماذا ينتقل كثير من الإفريقيين من الكاثوليكية إلى الإسلام ؟ ويعود هذا الإخفاق إلى عدم تفهم استحالة القطع التام الفجائى لماضى الشخص الدينى . إن الشاب الإفريقى ، بمجرد أن ينال بعض التعليم ، يتطلع حواليه لوسائل يثبت بها أنه أضحى رجلا جديداً. وتجذبه الكاثوليكية لموقفها المتعارض مع الوثنية . وبذا يصبح مسيحياً . فهو من ناحية ينفجر بعيداً عن تقاليده ، ويجتمع بآخرين فى مجتمع غريب كلية عن باقى قبيلته أو قريته ، ولكنه كلما تقدم فى السن وجد أن وحدته أقل إقراباً إلى نفسه . ويمنحه الإسلام بديلا ، فلا يحتاج إلى أن يعود ثانية إلى الوثنية ليستعيد شخصيته الإفريقية . ويجد السلام فى دين أسمى يساير الحياة الإفريقية جداً .

ومهمتنا أن نجعل هذه المرحلة من الوثنية إلى الإسلام خالية من البلبلة ما أمكن ، فإن فى الحياة الإفريقية ما يكفى من الاضطراب بدون أن نضيف إليها من عندياتنا . إننا لا نتوقع من الحديثى الإيمان أن يصبحوا قديسين مسلمين ما بين يوم وليلة إننا نشجعهم على أن يتحسسوا طريقهم إلى الواجبات والالتزامات الأكثر شدة ، وكل ما نسألهم أن يعدوا به ، هو أن يكونوا مخلصين فى محاولاتهم أن يتعلموا أكثر عن دين النبى (صلى الله عليه وسلم) وأن يعلموا أولادهم الدين الإسلامى .

« وللإسلام ميزته الكبرى هنا . لم تتشكل نظريته الخارجية بالغرب كما حدث فى المسيحية . إن الهوة بين المسيحية الإفريقية والأوربية ضخمة ، فى حين لاتوجد صعوبة فى الإسلام فى تفهم العقلية الإفريقية . ولقد سمعت المبشرين المسيحيين يقولون إن الإسلام دين لبدو الصحراء ، وإنه يستحيل عليه تفهم سير عقل الفلاح الإفريقى . وإننى أقرر أن الإسلام معد من أكثر من ناحية لتفهم الفلاح الإفريقى ، أكثر من المسيحية الغربية ، بل إن البعض من أحسن الفلاحين لدينا مسلمون .

« ماذا تظن اعتقاد الفلاح الإفريقى فى عدم زواج القسيس الكاثوليكى؟ إن الفلاح الإفريقى لا يمكنه أن يتصور نفسه رجلا كاملا حتى يتزوج . إن اجتماع الذكر والأنثى ، وإنتاج النسل ، وتوافقات العالم الجسدى ، ولا سيما من الناحية الجنسية ، كل هذه لها جذورها العميقة فى الأرض الإفريقية . ويرفضها القسيسون الكاثوليك لأنفسهم ويعطى المبشرون البروتستانت الإيحاء بأنهم يعدونها فاسدة . والإسلام من ناحية أخرى يقدر مشكلة الإخصاب . إن المغريات الجسدية للمرأة والرغبة التى تستعر فى عروق الرجل لا تخيفان المتدين المسلم ، ولا زوجته ، لقد أدارت المسيحية ظهرها منذ زمن طويل لمواضيع الإنجاب ، ولم يقع الإسلام فى هذا الخطأ .

وهنالك كلام كثير عن تحلل الإسلام الأخلاقى . وعادة يعنى هذا إخفاقنا فى أن نفرض على المؤمن حديثاً أن يتزوج من واحدة فقط . صحيح تماماً أن تعاليم الإسلام تقبل تعدد الزوجات . ولكن دعنا نسأل أنفسنا لماذا يشعر الكثيرون من الإفريقيين كما يشعرون إزاء تعدد الزوجات؟ هل لأنهم منحلون أخلاقيًّا ؟ أبداً إن الحياة بالنسبة للإفريقى تدور حول استمرار العائلة . إن فى مجتمعنا التقليدى لا يوجد مكان لامرأة غير متزوجة . إن الكثيرين من الإفريقيين يخشون أن مبدأ الزوجة الواحدة فى إفريقيا قد يترك عدداً ضخماً من النساء بدون زواج مما يؤدى فعلا إلى تشجيع التساهل فى النواحى الجنسية . وإن المركز الطبيعى لحياتنا هو العائلة ، وتعتقد أن تعدد الزوجات هو الوسيلة للاحتفاظ

بالأرامل والبنات داخل نطاق طمأنينة العائلة أكثر من خارجها. وأن كل الفروع الإسلامية الأكثر علماً فى إفريقيا تشجع الزواج بواحدة. ولكن تغييرات من هذا النوع لا تتم بأوامر رسمية. إن التحول عن مبدأ الزوجة الواحدة يلوح منطقياً جداً بالنسبة للإفريقى فى المدينة، ولكنه بعيد جداً عن الصحة فى القرى.

وهذا يذكرنى بشىء آخر. هنالك كثير من اللغط بين المسيحيين لأننا لا نمنع أضحية الطقوس بين من نهديهم. ومرة ثانية هذه حالة من حالات الولاء للقبيلة منذ أمد طويل تنادى بالأضحية كمشاركة فى النفع العام. فالضحية معناها التنازل عن شىء غال. والفلاح البسيط، فى تتبعه سبل آبائه يقوم بلا أى تردد بالتضحية بثروة كمشاركة فى طقوس تغذيه روحياً، أو تشفى مريضه أو تضمن سلامة أولاده. فإذا أضحى مسيحياً لاقى تقطيباً حتى لو كان ما قدم لا يربو على دجاجة. ونحن نخفق فى أن نرى أن هذا التحكم التزمتى يساعد الشخص حقيقة على أن يعيد التفكير فى علاقته بالله.

« إننا لا نميل إلى أن نطالب، باسم الأخلاق، بأوامر تتحدى قدرة الأشخاص المهتدين حديثاً. وإذا كان الكثير من الإفريقيين يفضلوننا على المسيحية، لأننا أكثر ليونة، فإنى أقول إذاً إن هذا لمصلحتنا ولا داعى لأن نعتذر عنه. إن مسألة التكيف طريق ذو اتجاهين. إن الإفريقيين يتعلمون من الإسلام، ولكن الإسلام أيضاً يتعلم من الإفريقيين، من الأحاسيس فى نوع حياتنا. إن أدياننا القديمة ودودة، ودودة جداً، بل خيالية فى صفاتها الإنسانية. ولم تكن الآلهة القدامى كائنات بعيدة متعالية. كانت قريبة وشخصية.

إن الإسلام فى إفريقيا الاستوائية أقل تأملا وبطشاً بكثير عما هو عليه فى العالم العربى. إن له خصائص أكثر أرضية واتساعاً، تعلمها من الحياة الإفريقية. وبهذا يمكن القول إن الإفريقيين قد تلقوا الإسلام وطوروه طبقاً لأذواقهم. « وأقول إن هذا حسن وإنى لسعيد حقاً أن أرى الطوائف المسيحية قد بدأت فى أن تكون أقل مقاومة للتكيف مما كانت. وفى الواقع أننى لا أستطيع أن

أجد شيئاً أقل تعقلا من استمرار الحرب بين المسيحية والإسلام على أرواح الإفريقيين . إن الاختلافات سوف تقوم بيننا دائماً ، ولكن كما وصفها أحدحكمائنا المسلمين وصفاً جيداً إذ يقول : « إن إفريقيا كالمستشفى حيث يموت العجوز ويولد الصغير . وتوجد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأطباء والممرضات لكفالة الراحة وتخفيف الآلام ، والقيام بأعمال التوليد بمهارة ، والرعاية بالمولودين حديثاً . وإننا لنطلب الكثير إن كنا نتوقع أن يصير الإسلام والمسيحية شركاء في هذا ، ولكن ما دام كلاهما مطلوباً فلا داعي لأن يكونا أعداء . إن إفريقيا مكان لقائهما وليست ساحة قتالهما » ..

ويجب إعطاء الرئيس الإمام الحاج ل. ب أغسطو كل الحق في التحيزات التي يحملها . إنه يشايع ويدافع بصراحة وعلناً عن دينه ، ولكنه أيضاً رجل عاقل حر التفكير ، وقد تركت غرفة جلوسه المزدحمة وأنا أشعر أنني كنت في حضرة عقل واسع .

ومن البديهي أن هنالك الناحية العكسية في الإسلام أو ما يمكننا أن نسميه الجانب الإنساني المتطرف ويستحق هذا تأملنا :

مثالب الهلال

إن مثالب الهلال الإسلامي الإفريقي لمما يدعو إلى عدم الاطمئنان . ليس للإسلام رهبان ، متخصصون ولكن له رجال دين (كهنة) — مشايخ . وبين الكهنة في كل الأديان وكل الأزمان أنذال يخدمون أنفسهم ، ويلوح أن المسلمين الإفريقيين قد ابتلوا بنسبة عالية غير عادية منهم ، ولا سيما في مناطق البلاد الداخلية . إن أغلب الكهنة جهلة جداً ، وهم — حتى مع منتهى حسن النية — محرك ضعيف جداً في التطور الفكري للإفريقيين الذين تحت رعايتهم . ومما يبعث أكثر على الإزعاج ، الطريقة التي يقحم بها الكثير من هؤلاء الكهنة

أنفسهم فى مزاولات السحر التقليدية ليحولوها لفائدتهم الشخصية . وقد ذكر رئيس الأئمة أغسطو طريقة البائعين المتجولين فى الاستقرار فى مكان ليصبحوا أولياء فى قرية يهدونها إلى الإسلام . وتفقد الصورة جمالها حين يصبح أحد هؤلاء الكهنة غير الرسميين للإسلام صانعاً وبائعاً للأحجبة الإسلامية لتحل محل أختها الوثنية ، وبارتكازه على الخرافات القديمة يقنع من هداهم بأن أحجبته تستمد قوتها السحرية من الله .

والواقع أنه ربما يقنع الناس بألا يقدموا الأضحية للأرواح القديمة بأن يعدهم الحماية بواسطة سحره الإسلامى ، الذى له من البديهى سعره . والقرويون البسطاء هدف سهل لمثل هذا الباب . ويقوم الولى الإسلامى بعمل أحجبة سحرية عليها كتابة . والمعتقد الإفريقى التقليدى فى قوة الكلمة هو الذى يسبغ على هذه التعاويذ الكتابية جمالها الآسر .

ويظهر بعض هؤلاء الأولياء تطوراً مدهشاً كسحره . ويصف ترمنجهام تعاويذهم بأنها تحتوى على « آيات من القرآن وأسماء الملائكة والجن وصيغ غامضة وجداول سرية » ، والمربوط (الولىّ) وحده هو الذى يستطيع أن يقول متى وأين يمكن استعمالها . بعضها يبطل مفعول السحر الأسود وينكسه على صاحبه ، وبعضها يضر الأعداء وبعضها الآخر يستنزل الرحمة على مستعملها ، بالصحة ، أو الأموال ، أو الأولاد ، أو القوة أيًّا كانت الرغبة .

ويبيع أنذال الكهنة نتاجاً مغريًا آخر بربح ، وهو الماء المستعمل لغسل الآيات القرآنية من ألواح الإردواز ذات الإطارات الخشبية . يعبأ الماء فى زجاجات بواسطة الولى ويباع كدواء . ويمكن شربه أو دهن الجسم به تبعاً للنتائج المرجوة ، وتستعمله بعض النساء لإرغام أزواجهن على طلاقهن ، مما ينتقل بنا إلى وجهة أخرى أقل جاذبية فى الإسلام الإفريقى .

هنالك تضارب غريب فى مركز المرأة التقليدى فى الحياة الإفريقية . فأساسًا مهمة المرأة هى إنجاب الأطفال . ومع ذلك فإن الإفريقيين يذهلون أحياناً حينما يعلمون أن الزوجات الأمريكيات لا يتمتعن دائماً بسيطرة كاملة

على أموالهن . ومنذ فجر التاريخ كان المتوقع من النساء الإفريقيات أن يقمن بالأعمال الثقيلة ، ولهن مركز اجتماعى ضعيف جداً ، كما ليس لطائفتهن سوى نفوذ سياسى ضئيل ، ومع ذلك فإن النساء فى مجموع القرية كن القوامات على العائلة وبالأحرى على الجنس .

وقد وردت التغييرات فجأة وبسرعة . ولم تنس القرية الإفريقية تحرير المرأة ، فرجل واحد صوت واحد يعنى النساء أيضاً ، إلا فى المناطق التى يسيطر عليها النفوذ الإسلامى . هنالك تقاوم قيود الإسلام التقليدية رياح التغيير ، ليس فقط فى المشاركة السياسية ، ولكن أيضاً فى التعليم ، على ما له من أهمية جوهرية فى التقدم .

ويحاول الأحمدية والجماعة الإسلامية بنشاط إعطاء النساء حرية أكثر ، وفرصاً تعليمية أكبر ، ولكن فى مناطق كالسودان ، وزنزبار وشمال نيجيريا ، حيث تتحكم السنية ، تعيش النساء تحت جثام قديم من عزلة وجهل .

وهناك مظهر غريب لدور المرأة تحت النفوذ السنى الإسلامى ، هو التشجيع الذى يعطى للدعارة فى أسواق ومدن إسلامية كثيرة فى غرب إفريقيا. إن عادة إمهار العروس تفرض شدة حقيقية حيثما تستقر التدرجات الإسلامية الاجتماعية الجامدة ، فالرجال فى الطبقات غير السعيدة فقراء لدرجة أنهم لا يستطيعون دفع مهور الزواج . يجب أن يستغنوا عن الزوجات ، وتزدهر الدعارة بناء على هذا الموقف . ولا نعتقد أنه سوف يحدث رد فعل من الكهنة المسلمين ، أو الرؤساء أو الوطنيين عامة إلا بعد أن تصل إلى درجة لا يمكن ضبطها . وأن المظهر المتناقض جداً هو أن هؤلاء المومسات هن — طبقاً لكلمات رجل مراقب — « الأكثر حرية ، والأكثر خبرة ، وغالباً الأحسن تعلماً ، فى نساء غرب إفريقيا المسلمات » . هن يحضرن صلاة النساء فى ملحق الجامع ، ليس لزاماً ليجدن عملاء ، وسوف تجدهن يحضرن مدارس القرآن .

إن القدس الجديدة التى يتطلع إليها الزعمـــاء الإفريقيون المجددون هى مكان تكون فيه النساء شريكات كاملات ، ولسن مجرد شريكات فراش ، أو طباخات ، أو حاملات للأثقال ، أو للأطفال ، أو مومسات متعلمات وهذا يعنى مشاركة كاملة يقاومها الإسلام ويخربها فى كثير من مظاهره الإفريقية[1] .

---

(١) أرجو أن يلاحظ القارئ أن كل « المثالب » التى نسبها المؤلف إلى الإسلام ، هى – إن صحت – مثالب نحو القائمين بنشره ، وليست موجهة إليه شخصياً .

أما فيما يتعلق بمركز المرأة فى الدين الإسلامى فلا شك عندى فى أن المؤلف يجهله تماماً .

ولا يعنى هذا إهمال ما ورد فى الكتاب ، بل العكس هو الصحيح ، إذ يجب أن يوضع المبعوثون الإسلاميون ، المبشرون ، تحت مراقبة شديدة حتى لا يسيئوا إلى سمعة الإسلام .

وجهات نظر المناطق غير المرتبطة فى إفريقيا

هنالك مثل داهومى قديم يقول : « إن الرجل لا يجرى على الأشواك للاشىء ، فإما أن يكون مطارداً لثعبان أو أن يكون الثعبان مطارداً به » . إن أعداداً متزايدة من الإفريقيين ينظرون إلى الالتزام الدينى نظرتهم إلى مهد من الشوك لا يميلون فى الوقت الحاضر إلى الجرى فيه ، فهم لا يطاردون «بحيات» طائفية . وفى المناطق التى يسود فيها الإسلام ، يكون الإفريقيون من هذا النوع مسلمين تبعاً لميلادهم ونشأتهم ، ولكنهم أقرب لأن يكونوا سطحيين من أن يكونوا ورعين . وحيثما يكن الإسلام والمسيحية فى تنافس لجذب الانتباه لهما والالتزام بهما ، فهنالك ميل للنظر باهتمام خفيف لا أكثر .

قال أحد نواب توم مبويا فى نيروبى : « إننى لا أعرف سوى القليل جداً عن الإسلام ، يلوح أنه يكسب ، وربما يكسب لأنه الدين الأحسن . لقد تأثر بعض أصدقائى لأنهم يقولون إن المسلمين يزاولون دينهم ويعيشون فيه ، ليس فقط فى شعائرهم ، ولكن فى الطريقة التى يعاملون بها زملاءهم فى الإيمان ، وفى اتجاههم «اللاعنصرى» وفى حياتهم الاجتماعية وفى شعورهم بكرامتهم الشخصية وهز كتفيه واستمر : « ويشعر الكثيرون أن المسيحية كانت جزءاً من خداع إفريقيا . إنهم يرتابون فى الأديان جميعاً ، ولكنهم أقل ارتياباً فى الإسلام . ولا يعنى هذا أنهم يشجعون الإسلام ، ولكن نظراً لنفورهم من المسيحية ، فإنه لا يعتقد أنهم سرف يقاومون النشاط الإسلامى فى دوائرهم . وفى الوقت نفسه يميلون إلى أن يكونوا أكثر دنيوية فى مواقفهم ، فالانتعاش الثقافى والمصالح الأخرى ذات الطبيعة السياسية والاقتصادية تجذب اهتمامهم بتزايد ، وتقلل حاجتهم إلى التزام دينى ذى طابع رسمى » .

ما السبب فى وجهة النظر هذه ؟ إنها غير متفشية سوى فى جزء من شعب

إفريقيا ، ولكنها واضحة ومعينة : «مداهنة تجاه الإسلام » وعداء تجاه المسيحية .

أولا هناك ارتياب عام وإن لم يكن محدداً تجاه الدين المنظم . هذا النوع من الإفريقيين غير مستريح للدين التقليدى لشعبه . وهو يعلم أن إفريقيا لا تحتكر الخرافات ، ولكن ربما كان لها أكثر من نصيبها فيها . ومع هذا فإن فلسفة الخلاص بعد الموت التى تقول بها الأديان المدعى بأنها الأرقى تلوح له أنها خيالية . إنه يشعر أن الدين فى مدنيته قد تأخر باستمرار علميًّا وماديًّا ، ولكنه حين ينظر إلى بقاع العالم حيث التقدم المادى كان واضح التأثير ، وبخاصة فى الغرب فإنه يجد أن المسيحية تمجد فى حين أن المادية هى التى تزاول . ويكون استنتاجه أن مثل هذه الدول لا تأخذ دينها بجدية، أو على الأقل أن ليس للدين إلا القليل إزاء كدحهم الاقتصادى والاجتماعى. المادية هى طريقتهم فى الحياة ، وإنها تعطى نتائج . والدين نوع من الزغب . هو يعطى نوعاً من الاكتفاء الذاتى ولكن لا أهمية له فى النظام الجوهرى للأشياء .

ولا يعنى التمدن بالنسبة للإفريقيين الذين قد فكروا فى الأشياء على هذا المنوال ، الانفصال عن خرافاتهم المحلية فقط ، ولكنه أيضاً الانفصال عن الدين المنظم عامة ، ويعرب هذا الانفصال عن نفسه بكرهٍ للمسيحية ومحاربة بدرجة أقل للإسلام .

وقد وضَّح لى هذا الوضع رجل ممن ينتمون إلى هذه الفئة ، وهو أبيبيو من شرق نيجيريا ، متعلم تعليماً عالياً بقوله : « بجانب الميول التحكمية للدين الإسلامى أجد أن الرجعية فى المجتمعات الإسلامية من الناحيتين السياسية والاجتماعية لا يمكنها المنافسة مع التجديد . فى نيجيريا قاومت الطبقة الحاكمة فى الشمال الإسلامى حركة الاستقلال ، وكانت امتيازاتها تحميها سلطات الاستعمار . وكان موقفهم إزاء التعليم الحديث فاضحاً . والآن مع الاستقلال بدأت الطبقات الحاكمة فى هذه المناطق الإسلامية تدريجيًّا فى

إظهار بعض التجديد ، على الأقل لدرجة لا يضطرب معها مركزها الاجتماعى والسياسى . ولكن بقى الإسلام لدرجة كبيرة جداً حجر عثرة أمام التقدم فى هذه المناطق الإفريقية حيث كان سائداً . فهو يحمى الطبقات الإقطاعية من مشاركة المجموع فى الحياة السياسية والاقتصادية فى المجتمع . وفى السودان لم تستطع الحكومة المدنية المنتخبة ، ولا النظام الحزبى الحالى ، زحزحة المركز الحصين للمتعصبين الذين يديرون حركة المهدى ، فإنهم مازالوا يقبضون على عنق السودان » .

إذا كان فى هذا عداء فإننا سوف نجده ، فى صفحات قادمة ، لطيفاً نسبياً إذا ما قورن بالمواقف الانتقادية تجاه المسيحية . إن رد الفعل عند هذا النوع من الإفريقيين يهدأ عادة بما يمكن أن يسمى :

حسنات الإسلام

أولا هنالك حسن حظ الإسلام فى أنه لم يكن له علاقة بعناصر حكم الاستعمار ، يتكلم الخطباء المسيحيون بحق عن مباركة القرآن للرق ، وإلى تجارة الرقيق الشائعة اللاهية التى قام بها الغزاة والتجار المسلمون فى الأيام القديمة . ومن الغريب أن تأثير هذه القضية ضئيل جداً من وجهه النظر الإفريقية المرتابة . وعادة تطرح جانباً كإحدى الدعايات المسيحية الاستعمارية التى تهدف إلى الإبقاء على الانقسامات فى إفريقيا . ومثل هؤلاء الإفريقيين سوف يحتجون بأن الإسلام ، فوق كل شىء ، قد أظهر قدرة أضخم بكثير من المسيحية فى مساندة التطلعات الإفريقية .

ومن ناحية العنصر بالذات ، كان الاتصال بالمبشرين المسلمين دائماً شخصياً وحاراً وإنسانياً . وهذا على النقيض جداً من ممثلى المسيحية الذين اتصل بهم الإفريقيون ، والواقع أنه فضلٌ للإسلام أنه لم يقم حواجز

عنصرية سواء فى الزواج أو غيره فى إفريقيا . المؤمنون متساوون إذا تكلمنا عن العنصر ، وهم فعلا كذلك فى داخل مجتمعهم . لم يقم جامع أبداً لهذا العنصر أو ذاك ، أو لهذه الطبقة أو تلك .

ومنذ بداية القرن وجه إدوارد بلايون فى كتابه « المسيحية والإسلام والجنس الزنجى » الاهتمام إلى بعض مزايا الإسلام الرقيقة فيما يختص بالعنصر ، وأشار إلى أنه على عكس المسيحية ، ليس للإسلام تماثيل، لرب أومسيح ،أو ملائكة بيضاء،أو مريم العذراء.ليس له تماثيل ، أو نصب ، أو كتب قصص مصورة، توحى بأن أبطال الخلاص المقدس جميعهم غير سود .

ومع عدم وجود هذا الحاجز النفسانى كان من السهل على الإفريقيين تقبل الإسلام كدين وطنى حقيقى . ولم يتكلم المبشرون المسلمون أبداً عن دفاعهم عن القيم الإسلامية العربية ، «كما تكلم كثير من المبشرين المسيحيين رافعين قدر « القيم المسيحية الغربية » .

وعامل آخر هام هو اختيار الشباب الإفريقى من مدة للتدريب فى القاهرة والخرطوم كمبشرين مسلمين . قبل أن تعطى الجماعات المسيحية أى فرص ذات قيمة للإفريقيين فى رياسة الإرساليات بزمن طويل كان الإسلام ينتشر بواسطة رجال شاركوا الشعوب الإفريقية أحاسيسها الرئيسية ، لأنهم هم أنفسهم كانوا من هذه الشعوب . لقد تدخلوا بدون أية قيود عنصرية أو طبقية . وبغض النظر عن اللون ، فإن الشعور الطبقى ظاهرة شاركها زعماء المسيحين الأوربيين مع مجتمعهم المدنى . إن الحواجز الطبقية موجودة فى الإسلام ، ولكن فى أشكال تقليدية عليا معروفة للإفريقيين ، وفيما عدا ذلك فهنالك روح مشاركة قوية فى المجتمع الإسلامى تضارع مثيلتها فى حياة القرية الإفريقية. وهنالك أيضاً طريق مسنون فى الإسلام لرعاية الفقير شبيه بما فى الحياة القبلية .

وأخيراً وليس آخراً ، جوّر الإسلام نفسه طبقاً للمجتمع الإفريقى ، ولم يثقل كاهل مهتدية بطلبات نابعة من طريقة حياة أجنبية . إنه يفى

بحاجيات مختلفة لمجتمعات متباينة ، كما أن له القدرة على تقوية أواصر المجتمع وأواصر العائلة ، ودستوره الأخلاقى على الرغم من أنه مستبد فى نواح كثيرة — جسر قوى للتجديد . إنه كان حقيقة قوة أخلاقية للطبقات الدنيا ، تساعد الكثيرين ليحيوا حياة كريمة ذات احترام نفسى وسط تغيرات مضطربة . إنه قادر على خلق الولاء فى مجتمع ، والترابط بين جماعة ، متجنباً بذلك الهلهلة التى غالباً ما توجد على أشدها فى الطوائف والملل المسيحية المنافسة ، هذه قيم محترمة فى أنحاء إفريقيا يحترمها حتى هؤلاء الذين ليست لديهم نية شخصية أن يصيروا مسلمين .

ولا يوجد أدنى شك فى أن الإسلام سوف يستمر فى كسب أعضاء جدد من الشعوب الإفريقية فى مناطق إفريقيا المكتظة المتحضرة . إن التباعد والنفور الاجتماعى سوف يزدادان قطعاً ، وسوف يجد الكثيرون راحة من بؤسهم الأرضى فى الإسلام . وسوف يحدث هذا خاصة إذا لم تستطع حكومات هذه البلاد أن تتقدم تقدماً اقتصادياً يؤكد تشغيل الوافدين على المدينة لأن الفردية تحل محل طمأنينة القرابة القديمة والحياة القبلية ، ولأن التطور الصناعى المخطط يتقاعس خلف انتشار الاضطراب الاجتماعى .

ولغالبية الإفريقيين إعجاب متجدد بالإسلام . والواقع أن هذا من أكبر أسباب استمالة الإسلام للملايين الذين لم يتصلوا به قبل . إن أول احتكاك للإفريقيين بالإسلام ، وهو لا يعلم شيئاً عن تاريخه أو نظرياته ، غالباً ما يكون مثيراً . وقد قال لى إفريقى من الطلبة الذين يدرسون فى بوسطن : « إن تعليمنا فى بلدنا أو فى الخارج لا يعدنا إعداداً كافياً لتفهم الإسلام . إن المسيحيين فى إفريقيا مشغولون جداً بحمايتنا من مختلف الآراء ، حتى لا يفسدوا سجايانا الطفولية . وإنى غالباً ما أدهش لجهل العدد الضخم من الإفريقيين المسيحيين بالعالم . إن لهم مقدرة عجيبة فى حفظ الإنجيل حفظاً تاماً ، ولكن فضولهم لا يجاوز هذا الحد . إنهم يحتاجون إلى أن يعاملوا

عن الإسلام ويحتاجون إلى أن يعلموا عن العالم . بالعلم يستطيعون أن يحكموا بأنفسهم » .

إن الإسلام سوف يحكم عليه الإفريقيون المتعلمون على أساس قدرته فى تطوير نفسه لمقابلة الاحتياجات العصرية ، وفى المساعدة فى تطوير الشخصية الإفريقية . وعموماً ، فإنه بالنسبة للمجموع باق ، وسوف يبقى معتقداً مستمراً فى تقدمه ، هلالا لاهياً على قارة مضطربة . ومهما كان شكل مستقبل إفريقيا فإن الله (الإسلام) يلوح أنه مقدر عليه أن يلعب دوراً رئيسياً .

مملكة المسيح فى إفريقيا

إذا ما نظرت ورائى إلى تجاربى فى إفريقيا ، أقول إن من أكثر الإفريقيين الذين قابلتهم شبهاً بالمسيحية ، هو كينيث دافيد كواندا « ثعبان القومية الإفريقية الأسود » فى شمال روديسيا والذى يبلغ عمره ثمانية وثلاثين عاماً . ومع هذا فإن كراندا ليس من أتباع المسيح ، على الأقل ليس بالمعنى الشكلى . إن الذهاب إلى الكنائس المسيحية جزء من حياته الراهنة ، تماماً كصنع الإبر الحادة الطرف ، ولكنه نشأ فى عالم الإرساليات المسيحية ، حيث كان والده اليد اليمنى للمبشر وكانت والدته زعيمة النساء .

ما الذى يجعل شخصاً فى مثل رقة كواندا يبتعد عن حَمَل المسيح لينحاز إلى نمر إفريقيا السياسى ؟ إن أى إجابة زلقة عن هذا السؤال ، غالباً ما تكون خطأ ، ولكن السؤال نفسه يذهب إلى جذور موقف المسيحية فى إفريقيا . ولا يمكن فهم كينيث كواندا كشخصية منفصلة ، إذ أنه رجل وقته وعصره ، نتاج القوى التى تشكل إفريقيا الحديثة .

منذ أكثر من مائة سنة ، جاء دافيد ليفنجستون إلى شمال روديسيا ليفتح طريقاً للمسيحية والتجارة . وفى الاجتماع الثامن للمجلس المسيحى بشمال روديسيا ، الذى انعقد فى سنة ١٩٥٩ ، تبنوا تقريراً جاء فى جزء منه : « إن ما بدأه ليفنجستون بنبل ، يلوح أنه قد نما كثيراً برعاية الله . فى المدينة والأرياف علت كلمة الرب ويشاهد المسيحيون الأوربيون والأفريقيون قوتها وحقيقتها الخالدتين فى أثناء عملهم » .

ويستمر التقرير فى الكلام عن امتزاج مواهب الأوربيين العلمية والفنية

مع عمل الإفريقيين الذى رفع مستوى الحياة المادية للأوربيين ، كما عاد على المستثمرين وراءهم بفوائد مالية ضخمة . والمستثمرون إذ يقدمون مبالغ جسيمة له ، لم تكن ميسرة من طريق آخر ، يحسّنون الناحية المادية لمواطنينا الإفريقيين .

ثم نجد هذه الفقرة المؤلمة : « يجب أن نكون أول من يعترف بهذا ، وأن نشكر الرب على رحمته السخية فى خلق الظروف التى شاهدت هذا التدفق المسيحى ، والتى أتيح فيها وجود قدرات الإنسان الطبيعية ودهاؤه . ولكننا إذ نفعل ، نلاحظ جيداً الجوانب السفلية الخفية المظلمة لجميع مظاهر العمل المسيحى ، كما نلاحظ التقدم الاقتصادى لتيارات التحامل والخوف المتلاحقة التى تجرى بسرعة وعمق فى عقول زملائنا المواطنين . وضغوط القرية الإفريقية (خارج الحدود كما فى داخلها) التى تزداد وثوقاً بنفسها ، والتى تسمم أرواح عدد ضخم من الأوربيين والإفريقيين ، والافتقار إلى علاقة حازمة وواقعية تدعو إلى الثقة والاحترام المتبادلين بين المواطنين الأوربيين والإفريقيين » .

أين مكان كينيث كواندا فى هذا الجانب السفلى المظلم من صدام إفريقيا مع المسيحية والتجارة ، اللتين شق طريقهما ليفنجستون ؟

بالقرب من تشينسالى ، فى أقصى الركن الشمالى الشرقى لروديسيا الشمالية تقع « لوبوا » ، إرسالية الكنيسة الأسكتلندية . وفى الكنيسة الصخرية الضخمة غير المتناسقة فى لوبوا لوحة تذكارية لتصير دافيد كواندا ، أول قسيس بشّر شعب بابمبا فى منطقة لوبوا بالمسيحية لمدة ثمانى سنوات . واصل مواطن نياسالاند الشجاع تزكية قضيته فى عزلة منفردة بين قبيلة غريبة ، وكان نجاحه كبيراً لدرجة أن إرسالية كنيسة أسكتلندة عينت مستر ماكمين سنة ١٩١٣ وكلفته ببناء مركز دائم فى لوبوا .

ورحل دافيد كواندا إلى نياسالاند ليجد زوجة من بين عشيرته « تونجا » ،

وعاد ومعه امرأة تتكلم الإنجليزية بطلاقة ، كما كانت قد دربت فى إرسالية للعلوم العائلية، وولد كينيث ، الولد الثانى، فى سنة ١٩٢٤ ، وهو يتذكر أمه، كامرأة عطوف وإن تكن محبة للنظام ومتدينة بحماس ، وقد أنشأته مع أخية وأختيه على برنامج منتظم من الصلاة الصباحية والمسائية . وكانت رئيسة منزل البنات الداخلى والمدرسة .

ومنذ مولده تمتع كينيث بأفضل ما فى نفوذ الإرسالية المسيحية . وكانت لديه الفرصة غير العادية ، التى نادراً ما كانت مفتوحة لمعاصريه الإفريقيين، وهى أن يبدأ الدراسة فى سن السابعة ، ويتلقى أحسن أنواع التعليم التى كانت وقتئذ ممكنة لأى طفل إفريقى .

وفيما عدا بعض زيارات مأمور المنطقة المقتطعة ، لم ير كواندا إلا قلة من الوجوه البيضاء ، كرئيس البعثة ماكين وطبيبها . وكان والده يتولى إدارة الإرسالية فى معظم الوقت ، حينما كان ماكين يرحل إلى القرى للتبشير . أو حين يكون مشغولا فى ترجمة الإنجيل إلى لغة سيمبا . ولما يكن مقتنعاً بنسخة الملك جيمس ، فقد أصر هذا الأسكتلندى المقدس على النقل من الأصلين اليونانى والعبرى ، كما عانى الكثير ليكتشف من عجائز القرية الكلمات الصحيحة المضبوطة فى لغة سيمبا لترجمته . ولم يكن للدكتور براون أدنى رعاية لضميره فى عمله . كان يسير بلاهوادة فى دوراته الطبية من قرية إلى أخرى . وكانت رغبته فى أن يكون فرداً من الشعب الذى عمل بينه من التمكن لدرجة أنه ترك تعليمات صارمة بدفنه بالطريقة الإفريقية ، أى ليس فى تابوت وإنما ملتفاً فى غطاء . ويرقد قبره فى لوبوا بجانب زميله العجوز دافيد كواندا .

وكانت الحياة فى لوبوا عملية متذبذبة إذا ما قورنت بطرق بامبا الخاملة العادية . فقد أرسلت مؤسسة ناجحة للطوب والإسمنت المواد الأولية اللازمة للتوسع فى عدد من الإنشاءات (كنيسة ومدرسة ومنازل للمبشرين ،

ومستشفى) وجاءت النساء من أسكتلندة للتمريض والتعليم ، ولكن لم يسمح لواحدة منهن بالبقاء إذا كانت لا تبغى ، أو كانت لا تستطيع ، أن تتعلم لغة سيمبا .

وعاش البيض فى « تل المبشرين » فى حين عاشت عائلة كينيث فى منزل قريب من المدرسة ، ولكن لم تكن هنالك أية تفرقة سواء فى العمل أو فى العبادة كما كانت هنالك اجتماعات عائلية بين الطرفين .

وكان مركز ماكمين كسيد واضحاً ، لقد قبله الإفريقيون كرئيس لمجتمعهم ، وطبقاً لأحسن التقاليد الإفريقية كان هو تحت إمرة شعبه .

وقادت مسز كواندا أطفالها نحو حياة مكرّسة لخدمة الكنيسة . وأصبح الولدان وإحدى الفتيات مدرسين ، فى حين انخرطت الفتاة الأخرى فى التمريض بالمستشفى .

كل هذا يستأهل التسطير ، لأن الظروف لم تكن فريدة ، فإن صفات إرسالية لوبوا الحميدة يمكن تطبيقها فى أجزاء كثيرة من إفريقيا . هنالك نواح أخرى لصورة الإرسالية المسيحية كما سنرى ، لكن هنالك وجهة نظر لوبوا أيضاً . ومع هذا فإن كينيث كواندا أضحى لا يهتم بالكنيسة التى تمت فيها تربيته . ومن ناحية أخرى لا يمكن مجرد إسقاطه على اعتبار أنه عاقّ أو على أنه لغز .

لما قام كواندا بدورته فى الولايات المتحدة فى ربيع سنة ١٩٦١ كان المفروض أن يكون ضيفنا فى منزلنا ببوسطن ، ولكن نظراً لبعض التعقيدات فى برنامج رحلته اضطر لاستبعاد بوسطن من نواياه . وبالنسبة لى كانت زيارتى لروديسيا بعد عدة أشهر فرصة للقاء كوندا أخيراً . إن قيادته لحزب الاتحاد القومى الاستقلالى تؤهله فى وضوح لمستقبل سام فى الشئون الإفريقية . ولم تصبح روديسيا الشمالية تعد جزءاً من إفريقيا الجديدة ، فإن أغلبيتها الإفريقية الساحقة ما زال يحكمها أفراد قلائل من البيض المستوطنين ،

والإداريين ، والتجار ، ورجال المناجم ، ولكن إذا اجتاز كواندا الأيام القلقة القادمة فإنه غالباً ما سيكون أول رئيس وزارة أسود لروديسيا الشمالية ، لأن مكانته عالية فعلا بين الأبطال الإفريقيين الحديثين . إنه « أسد روديسيا ومبعوث القدر لإفريقيا الوسطى » .

لوساكا ، عاصمة روديسيا الشمالية الملونة ، لها نزل حقير يدعى (ريد جواى) ، بنى ليستقبل ضيوف شركات التعدين الكبيرة ، والزوار الرسميين ، والتجار الرحل ، وحثالة الأوربيين والأمريكيين . وهناك قابلت كواندا لأول مرة ، ولكن بعد سلسلة من الحوادث كان لها تأثيرها المباشر على مركز المسيحية الحالى فى إفريقيا .

صادف وصولى إلى (ريد جواى) مؤتمراً على نطاق واسع للعلاقة بين الأجناس ، دعت إليه جمعية اتحاد روديسيا الشمالية . كان اجتماعاً فريداً لإفريقيا الوسطى جمع الرؤساء البيض الرسميين ورجال الصناعة وأقطاب المناجم مع المدرسين والمثقفين السود والخطباء القوميين . ولم يكن كواندا حاضراً . وكانوا يتوقّعون وصوله بعد يوم أو اثنين من رحلة سياسية فى المناطق الشمالية .

وقضى حوالى مائة من المندوبين مساءهم يستمعون إلى تلاوة أوراق سبق تحضيرها بعناية عن سوء العلاقات بين الأجناس .

وحضرت العشاء مع جماعة صغيرة ، كان من بينها سياسى أبيض من رجال دولة اتحاد روديسيا ونياسالاندا ، وحتى أعفيه من الإحراج لن أذكر اسمه . لقد شرب كثيراً من الخمر ، وكلما ازداد شرباً ازداد ثرثرة وفحشاً . لقد تكلم أولا عن السود ، ثم أصبحت الكلمة « الغفير » ، وهو تعبير مسىء لكلمة زنجى ، وقال إنه تعب وسئم من الإضرابات الحقيرة التى يثيرها هذا الزنجى الملعون كواندا . وأكثر من ذلك أنه كان يقول إن سياسة الولايات المتحدة تجاه القومية الإفريقية تصيبه بالغثيان . وقد هدر فى بانفجار وحشى وهياج مخمور

قائلا : « إننى أمقت أمريكا » ، وأعقب ذلك مباشرة بأن أكد أنه لا يقصد شيئاً شخصياً « وهل لى أن أتناول . كأساً ؟ » كان مظهراً محزناً لإحدى شخصيات روديسيا الهامة البيضاء ، رجل له مركزه وعضو دائم محترم للطائفة المسيحية .

وكان على المائدة أيضاً مدير المستخدمين الإفريقيين فى إحدى شركات مناجم النحاس الكبرى وهو أسكتلندى . وكلما ازداد رجل الدولة النشوان سكراً ازداد الأسكتلندى مجاجة . وبعد ذلك حادثنى فى البهو بجد زائد . حدثنى عن خبرته لمدة اثنين وعشرين عاماً فى روديسيا الشمالية ، ومعاملاته مع الأهالى . وقال : « كرجل دين قد دعوت الله كل ليلة طوال اثنين وعشرين عاماً أن أتصرف تصرفاً سليماً مع الأهالى ، وبعد اثنين وعشرين عاماً أعتقد أنى أستطيع أن أقول بأمانة إننى أعرف الإفريقى وميوله وماهيته » .

وفى حفل غداء أقامه المؤتمر فى اليوم التالى لاحظت شاباً إفريقياً ، يحمل فى يده صينية الطعام ، ويلوح أنه بغير رفيق . وجلسنا معاً وبدأنا فوراً الحديث عن عمله .

كان يحضر المؤتمر بصفة مساعد محرر فى جريدة تنشرها شركة التعدين التى كان الأسكتلندى رئيساً لمستخدميها . وكان شاباً جاداً ، ذكياً يتكلم بسهولة عن عمله .

ورآنى رئيس المستخدمين وأنا أتحدث مع موظفه الإفريقى ، فأسرع إلينا . وبرعب داخلى راقبت شخصية الشباب تغير نفسها وتتحول أمام عينى . من المحترف الواثق بنفسه ، خفيض الصوت الذى كان يحدثنى عن عمله كمحرر فى جريدة منجم ، تحول فى سرعة البرق إلى تابع نصف أبله ملىء بالابتسامات والتحيات . هذا هو الإفريقى الذى كان يعرفه ذلك الذى صلى اثنين وعشرين عاماً !!

إن رجل السياسة ، ومدير المستخدمين لهما أعمال أكثر مما تسمح لهما

أن يفهما عدم اهتمام أمثال كينيث كواندا بالمسيحية .

إن صبا كواندا فى الإرسالية المسيحية ، مثلها مثل كثير من شبيهاتها ، بها عيب مفهوم ، إذ لم تستطع الكنيسة أن ترغم نفسها على أن تقدم لطلبتها الهيكل الذى تحيا فيه ، أى عدم الاهتمام الدينى للمدنية التى تمثلها ، والواقع الحقيقى من أن المُثل المسيحية عدوة لأرباب الحياة اليومية لعالم التجارة والسياسة الغربى . إن أمثال ماكمين والدكتور براون وقبيلة لوبوا الإفريقية إنما يتعادلون مع المدنية الغربية فقط فى المساحة الواقعة داخل جدران الإرسالية . وخلف هذه الجدران يوجد الاضطراب والوهم . وكيف كان يستطيع مثل كينيث كواندا ، أو آلاف غيره ممن يدينون بمعلوماتهم الأولى عن العالم الغربى إلى مدارس الإرساليات ، أن يعرفوا ، قبل أن يمارسوا التجربة فعلا ، أن القسيسين والكهنة البيض الأوربيين والأمريكيين قد فقدوا من أمد طويل قيادة شعوبهم ؟

وبعد الغداء الخفيف ركبت سيارة خارج لوساكا إلى ضاحية مايترو المتربة النائية والتى تهب عليها الرياح باستمرار . وهى نسيج منبسط من أكواخ المصيص تشابه الصناديق ، ويقطن فيها المواطنون الإفريقيون إذ أن المناطق السكنية للمدينة نفسها للبيض فقط . وفى آخر طريق رملى ينتهى إلى الأحراش ويحترق فى لهيب الشمس ، يوجد المركز الرئيسى لحزب الاتحاد الوطنى الاستقلالى . وهو عشة ذات سطح « متن ومتعفن » . وكان عدد من الأطفال يلعبون أمامه ، وبينما أنا أسير من العربة إلى المدخل بدءوا يغنون أغنية ، كواتشا ، كواتشا « أى الحرية » ، وأكبر الظن أنهم أرادونى أن أعرف أنهم كانوا من أتباع كواندا . وفى حصن القوة هذا الذى يبعث الرعب فى قلوب الكثيرين من البيض فى روديسيا الشمالية وجدت سيكوتووينا ، أحد نواب كواندا الرئيسيين ، وهو شاب طويل ذو جفون ثقيلة وشهرة فى شعوره العميق ضد الرجل الأبيض . وكان هناك صبى فى حوالى السابعة عشرة من عمره ، يحمل فى يده خطابين ، وبحث وينا فى جيوبه

عن مبلغ كاف يعطيه للغلام لكى يرسل الخطابين بالبريد . ولاحظت أنه لا يوجد هاتف ، وأن أثاث المكتب يتكون من مكتبين قديمين وبضعة مقاعد مكسرة وماكينة كتابة صغيرة لنسخ الوثائق .

وأخبرنى وينا أن كواندا لم يعد بعد من الشمال ، ولكنهم يتوقعون حضوره فى أية لحظة ، وقلت له إننى سوف أكون فى فندق ريديجواى . ثم تحادثنا فترة عن أخ وينا الأصغر ، الذى يدرس فى الولايات المتحدة . وتركته ليستقبلنى الأطفال بمزيد من أغنية كواتشا .

وفى اليوم التالى فى الساعة الخامسة مساء ، طرق الخادم باب حجرتى بالفندق مقرراً أن سيدين فى انتظارى فى القاعة وهما وينا وكواندا . كينيث كواندا إفريقى وسيم جميل التقاسيم بشرته داكنة جداً ، وعيناه بنيتان ، وله ابتسامة لطيفة وتصرفات رقيقة تكاد تصل إلى حد الخجل .

وكان لقاؤه حاراً ، واعتذر عن مظهره إذ كانت سترته الجلدية البنية ما زالت مغطاة بتراب الطريق . وكان قد عاد تواً من رحلته ، وأتى لرؤيتى قبل العودة إلى منزله للاغتسال .

وذهبنا إلى قاعة الجلوس ، حيث طلب كواندا لبناً ، فى حين طلبنا أنا ووينا قهوة ، وقد روض كواندا نفسه بشدة على نظام حياة دقيق ، فهو لا يشرب ولا يدخن ، كما أنه نباتى . وهنالك لمسة من اللون الرمادى فى شعره الأسود الذى يمشطه مستقيما على الطريقة السواحلية .

وحدثنى عن رحلته الطويلة الشاقة فى مناطق الحدود المتاخمة للكونجو . وقال لى إن الشعب كان يفيض عرفاناً بالجميل لاستقلال الكونجو . وقد اخترعوا كثيراً من الأقوال عن الاستقلال على الجانب الآخر من النهر ، فنصف النهر حر والنصف الآخر غير حر ، والسمك حرّ فى نصفه وغير حرّ فى النصف الآخر — وهم يقولون إن جنود ولينسكى قد أرسلت إلى الحدود لإطلاق الرصاص على الحرية وهى تعبر النهر .

وبينما هو يرتشف لبنه المثلج كان يتكلم عن الجماهير التي استقبلته . وقال : « مرة إثر أخرى كان يتجمع عشرون ألفاً أو يزيدون . وكانوا أحياناً ينتظرون قدومى لبضعة أيام . هنالك مصاعب ، فقد فسدت السيارة أكثر من مرة ، ولم أستطع أن أحافظ على البرنامج ، ولكن الجماهير كانت ما إن تتجمع من القرى المجاورة حتى تنتظر . ولأول مرة ساعدنى بعض المبشرين ، جميع أنواع المبشرين ، كاثوليك وإنجيليين وأتباع كنيسة أسكتلندة . لقد ساعدونى فى تنظيم خطبى للجماهير فى بعض الأماكن ، كما ساعدوا على تنظيم تسهيلات لغذاء الجماهير فى أماكن أخرى .

وقد رجوت الجماهير فى كل مكان أن يخلدوا إلى الهدوء وأن يستبعدوا العنف فى التفكير والحديث والعمل ، وألا يقوموا بأية خطوات حمقاء .

وسألته : « هل تشك فى مدى سلطتك على شعبك ؟ هل تشك فى قدرتك على منعهم من أعمال العنف ؟

وأجاب : « أجل ، أشك » ، وظهر عليه التعب الشديد فجأة .

حينما كان كينيث كواندا فى الثانية والعشرين ، كانت لديه أعلى المؤهلات الدراسية التى كان يمكن فى روديسيا الشمالية أن يحصل عليها إفريقى فى هذا الوقت . كانت لديه شهادة تدريس وشهادة اجتياز من الدرجة الثامنة لامتحان مدرسة « موالى الثانوية » . وعاد إلى لوموا ليقوم بالتدريس لصبية المدرسة الداخلية ، حيث أصبح دفعة واحدة اليد اليمنى للمبشر ، تماماً كما كان والده ، وسريعاً ما أصبح الناظر . وكان يمكن أن يقضى حياته بهذا الوضع . وبدلا من ذلك مكث سنة واحدة فقط ، ثم قرر أنه قد حان الوقت ليوسع خبرته عن العالم .

واتجه إلى الحزام النحاسى (كوبربات) حيث وجد عملا كمساعد اجتماعى فى مناجم تشانجا . وقد قال إن سنة ١٩٤٧ كانت أكثر سنة حاسمة فى حياته . لأول مرة جرح نفسه بصدامه مع حاجز اللون، وكانت

تجربة مريرة . وجد نفسه فى وسط أوربيين لا يعاملونه ككائن بشرى مثلهم ولكن كزنجى وكفير(١) .

وكان داوتى بامبا قد كون فى سنة ١٩٤٦ جمعية الشئون الاجتماعية الإفريقية التى أصبحت بعد ذلك أم المجلس الوطنى الإفريقى . وأصبح كواندا عضواً فى اتحاد نشانجا الاقتصادى المحلى، وبدأ تجربة جديدة .

لقد سمع أشخاصاً من جنسه يناقشون السياسة بجدية . وكانت بضعة أشهر فى نشانجا كافية . وعاد كواندا إلى التدريس وعين ناظراً لمدرسة موفوليرا . وحينما تكون المجلس الوطنى الإفريقى سنة ١٩٤٨ ، كان من أوائل الذين التحقوا به ، وبسرعة استغرق نشاطه السياسى كل وقته . وللمرة الثانية استقال من التدريس وحزم حقائبه وعاد ثانية إلى المنزل . كان يريد أن ينشئ لنفسه نوعاً ما من العمل وأن يبنى لنفسه أساساً سياسياً .

ورحبت به والدته فى منزله ؛ وأصبح تاجراً فى الملابس المستعملة التى كانت وقتئذ موجودة بأسعار زهيدة جداً فى الكونغو البلجيكية .

كان يركب دراجته ثلثمائة ميل من الأحراش إلى حدود الكونغو ، ويشترى بالات من الملابس المستعملة ، ويعهد بها إلى سيارة نقل ثم يقود الدراجة عائداً إلى لوبوا فى وقت كاف ليفرغ بضاعته حينما تصل سيارة النقل . وإن قدرة عضلات الأرجل والرئتين التى بنيت من جراء هذا التمرين المدهش قد ساعدته إذ قاد دراجته بعدئذ فى كل المناطق الشمالية حينما كان ينظم فروعاً للمجلس الوطنى الإفريقى . إن قدميه على الدراجة بعض مؤهلاته كزعيم .

وفى هذا الوقت كان انفصال «كواندا» من المسيحية قد بدأ . اصطدم

---

(١) كلمة هولاندية الأصل معناها زنجى من جنوب إفريقيا ، وتؤدى أحياناً معنى محدوداً عن أفراد من قبائل الشعوب المتكلمة بلغة البانتو من جنس « نجونى » .

بحدة مع أصدقائه الإرساليين القدامى فى لوبوا فى موضوع اقتراح ويلنسكى بعمل اتحاد بين روديسيا الجنوبية ونياسالاندا وروديسيا الشمالية ؛ وفى خطاب كتبه إلى رئيس الإرسالية نقل ما كتبه برناردشو فى كتابه « رجل القدر » :

« حينما يريد رجل إنجليزى سوقاً جديدة لبضائعه الفاسدة ، التى صنعها فى مانشستر ، فإنه يرسل مبشراً لتعليم الأهالى « بشارة السلام » ، ويقتل الأهالى المبشر ، فيهب الإنجليزى إلى حمل السلاح دفاعاً عن المسيحية ، ويحارب من أجلها ، ثم يستولى على السرق كمكافأة من السماء » .

« إذا كنت تنوى خدمة الحكومة البريطانية بالطريقة التى وصفها شو ، فلقد أتيت فى الوقت غير المناسب . لم يقتل أجدادنا أحد الأوربيين فى المحمية ، وسوف نتأكد من أننا لن نقتل أى أوربى ، مبشراً أو غير مبشر لأسباب سياسية ، كلا لن نفعل ذلك — أيها السيد الموقر . عظ كيف شئت فإننا سوف نناضل من أجل بقاء أمتنا فى نطاق المفهوم البريطانى للنضال . إننا لا نناضل ضد الحكومة البريطانية وإنما ضد قضية الاتحاد» .

وما حلت سنة ١٩٥٣ حتى اعترف الجميع بأن كواندا هو ساحر تنظيم المجلس الوطنى الإفريقى . وبصفته سكرتيراً عامًّا طالب بمقاطعة أسواق اللحوم ، لأن النساء الإفريقيات كن يُطالَبن بالوقوف فى صفوف خارج فجوة فى الجدار فى حين كانت السيدات البيض يخدَمن فى الداخل عند الخزانة . ولما قبضت الشرطة على بعض النساء اللائى اشتركن فى الاحتجاج ضد التمييز العنصرى ، أقسم كواندا ألا يأكل اللحم مرة ثانية أبداً . ولم يأكله .

وقد تضمنت السنوات منذ ١٩٥٣ ، قضاء مدة فى السجن « لإحراز منشورات أعلنت الحكومة منع قراءتها » ، وكان من ضمنها بضعة كتب عن حملات غاندى السلمية ، وزيارة إلى بريطانيا لحضور مؤتمر الكرمنولث

الذى عقـــده حزب العمال ، ومرض صدرى غامض ، ورحلات إلى تانجانيقا ، والهند وغانا حيث أمضى بضعة أشهر فى دراسة طرق النشاط الثورى بغير وسائل العنف .

وقصة انفصال كواندا عن المجلس الوطنى الإفريقى وتكوينه أول « مجلس زامبيا » ثم حزب الاتحاد الوطنى الاستقلالى ، يحسن أن يرويها آخرون غيرى . إن كينيث كواندا ، كرمز لورطة المسيحية فى إفريقيا ، أصبح ظاهرة مستقرة . إنها ورطة رؤية عديد ممن هم من أكثر نتاج الكنيسة موهبة ، رجالا ونساء ، هؤلاء الذين منحوا أنفسهم بثقة كاملة فى مبدأ الأمر لناشرى الإنجيل فإذا هم يعانون من وهم كبير . وأساس هذا الوهم أن الكنيسة ، فى تعقيدات مجتمع متغير ، لا تملك القدرة لكى توازن القوى فى العالم المادى . ويضاف إلى هذا أن الجزء « الغربى من الكنيسة يميل إلى تحيز ، بغير حدود ، لنظريات ومصالح المجتمع الغربى ».

قواعد ارتكاز فى أرض قلقة

فى وسط كل هذا الوهم والرجعية والعداء الفعلى ، ما تزال تبزغ حقيقة متناقضة فى كل إفريقيا الاستوائية ، إذ يدعى واحد من كل عشرة من مجموع التعداد أنه مسيحى ، وأن الذين يتنبئون بنهاية المسيحية الإفريقية فى خضم تحقيق الاستقلال والمحافظة عليه ، ربما يكونون قد تعجلوا جداً إهمال ما لعقيدة قوية من وعى وطبيعة خلاقين . إن موقف إفريقيا هو أحد التحديات الضخمة للكنيسة ، ويصفه جون فرنون تايلور ، فى كتابه « المسيحية والسياسة فى أفريقيا »،بهذه الكيفية : « فى وقت يتحرك الناس فيه فى تيارات من الأحاسيس ، ويصارعون مشاكل معقدة ، فى وسط توترات متزايدة ، ويضعون أسس مستقبل الأمم، فإن المطلوب من الكنيسة أكثر من أى وقت ، أن تعلن كلمة الله ، وأن توضح طريق المسيح ، وأن تفرض رفقتها الحانية لبرء الأمم » .

تكلمت سابقاً عن المرحوم الأسقف داجادو ، الزعيم الميثودستى الغانى ذى القلب الكبير . كان قد أتى إلى غرفتى فى « الأمباسادور » ليودعنى قبل أن أرحل عن أكرا . وكان يرغب فى معرفة انطباعاتى عن الشعور الدينى فى غانا . وقلت له إنه كان من العسير أن يجد المرء قادة غانيين فى السياسة ، أو المهن ، أو الفن متحمسين للكنيسة .

وهبط داجادو ، وهو رجل ضخم الجثة ، فى مقعده حينما كنت أسر له ببعض مقابلاتى . وامتلأت عيناه البنيتان بالدموع ، وسألنى : هل أسمح بأن أنضم إليه فى صلاة ؟ وفعلت . وأخذ نفساً عميقاً بعدئذ ، ومسح وجهه المبلل بمنديل وابتدأ يتكلم . كان كأنما يتحدث إلى نفسه وإلى

العالم . كانت فى صوته رنة فخمة مبهمة . وكانت مناجاة عن كيفية قضائه لحياته ، والهدف الذى قضاه من أجله . كان فى هذه اللحظة صوت إفريقيا مجسداً .

« إننى أذكر حينما سجنت السلطات البريطانية الدكتور نكروما — أن الناس كانوا يغنون :

«إن جسد كوامى نكروما ملقى ليتعفن فى السجن ، ولكن روحه تسير خارجه . » تسير خارجه من ماذا ؟ من المسيحية ؟ إن غانا لا تستطيع أن تسير خارجه من المسيحية بدون أن تسير خارجه من روحها . إن الكنيسة فى غانا هى التى أخذت على عاتقها مسئولية تعليمنا حين لم تهتم قوة منظمة أخرى بأن تفعل ذلك . إن الكنيسة فى غانا هى التى غذت روحياً أجيالا من رجالنا ونسائنا ، شباناً وبنات ، فى الكتابة والقراءة ، فى الأخلاق والسلوك ، والزراعة ، والإدارة ، والتنظيم . إن الكنيسة فى غانا هى التى رفعت كل هؤلاء الرجال الذين هم الآن سياسيونا ، ومدرسونا ومحامونا .

« ولست أعنى كنيسة معينة بالذات . كل الكنائس الميثودستية والكاثوليكية والإنجيلية ، والبريسباتيرية ، والمعمدانية ، وجيش السلام — كلها ساهمت ، بالمدارس والمستشفيات ، وتدريب الممرضات ، وأماكن العبادة ، ومراكز الأبراشيات للمرضى ، والمتعبين ، والمحتاجين والعميان . كل هذا جاءت به المسيحية إلى غانا . ولكنها جاءت بشىء آخر أثمن وأنفس . جاءت بتعاليم الحب والولاء للرب . وبالحب والاحترام للإنسان . جاءت بالمسيح لتحقق وجود الله فى حياتنا .

« والآن هؤلاء البروميثيون ، زعماؤنا ، الذين يدينون عدلا بكل ماهم عليه إلى الكنائس التى علمتهم . من أين يظنون أنهم استقوا أفكارهم عن الحرية والمساواة والتقدم الاجتماعى ؟ من أدخل هذه الأفكار إلى

غانا ؟ من ساعد في أن يخمد الحروب القبلية وغارات تجار العبيد ؟ من أعطانا عقيدة عامة قادرة على توحيد عشرات القبائل ، وعشرات اللغات ، ومئات الآلهة في أمة واحدة ؟

« إن كل ما نسميه الآن تقدماً في إفريقيا ، إن هو إلا نتاج مباشر أو غير مباشر للمسيحية . إنها المسيحية التي أشعلت النار في كل إفريقيا . إنها المسيحية التي منحتنا مستويات جديدة للحياة ، قيماً جديدة ، وإحساساً جديداً باحترام لوننا وجنسنا .

« إن كل هذا الحديث عن الكنيسة والاستعمار يمرضني . هل أنا مستعمر؟ هل يقول لي أي شخص في لندن أو نيويورك كيف أدبر أعمالي كأسقف ميثودستي ؟ إنني غاني ، إفريقي . والكنيسة الميثودستية في غانا كنيسة إفريقية إننا ندبر أنفسنا بأنفسنا ، ولدينا اكتفاء ذاتي مثل حكومة كوامي نكروما .

« ما الذي حدث لهؤلاء الأشخاص الذين يعيبون الكنيسة ؟ ألا يرون أن كل ما يدمغون به الكنيسة يمكن أيضاً اتهام الدولة به . إننا جميعاً قد مررنا بمرحلة الإرسالية في نقطة أو في أخرى . إن المبشرين حضروا لهدايتنا إلى طريق مسيحي في الحياة . وكثير منا اهتدوا فعلا ، وفي السبيل اكتشفنا شيئاً بأنفسنا ، اكتشفنا الحرية والعدالة . اكتشفنا كيف ننظم حياتنا ، وكيف نسير شئوننا بالطرق الحديثة . اكتشفنا كيف نخلق عالمنا الخاص .

« حقيق أن كثيراً من المبشرين كان ينقصهم تفهم الشعوب الإفريقية ، ولكننا لم يعد لدينا كنائس إرسالية في غانا ، ولدينا كنائس إفريقية ؟ إن لدى المدنية الإفريقية رسالة للمسيحية تماماً كما لدى المسيحية رسالة لإفريقيا . وقد حاولت طوال حياتي أن أجمع بين الرسالتين . والآن ،

حينما أصبح الوقت مناسباً ، فإن كثيراً من هؤلاء الذين يستطيعون تقديم أكبر المساعدة هم أقلهم ميلا لتقديمها . إنه مرقف مؤلم ، ولكن المسيحية نفسها قد بنيت على أساس مأساة صليب المسيح . لقد انتصر ، ولسوف تنتصر الكنيسة الإفريقية » .

ونهض داجادو ، وقبض على يدى اليمنى بكلتا راحتيه وقال : « إننا فى حاجة إلى صلواتاك » وما غادر الغرفة حتى لاحظت أننى كنت أرتجف من حدة كلامه ، ومات بعد بضعة أشهر . لقد كان يمثل شيئاً كبيراً فى حياة غانا . ولم تمت غانا .

ولا يستطيع الشخص أن يتصور اختفاء المسيحية من الحقل الإفريقى إذا لاحظ نشاطها فى مركز ميندولو المسكونى . كنت فى احتياج إلى زيارة لميندولو لأيام قلائل فقط قبل أن أجد نفسى فى وسط شغب ملعون فى سالسبورى :

قبل الفجر تماماً ، وبدون إنذار ، اقتحم رجال شرطة روديسيا البيض منازل الإفريقيين ، وقبضوا على زعماء الحزب السياسى الإفريقى الخالص الوحيد ، فى روديسيا الجنوبية . كانت سياسة الحزب الرطنى الديمقراطى ، حتى هذه اللحظة ، حازمة فى الوطنية ، ولكن مع كبح واضح للجماح . وكان الزعماء قد التمسو اجتماعاً مع رئيس الوزراء ، سير إدجار هوايتهد ، لمناقشة مظالم الأهالى . وكان الرد هو القبض عليهم .

وكان رد الفعل فى مناطق سكنى الإفريقيين المنعزلة فى المدن سريعاً وقوياً وتاريخياً ، لأول مرة فى روديسيا الجنوبية ، تظاهر الإفريقيون بطريقة نظامية . على أنهم فعلوا ذلك بطريقة مرتبة وملهمة وسلمية إلى أقصى الحدود . وكنت هناك أحد خمسة رجال بيض ، لأشاهد وأعجب لنظام اجتماع تكتلات أهالى هايفيلدز ومسيرة الاحتجاج .

وكان رد الحكومة على أهالى هايفيلدز أن استدعت الجنود والدبابات

وشرطة النجدة ، وكل احتياطى الشرطة المتاح . وأصدر مجلس الوزراء سلسلة من تحذيرات مشددة على اجتماعات الأهالى مظاهراتهم . واستمر المرقف من هذه اللحظة فى التدهور .

وما بين يوم وليلة ؛ أصبحت مدينتنا هايفيلدز وهارارى الإفريقيتان مسرحاً للشغب وسفك الدماء، وراوغت فى طريقى الحجارة، والغاز المسيل للدموع ، والمعارك الوحشية فى هارارى ، وذعرت من روح البشاعة المجردة التى نمت بين الطرفين ، وقبل أن تنتهى كان البيض ذوو الأزياء الرسمية ، لأول مرة فى تاريخ روديسيا الجنوبية الحديث ، قد أطلقوا النار على الإفريقيين وجرحوا وقتلوا منهم .

سالسبورى مدينة أنيقة ، حديثة ، مدينة الرجل الأبيض ، وتقوم بخدمتها كنائس مسيحية فخمة . واتصلت تليفونياً بقسيس الطائفة ، المحترم ا . ا . تراسل ، لأسأله عما يعتزم زعماء المسيحيين فعله بخصوص الشغب . وقال لى إنه سوف يجتمع مع بعض زملائه فى الصباح التالى لمناقشة المرقف ، وسألته عما إذا كان فى استطاعتى الحضور . وقال إنه سوف يستشير الآخرين ، وإنه سوف يحضر ليأخذنى فى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى .

ولما وصل، كان الاضطراب بادياً عليه، وقال إنه كان هناك اعتراض على أن يحضر « دخيل » الاجتماع . وأكدت له أنى أقدر ذلك ، ولكننى رجوته أن يمنحنى بضع دقائق . وجلسنا نحتسى القهوة .

قال إنه يتوقع حضور زملائه الميثوذستين والبرسبايتيين والإنجليكيين الاجتماع . ولما سألته عما يتوقع أن يسفر عنه الاجتماع أجاب : « أننا معتدلون ولسنا سياسيين فى بحثنا للموضوع . أنا لا أحب تعليمات الطوارئ هذه ، إنها سخيفة ، إن الحكومة تتكلم عن المشاركة العنصرية ، ولكنها لا تسمح بأن يقوم الأهالى بأى عمل إنشائى خارج نطاق هذه المشاركة . هذا هو كل

سبب الاضطراب . إن الحزب الوطنى الديمقراطى كان قد بدأ فى الإنشاء فثارت الحكومة . ولكن الأهالى لم يحنوا رؤسهم هذه المرة .

وسأله لماذا يجتمع الرهبان البروتستانتيون ؟ فقال : إن بعض أعضاء الحزب الوطنى الديمقراطى قد اتصلوا بنا . وطلبوا منا أن نفعل شيئاً . إن أغلبهم كما تعلم مسيحيون .

وتذكرت جيداً ما قالته امرأة عجوز فى اجتماع جمهرة أهالى هايفيلدز . لقد صاحت : إن الأوربيين يخشون أن نطردهم إذا صار الأمر لنا . إننا نريد أن يعيش الأوربيون بيننـــا ، ولكن كأنداد لا كملائكة . إننا مسيحيون ، ليس لأن الأوربيين قد علمونا المسيحية ، ولكن لأن المسيحية فى قلوبنا .

واستطرد تراسل : « إنه من المؤلم أن يكون المتوقع منك أن تعمل شيئاً ، وأن تريد أن تعمله . ولكننا فى موقف حرج مع طائفتنا . هل أخبرك أحد عن هويتفيلد فوى ؟ كان قسيساً مثوذستياً هنا ، وكان شخصاً مستقيماً جداً فيما يختص بموضوع العنصر . وابتدأ عدد من الزعماء الإفريقيين من هارارى الحضور إلى المدينة أيام الآحاد لحضور عظات فوى . وفجأة نقل فوى خارج سالسبورى ، لم يقبل هذا الوضع أتباع أبراشيته البارزون . إن وجود إفريقى فى الكنيسة من وقت لآخر أمر لا بأس به ، ولكن حينما بدأ يلوح أن كنيسة فوى سوف تتداخل فيها العناصر ، أخرجوه . هذا هو المأزق الذى نحن فيه » .

هذا ما عنيته حينما قلت إننى كنت فى حاجة إلى زيارة ميندولو . إن ضعف الكنيسة المريع فى سالسبورى كان يشيع الحزن فى نفسى ، كما كان يشيعه مأزق شقيقتها فى ليتل روك . ولكن ميندولو كانت شيئاً آخر ، وهى تقع فى وسط الحزام النحاسى فى روديسيا الشمالية ، فى منطقة تشابه الحدائق تبلغ مساحتها مائة فدان من الأحراش والغابات فى أطراف كيتوى أكبر مدن

مناجم النحاس . وقريباً منها خمسة منشآت حكومية هامة . وقد اجتذب الحزام النحاسى إلى نفسه أكثر من ٣٠,٠٠٠ من البيض و ٣٠٠,٠٠٠ من الإفريقيين ؛ وقد جاء الإفريقيون من أوغندا ، وأنجولا وموزنبيق ، والكونغو ، وتانجانيقا ، ونياسالاند ، وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا . حوالى السبعين قبيلة ممثلة .

والمركز المسكونى بمندولو ، هو تضخم لإرسالية مندولو القديمة ، مركز قيادة الإرساليات المتحدة بالحزام النحاسى . وما حلت سنة ١٩٥٥ حتى اتضح أن إرسالية مندولو لا فائدة منها ، فانتهت أعمالها . وشكلت هيئة جديدة ، مجلس الخدمة المسيحية بكوبربلت (الحزام النحاسى) ، للتفكير فى مستقبل مندولو المحتمل . وعلى الرغم من مضى ثلاث سنوات قبل أن يضع هذا المجلس تقريره ، فإن التقرير كان يستأهل الانتظار ، وحبذوا إجراء تجربة جديدة جداً ، قاعدتها أساس مستقل . وتبنى مجلس الكنائس العالمى المشروع ، ووضع مندولو فى القائمة كمشروع يستحق مساندة الكنائس فى جميع أنحاء العالم .

وكان الرجل الذى يقف خلف هذه الفكرة هو المحترم بيتر ماثيوز ، وهو طائفى أسترالى حاد الطبع ، اقتنع بأن أكثر احتياجات إفريقيا «المسيحية» إلحاحاً ، هو تدريب القيادات ، والاستشارات العلمانية والبحوث ، والمؤتمرات .

وبحيوية مذهلة ، جمع ماثيوز من الكنائس والأوقاف وشركات التعدين مالا يكفى للبدء فى برنامج للبناء ، ودفع مرتبات موظفين . وسرعان ما ابتدأ المركز يكون مركزاً لنشاط قلما اقترن فى الماضى بالإرساليات . فمثلا بينما كنت فى مندولو ، كان تسعة عشر كاتباً وصحفياً إفريقياً من أجزاء مختلفة من القارة مشغولين فى منهج تخصصى فى الكتابة لمدة ستة أسابيع صعبة . كانوا يدرسون من الساعة الثامنة صباحاً حتى العاشرة مساء ، يتخللها وقت للراحة والتنزه والصلاة ولكن بلا هزل .

وكان يسايره فى نفس الوقت ، منهاج آخر لربات المنازل من منطقة كيتوى ، بيضاوات وسوداوات ، لمناقشة المشاكل الخاصة التى تنشأ من الحياة فى مجتمع متعدد الأجناس . وكانت جماعة مختلفة الأجناس من الشباب قريبة فى معسكر عمل . كانوا يحفرون آباراً لتصريف المجارى ، ويضعون الطوب لعنبر نوم جديد ، ويحضرون دروساً لقيادة الشبيبة .

وكان ينتظر قدوم اثنى عشر من زعماء العمال الإفريقيين فى الأسبوع التالى ، لحضور منهج دراسى عن مشاكل اتحادات العمال .

ويشرح مايثوز فلسفة مندولو بالآتى : « إن ما هو صحيح عن الحياة الكنسية فى كوبر بلت (الحزام النحاسى) ، صحيح أيضاً عن الكنيسة فى معظم بلاد العالم ، إن وظيفة الكنيسة قد مالت إلى الانكماش إلى حلقة ضيقة من العبادة فى أيام الآحاد ، وباقى الأسبوع بالنسبة لبعض الجماعات التى تهتم بهذا ، ولكن بدون أية فاعلية أخرى فى المجتمع . ولم تعد الكنيسة تمارس مسئولياتها الكاملة فى نواحى كثيرة حاسمة فى حياة الإنسان ؛ إن هدف مندولو هو إيجاد طرق جديدة لتطبيق المسيحية على الأمور الهامة فى حياة إفريقيا » .

وفى أثناء مكثى فى مندولو ؛ قرأت تقريراً عن مؤتمر انعقد هناك لمدة خمسة أيام ، عن الإنسان والمجتمع فى كوبربلت . وكانت لائحة المشتركين مرصعة بأسماء شخصيات رئيسية ، بيضاء وسوداء ، فى روديسيا الشمالية . وكان التقرير أكثر مسح شامل رأيته فى مجلد واحد ، عن مشاكل إفريقيا العنصرية ، والدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية .

إن العقبات تبدو للمشاهد المسيحى فى إفريقيا قوية ، ولكن المركز المسكونى بمندولو قوة مضادة فعالة . إن الاشتراك العنصرى حقيقى فى مندولو ، والبرنامج الموضوع يساير احتياجات إفريقيا . وكما يقرر ماثيوز : أن المركز لن يصبح مؤسسة لها طابعها الخاص . إن برنامجه سوف يتغير تماماً ، بمجرد أن تفهم وتقبل التحديات الجديدة للكنيسة المسيحية .

قبس آخر للأمل المسيحى فى إفريقيا ، يتمثل فى الكاردينال الإفريقى للكنيسة الكاثوليكية ، لوريان روجامبوا ، ذى الشخصية المؤثرة . هذا الرجل الطويل المتواضع تذكره أفعاله بأن الكثير يمكن أن يقال فى مصلحة السياسة الكاثوليكية فى إفريقيا ، إذ تصر على أن الكهنة الوطنيين يجب أن تكون لهم مؤهلات تقارن بزملائهم الأوربيين ، ونظراً لأن فرص التعلم محدودة ، فقد كان معنى ذلك أن الكهنوت الكاثوليكى الإفريقى قد نما ببطء . ولكن هؤلاء الذين دخلوه ، قد مرنوا تمريناً عالياً . وهذه السياسة أيضاً تعرض الكاثوليكية لتهمة البقاء تحت النفوذ الأجنبى . ولكنها تنتج من روجامبوا ، الذى يعد فى الغالب أكثر مديرى الكنائس الإفريقية عملا وذكاء فى القارة .

كان روجامبوا ، حتى بلغ الثامنة ، روحانياً عارى القدمين فى مزارع الموز بتنجانيقا . وتم تعميده فى هذه السنة ، لأن والده وهو عجوز قبلى كانت قد تمت هدايته إلى المسيحية . وبعدئذ ما إن دخل مدرسة الآباء البيض حتى استقر رأيه على أن يكرس نفسه للرب ، والكنيسة الكاثوليكية. وفى سنة ١٩٤٥ رسم فى الكهنوتية ، وبعد ثمان سنوات كرس رئيساً للأساقفة ، ويقال إن كاتدرائيته موطن للوطاويط ، ومبنية من قوائم من خشب الكافور ، وقوالب طوب صنعت باليد ، وإن سقفها من الحديد المغضن ، وإنه يقوم بجولته فى أبرشيته فى سيارة شيفورليه قديمة تستخدم لجمع العنب .

وأشهر مشترك معه فى تانجانيقا ، هو المواطن الأول جوليوس . ك . نبريرى ، بطل الاستقلال ذو الخمس أقدام والست بوصات ونصف ، والذى يزن ١٢٥ رطلا . قد ذهب نيريرى ، وهو أحد أطفال ستة وعشرين لزعيم زاناكى مزواج ، إلى مدرسة إرسالية ، واهتدى إلى الكاثوليكية وبقى وفياً لعقيدته حتى الآن .

ويصف روجامبوا المسيحية كأغلى ما تلقته إفريقيا من الغرب . ويذكر الكنيسة الكاثوليكية كممثل للتقدم المذهل فى إفريقيا ، ويؤكد دور الكنيسة كمدرسة لإيمان قوى بالرب ، ومحررة من الخرافات ، ومعلنة عن حقوق الأفراد الإنسانية الأساسية ، ورسولة الرفاهية البدنية والاجتماعية ، والاقتصادية ، ومعلمة الكثير من الناس .

وقال ، إذا كانت المبادئ المسيحية هى مصدر إيحاء الأمم الغربية فى علاقاتها الحاضرة والمستقبلة مع إفريقيا ، فإن كل شىء سوف يكون على ما يرام . إن كل شخص يعلم أن إفريقيا فى حاجة إلى معونات مالية ومساعدات فنية . على أن هذه المساعدة ، يجب أن تعرض بروح من الحب والتفهم الأخويين ، بروح المعاونة لا السيطرة . إن ما يتوقعه الإفريقى من قوى الغرب ، هو الاعتراف بكرامته الشخصية ، وقيم حضارته وتقاليده .

وعلى هؤلاء الذين يدعون أن روجامبوا إنما يعرض للإفريقيين كحلوان (طعم) لتأخير التقدم الشيوعى ، أن يكونوا مستعدين لمجابهة هذا الكاردينال الأسود اليقظ ذى المواهب النابهة .

وكأبعد ما يكون عن مجرد زخرف القول ، فإن الكاردينال بناء مصمم لقوة الكنيسة . وإذا ابتدأ بنقطة ارتكاز قوية ، ١٨,٠٠٠,٠٠٠ كاثوليكى اسماً على الأقل جنوب الصحراء ، فإنه ناشر حازم لعقيدته التى تمتلك ولاءه غير المتزعزع .

وإن أكثر أجنحة المسيحية كشفاً وقابلية للانثلام ، هو التفرقة العنصرية الوحشية باسم المسيحية . إن سلالة المستوطنين البيض المستقرين ، الإفريقانيين ، (وهم سلالة الهولنديين المستعمرين فى جنوب إفريقيا) قد رأوا أنفسهم ، كتقليد توارثوه ، كأنما هم يعيدون تمثيل الدور الوارد فى الإنجيل ، عن الشعب المختار وأهل الميعاد ، حيث فرض الرب على الرجل الأسود أن يصقل الخشب ، ويجلب المياه خدمة للرجل الأبيض . وكمزحة ، أطلق على كنيسة الإصلاح الهولندية (البروتستانتية) مركز عبادة حزب الأفريقان الوطنى ، وكحقيقة عابسة ، قد عطروا التفرقة العنصرية والتحامل الجنسى بأنها حقيقية طبقاً للكتاب المقدس . « لو كان الرب قد أراد المساواة بين الأجناس لقال ذلك فى الإنجيل » .

وأصبح الدكتور هندريك فيروود ، الذى كان يعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الإلهى وقت أن كان يعمل كعالم وصحفى ، زائراً متحمساً للكنيسة

حينما تم انتخابه على رأس حكومة الأفريقان . وهو يدعي الآن أن نجاته بأعجوبة من القتل الذى حاوله صاحب مزرعة مريض نفسياً . كان معجزة إلهية لصالح التفرقة العنصرية .

وقد اجتمع أعضاء مجلس الكنائس العالمى مع زعماء كنيسة الإصلاح الهولندية للمشاورة فى المشاكل العنصرية . وحينما جلس عشرة مندوبين من كنائس جنوب إفريقيا البروتستانتية الثمانية . مع ستة ممثلين لمجلس الكنائس العالمى ، أصدروا قراراً شديد الانتقاد للتفرقة العنصرية . نص القرار على أن « جزءاً من كرامة الرجل الراشد هو حقه فى تملك الأرض والاشتراك فى الحكومة . ولا يتضمن الكتاب المقدس أى أساس لمنع اختلاط الأجناس بما فى ذلك الزواج المختلط . وأن هنالك نقصاً مؤلماً فى التشاور والاتصال بين الأجناس » .

« إننا مقتنعون أنه لا اعتراض من ناحية المبدأ على التمثيل المباشر للشعوب الملونة فى البرلمان . ولا يجوز استبعاد أى مؤمن بعيسى المسيح من أية كنيسة بسبب لونه أوجنسه . إن الوحدة الروحية بين الرجال المسيحيين ، يلزم أن تجد وضوحاً فى التعبير فى أعمال العبادة العامة والشهادة ، وكذلك فى الأخوة والمشاورة فى الأمور ذات الأهمية المشتركة » .

ولم تعلن قائمة التصويت على هذا القرار على الجماهير ، ولكن البعض على الأقل من ممثلى كنائس الإصلاح الهولندية الثلاث قد انضموا إلى الإنجيليكيين والميثوذستيين والكاثوليك . ومندوبى الهيئتين البرسبايتريين (أتباع الكنيسة) المسيحية فى التصويت بالموافقة .

وحينما بدأ هبوب عاصفة بين العلمانيين وبعض الكهنة ، شعرت كنائس الإصلاح الهولندية بأنها مضطرة لإيضاح موقفها . جحدت كنيسة ندردو يتش هرفورمدكيرك . أصغر الكنائس الثلاث . إذ يبلغ أتباعها ٢٠٠,٠٠٠ عضو ، القرار وأعلنت موافقتها على التفرقة العنصرية الكاملة . ورجعت كنيسة منلودويتش جيريفورر ميد كيركيركس عن مستعمرة الكاب وترانسنفال .

وعدد أعضائها جميعاً ١,٢٠٠,٠٠٠ إلى موقفها القديم ، بأن سياسة التفرقة يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المسيحية ، ولكنها أصرت على أن الإفريقيين الزنوج ، الذين يثبت إقامتهم وعملهم فى مناطق (بيضاء) يجب أن يمنحوا نصيباً معقولا فى الحكومة .

وقد وصف نوفليس ألان باتون ، الذى حضر المؤتمر كمندوب إنجيليكانى ، التصريح بأنه رأى مدهش عن المواقف السابقة ، وأثنى على كنائس الإصلاح الهولندى لشجاعتها .

إنه لمما يملأ لاأسفاراً عن الجو الاجتماعى والسياسى بجنوب أفريقيا أن باتون يستطيع أن يجد دلائل شجاعة فى نداء هيئة كنيسية قوى لتفرقة عنصرية أكثر تراخياً فى إطار دائم من التمييز . ولعله من المدهش حقاً إمكان صدور التصريح أصالة من أقوى صوت روحى لدولة الأفريقانيين . وقيل إن فيروود ارتج وثار . وكتبت الجريدة الوطنية الإفريقية التى يتولى تحريرها الترنسفالى مقالا ساخراً تقول فيه : مهما كان جمال صياغة المؤتمر لأفكاره فإن تطبيقها يؤدى إلى انهيار المسيحية فى جنوب إفريقيا .

ولكن بعض زعماء الهولنديين ، البروتستانت على الأقل ، قد بدءوا يقتنعون أن العكس تماماً هو الصحيح . لقد استنكروا جداً الانتقادات القديمة لجوست ده بلانك رئيس أساقفة كلميب تاون ، إذ كان عدواً مناضلا للتفرقة العنصرية ، وحينما طالب ده بلانك بطرد كنيسة الإصلاح الهولندية ، كان رد الفعل حاداً فى الدوائر العليا فى الكنيسة الهولندية ، ولكن كانت هذه مسألة كرامة أكثر من مسألة ضمير . وحينما شارف مؤتمر المجلس العالمى النهاية ، طلب رئيس الأساقفة ده بلانك الكلمة ، ورجا العفو من رجال كنيسة الإصلاح الهولندية ، عن أى أذى قد يكون ألحقه بهم ، فى حملته الحماسية ضد التفرقة العنصرية ، وفى فورة إخلاص جديد ، منح العفو بحرارة . وكان ألان باتون هو الذى وجد آمالا للمرة الثانية فى هذه المبادلة : « أن تصرف كبير الأساقفة والرد عليه يظهر بعضاً من الجو الجديد » .

وإذا انضمت كل من الكنيسة الإنجيليكانية ، وكنيسة الإصلاح الهولندية بعضهما إلى بعض ، فى قلقهما المشترك عن التفرقة العنصرية ، فإن الشاهد المسيحى فى جنوب إفريقيا ، سوف يزداد قوة إلى حد بعيد .

ولا يوجد شخص يستطيع أن يصور مأساة ورطة المسيحية السياسية فى جنوب إفريقيا ، بمثل الحدة التى يصورها بها حائز جائزة نوبل للسلام ، الزعيم ألبرت جون لوثولى رئيس مجلس إفريقيا الوطنى فى بلده منذ سنة ١٩٥٢ . ولوثولى وهو الآن فى الثالثة والستين من عمره مسيحى عن عقيدة وممارسة . كان مثالا للشخصية المسيحية ، لا يلجأ إلى العنف فى محاولاته للتوفيق فى مقاومة التفرقة العنصرية ، كما أنه ليس به أى ظل لشعور عداء للرجل الأبيض . ومع هذا يعده البيض أكبر عدو لسيادتهم ، وكان هو الشخص الرئيسى فى اعتقالات ومحاكمات الخيانة ، كما حرم عليه النشاط السياسى وبعد مضى خمسة أيام من شاربفيل أحرق تذكرة مروره ، أكثر رموز التفرقة العنصرية بغضاً . وبعد ثلاثة أيام سجن للمرة الثانية .

وقد حذر لوثولى البيض عدة سنوات من أنهم إذا كانوا لن يتفاهموا معه ، وهو مسيحى ومعتدل ، فإن أتباعه سوف يبدءون ينفضون ، وتقع الزعامة الإفريقية فى أيد أكثر صلابة وعدواناً . وتتحقق الآن نبوءاته ، فزعامته الطبيعية تنساب ، إذ يلوح أن ارتباطاته المسيحية لم تفعل سوى القليل للتطلعات الإفريقية فى جنوب إفريقيا .

ويمكننا الوثوق من أن لوثولى كان فى ذهن رئيس الأساقفة جوست ده بلانك حينما أعلن أن الكنيسة كانت فى مفترق الطرق فى جنوب إفريقيا ، وأنها إذا لم تجد طريقاً لإرضاء التطلعات الإفريقية المشروعة ، فإنها تحكم على نفسها بالفناء — وأن كل جنوب إفريقيا سوف يكون مفتوحاً على مصاريعه للمذاهب الدنيوية والعقائد غير المسيحية .

إن نقط ارتكاز المسيحية فى إفريقيا قوية ومؤثرة ، ومن السخف أن نعد المسيحية خاسرة فى التنافس الكبير على الأرواح الإفريقية طالما أن

هناك أمثال داجادو ومندولوور وجامبوا ، ونيريرى ، وده بلانك وباتون ولوثولى .
ولكن بالمنطق نفسه ، يكون من الغباء ألا نعترف بأن أغلبية المسيحيين من كل الأجناس فى إفريقيا يلوح أنهم غير مستعدين لمهامهم .

كنائس متمردة فى أرض قلقة

كتب رنجت ساندكلر (الدراسة العلمية عن الكنائس الإفريقية المنشقة) ويسمى الكتاب « أنبياء قبيلة البانتو فى جنوب إفريقيا » وهو يعدد أكثر من ثمانمائة كنيسة منشقة ذات قيادة إفريقية سجلتها رسمياً حكومة جنوب إفريقيا فى سنة ١٩٤٥ ، كما يضيف مائة وعشرين وثلاثاً أخريات ، كان وجودها معلوماً خلال الثمانية عشر شهراً التالية . وقد قصر ساند كلر بحثه على بلد واحد ، ولكن تمت ، أو تكاد تتم ، دراسات مماثلة فى جميع أنحاء إفريقيا . إن مئات الآلاف من الإفريقيين الذين يعدون مسيحيين إحصائياً ، لا يشتركون فى إرساليات ملية معروفة ، وإنما فى كنائس مستقلة خارجة تحمل أسماء مثل الحارس ، وكنيسة قلب المسيح المقدس بالامبا ، وكنيسة بانتو الوطنية وكنائس شاروبيم وصاروفيم ، ومئات أخريات .

وفى حين أن إفريقيا ليست فريدة فى هذا — طوائف مشابهة قد تزايدت فى بعض الأماكن مثل الصين الشيوعية وإندونسيا — فإن تكاثر الكنائس المستقلة فى إفريقيا له طابع خاص . فحديثاً ، مثلا ، على جزيرة ليكوما الصغيرة الحقيرة فى بحيرة نياسا ، أعلن أحد « المسيحيين » الخوارج النياسلانديين أنه يعتزم أن يقيم مركز قيادته . وكان أكثر أبنية الجزيرة مهابة كتدرائية إنجيليكية بناها الأهالى المهتدون منذ حوالى قرن مضى ، وطالما كانت مركزاً لأعمال الإرسالية الإنجيليكية ومظهراً من مظاهر غراس المسيحية .

وقرر رهبان الإرسالية الذين كانوا قد أزعجتهم الردة فعلا ، القيام بحركة تمثيلية . قسموا ساحة الكتدرائية فى الوسط بصف من المقاعد ، ثم تحدوا من يجرؤ على إنكار الكنيسة أن يمكث عند أقصى الحاجز . ولمدة طويلة لم يتحرك أحد ، وأخيراً سار بعض أعضاء الطائفة القدامى إلى الناحية الأخرى ، وتبعهم الآخرون ببطء ، ولكن كان واضحاً للقساوسة وضوحاً مثبطاً أن النبي الانفصالى قد وطد نفسه فعلا فى ليكوما . وأية محاولة مهما بلغ من صغرها ، لشرح الكنائس الإفريقية المستقلة ، لا بد أن تحوم حول التوتر المحتوم بين الغرب الأبيض المسيحى والأهالى الإفريقيين السود ، الذين شرع الغرب يبشرهم ، ويستغلهم ، ويسيطر عليهم :

إن كنائس الأهالى المنشقة هى إحدى الوسائل التى يرد الإفريقيون بها على صدامهم مع المدنية المسيحية الغربية . فالمبشرون لم يستحضروا معهم ثروة الإنجيل الأزلية فحسب ، ولكنهم أحضروا أيضاً وسائل وقيماً مدنية كاملة . ولا شك فى أن دفع الإرساليات فى القرن التاسع عشر ، فى نظر الإفريقى ، هو الجزء الروحى من الغزو الأوربى العام لأفريقيا ، كان هذا هو الوضع الذى رآه الإفريقيون فى مبدأ الأمر ، بل إنهم لا يزالون يرونه إلى حد كبير حتى الآن . فالأب الفرنسى الكاثوليكى الأبيض ، بالنسبة للإفريقيين ، هو أولا فرنسى ، والقسيس الإنجيليكى هو أولا إنجليزى ، فلكليهما الوجه الأبيض نفسه ، ويمتلكان القوة نفسها على الكلمة المكتوبة ، ويمارسان وسائل العلاج نفسها ويحملان الأسلحة نفسها . والمبشر ، أيًّا كانت طائفته ، يمثل للإفريقى مدنية تفوق مدنيته قوة إلى حد بعيد ، مدنية قد تطغى عليه ، ولكنها من ناحية أخرى قد تشاطره قواها إذا أمكن تحقيق تحالف حكيم .

وبمعنى آخر ، أن المبشر مهما اعتقد أن هدفه مختلف عن المكتشف والمستوطن والوكيل التجارى ، والموظف الإدارى ، فإن الإفريقى رأى فيهم جميعاً مشروعاً مشتركاً واحداً . ولم يكن الإفريقى مخطئاً تماماً فى تقديره .

ويؤكد ف . ب . وليبورن ، فى دراسته عن الكنائس المنشقة فى أوغندا وكينيا ، مشروعية وجهة النظر الإفريقية .

« على الرغم عن أن المبشرين يختلفرن عن الأوربيين الآخرين فى تأكيد أنهم بداءة مرتبطون كلية بالمسيح ، فإن الأوائل منهم على الأقل، كانوا مخلصين فى تقديمهم المدنية الغربية فيما كانوا يعتقدون أنه أحسن مظهر لها . إن المبشرين الأكثر حداثة ، هم الذين تأثروا بعلم السلالات البشرية ، ولعل تأثرهم الأساسى كان بالشكرك فى قيمة الحضارة الغربية وخلودها ، وهم الذين بدءوا يرون الفرق بين ما هو أصالة مسيحى ، وما هو مجرد غربى . وحتى هؤلاء لا يعرفون تماماً أين يضعون الحد الفاصل » .

وما يجب أن نتذكره إذاً ، هو أن الكثير من الإفريقيين كانت تنقصهم القدرة للاستجابة إلى مجهودات المبشرين كرسالة دينية خالصة . وقد حاولوا بطريقة مفهومة تماماً الخروج إلى حضارة مغايرة بالكلية ، وليس إلى مجرد جزء منفرد يتسم بالمسيحية .

ولكن إذا كان المبشرون يقدمون مجموعة ثقافية كاملة ، وإن لم تكن دينية فحسب ، فإنهم أيضاً يتصرفون كمواطنين ذوى المهن والمصالح الأخرى فى حجزهم أجزاء من هذه الثقافة .

جاءت الإرساليات بالتعليم ، وتلقاه الإفريقيون بحماس : ولكن الكثيرين من المبشرين شاطروا المستوطنين وموظفى الاستعمار رأيهم فى أن الإفريقيين يجب أن ينالوا نصيباً من التعليم إلى الحد الذى يؤهلهم فقط لأن يأخذوا « مكانهم اللائق » فى مجريات الأشياء ، ومن الواضح أن المكان اللائق « ليس مكاناً مساوياً » . وبالإضافة إلى هذا ، لم يحاول المبشرون قط مشاورة الإفريقيين فى تطوير نوع من التعليم يدخل وجهة النظر والفلسفة الإفريقية فى الاعتبار . وكان مما لا يمكن تلافيه أن يرى بعض الإفريقيين أن التعليم الإرسالى ليس منحة فحسب ، وإنما هو أيضاً نوع من الاستعباد .

ويشاطر المبشرون عامة الاعتقاد الغربى فى حق تقرير المصير والانتخابات العامة الراشدة . والبروتستانتيون بالذات يتعلقرن بالمثل الأعلى لكنائس إفريقية تنمو لتشارك الكنائس الأوربية والأمريكية مشاركة كاملة . وإذا كان الإفريقيون فى مبدأ الأمر بطيئين فى رغبتهم فى الاستقلال الكنسى ، فإنهم مع الوقت ، حريون بأن يريدوا التحرك بسرعة كبيرة ، أسرع كثيراً جداً عما يستعد كثير من المبشرين لقبوله . وإن ما أبداه المبشرون من مقاومة فى هذه النقطة جعل من المؤكد جداً أن بعض الإفريقيين سوف يطلب الاستقلال الذاتى بحماس أكبر .

كان على المبشرين ، أيًّا كانت نياتهم ، أن يكونوا أشخاصاً فوق مستوى البشر ليتغلبوا على العقيدة المغروسة فى كيانهم من أنهم يمثلون مدنية أرق . وبديهى أن هذه الوجهة عكست ، وإن يكن خفية وبغير شعور ، عدم الاحترام لكل ما هو إفريقى — مع العلم بأن تصرفات المبشرين غالباً ما كانت واضحة وبشعور كامل . وسريعاً ما رأى بعض الإفريقيين العمد والخداع والنفاق فى هذا . يتكلم المبشرون عن بركتهم على إفريقيا بإيقاف الحروب القبلية ، فى حين أنهم يمثلون مدنية تعد فيها الحرب الآلية مؤسسة معترفاً بها لدمار مذهل . كان على المبشر أن يكون قديساً ليتغلب تماماً على روابط الجنس والمجتمع ، إلى درجة يستطيع معها ألا يخفى عن الإفريقيين أعمق أجزاء روحه الحضرية .

كان هنالك بعض أمثلة لهؤلاء القديسين ، بل إن هنالك بعضاً منهم الآن ، ولكن من البديهى أنهم كانوا أقلية . لم ير لفنجستون صعوبة فى تقبل الأطباء القبليين كزملاء فى المهنة ، لأنه كان يرغب فى أن يقبلوه كزميل . ولكن هناك قلائل من أمثال ليفنجستون فى عمليات الإرساليات .

إننا إنما نقول إن المبشرين آدميون حينما نصف إعطاءهم المتحيز . وإننا إنما نقول إن الإفريقيين آدميون حينما نصف قبولهم المتحيز . ما من مدنية تستحق الكلمة ، إذا لم تقاوم لدرجة معينة غزو مدنية أخرى مهما كثر

عدد الفوائد والمزايا التى قد يأتى بها الغزو . وربما يقدر الكثيرون من الإفريقيين ، وكثيرون فعلا يقدرون ، قيمة الدين الغربى والتعليم الغربى ، والمهارات الغربية ، ولكن كان لزاماً أن يؤكد البعض سيطرتهم على كيفية تنظيم هذه القيم فى الحياة الإفريقية .

إن الكنائس الانفصالية فى إفريقيا ما هى إلا تضخم ملموس للقوى التى وصفناها ، إنها تعكس رد مدنية كاملة على أخرى ، لأنها تكشف ما جاء به المبشرون وما منعوه ، كما توضح إجماع قبول الإفريقيين لما ورد إليهم ومقاومتهم لما منعوا منه . وهنالك حركات تشابه الإرساليات ، ولكنها لا تخضع لسيطرة المبشرين ، وهى فى بعض النواحى تعادى عداء سافراً الأفكار التى يؤكدها المبشرون . لكل هذه الأسباب تكون الكنائس الانفصالية عادة معادية للرجل الأبيض عامة .

وفئات الخوارج متعددة ومتباينة حتى إنه من العسير وضع قاعدة عامة عنهم . كثيرون منهم كاثوليكيون متحمسون ، وكثيرون أصوليون فى استعمالهم للإنجيل ، والبعض أتباع مخلصون لكتاب دعاء الكنيسة الإنجليزية . وهنالك فئات تجمع المزاولات الوثنية أو الإسلامية بالمزاولات المسيحية ، ولكن هؤلاء فى حافة الانفصال وليسوا فى قلبه .

والنظرية السائدة أن الخوارج إنما انفصلوا عن الطوائف التقليدية لمنازعتهم فى مسألة تعدد الزوجات ، ولكن هذا خطأ . كان تعدد الزوجات فى بعض الحالات فعلا السبب الرئيسى للانفصال ، ولكن لم يكن الأمر كذلك فى الغالبية الساحقة منها . وعموماً تتساهل الكنائس الانفصالية فى مبدأ تعدد الزوجات لدرجة أكثر من الكنائس الإرسالية ، ولكن هنالك فروقاً واسعة بينها فى المزاولات . ويمكن أن يقال إن البعض أكثر تشدداً فى مبدأ وحدة الزواج عن زملائهم الإرساليين .

وشعر ستاندكار أن إخفاق الزعامة كان من أهم الأسباب القاطعة فى الانفصال ، ولا يوجد أدنى شك فى أن الزعامة النبوية أو المسيحية تبرز

واضحة الصورة ، ومع هذا فإن هناك عدة كنائس انفصالية يشابه فيها القسيس مثيله فى تلك التى أنشئت على أساس غربى .

وميز ساندركلر فى جنوب إفريقيا ، بين فئتين أساسيتين من الخوارج أطلق عليهما « الأثوبية » « والصهيونية » وتعارض الأولى أصالة التفرقة العنصرية ، فى حين نشأت الثانية كنوع من النهوض النموذجى تقليداً لطوائف وكنائس زنوج أمريكا المستقلة ، على أنه من العسير جداً على أى الأحوال أن تحتفظ بتفرقة متميزة من هذا النوع .

خذ مثلا حركة شرق إفريقيا المعروفة باسم « جمعية الإله الواحد القهار » التى بدأها فى أواخر القرن الماضى جوسواكيث موجيا . كان هو زعيماً ذا قوة ونفوذ كبيرين ، وسعى إلى التعميد كمسيحى ، بالرغم ما فى هذا من خطورة كبيرة جداً فى أثناء بقائه بين عشيرته « أوجندا » ، وبدأ يعلم الآخرين قراءة الإنجيل ، وبينما هو فى دراساته النهمة ، ازداد تأثراً بقصة الأتون المتوقد الخارق . إذا كان فى استطاعة الله أن ينقذ الرجال من النار ، ففى استطاعته أيضاً إنقاذهم من المرض . وبالبحث فى الإنجيل عثر مرجيا على أمثلة عديدة من العقيدة الشافية .

ورأى الإرساليون رجلا ذا ورع عميق وعقيدة ، فرخص له المجلس الكنسى الإفريقى كزعيم علمانى . وكان من أوائل الزعماء الذين هدتهم الكنيسة الإنجليزية مطالبة بإلغاء الرق . وجهز بعثات لتبشير القبائل فى الداخل بالمسيحية ، واكتسب كزعيم شهرة واسعة فى الكرم الشخصى ، كما كان رائداً فى وضع شكاوى شعبه أمام إدارة الاستعمار . وظهر تحرره الفردى فى رفضه أن يلبس غطاء للرأس لأن الرب قد أعطاه شعراً ، وأمر أيضاً أن يصنع سرير مربع له ، لأنه لم ير سبباً يرغمه على النوم فى اتجاه معين .

ونما شعور موجيا عن الرب والإنجيل والدواء إلى درجة التسلط . وحينما أخفقت محاولاته فى إقناع الإرساليين بأحقية وجهة نظره ، انفصل عن جمعية الكنائس الإرسالية وأنشأ فئة خاصة .

وكبرت الطائفة سريعاً ، سواء فى العدد أو فى التعاليم ، ولكن بقى أساس الدين الجديد فى الاعتراض على التطبب للإنسان أو الحيوان . وفى سنة ١٩٣٠ كان هنالك تقدير قبيلة بامالا كى فى بوغندا وحدها ٥٦٩٥٢ نسمة . وتجمع المهتدون فى مجالس محلية ، ومجالس قبلية ثم فى مجلس شامل للكنائس . وكان الكهنة يعينون رسمياً ، كما كان هنالك كتاب صلوات رسمى . وأنشئت بضع مدارس للأطفال البامالا كيين .

وقد فقدت الجمعية الآن نفوذها على الجيل الشاب ، ولا شك فى أنها تنقرض ، ولكنها ما زالت تعطينا مثلا تاريخياً لنهوض وانتشار ونهاية كنيسة إفريقية انفصالية .

والحركة الانفصالية التى لايلوح عليها جلياً أى علامة من اضمحلال القوى ، هى الكنيسة الميثوذستية الإفريقية المتحدة التى يطلق عليها كنيسة السماكين ، لأن أول مبانيها كان قريباً من سوق السمك بلاجوس . وقد اكتشف زعماء هذه الجماعة أن السمك كان الرمز الأول للمسيحيين ، وبدون أى اعتراض على الاسم الذى شاع عنهم ، رسموا الشعار على رموزهم وأدبهم وعلى الصليب النحاسى الضخم الذى يتقدم دائماً موكب رئيس الأساقفة .

وقد نشأت الحركة فى سنة ١٩١٧ ، حينما بدأ رئيس الإرسالية الميثوذستية فى لاجوس حملته ضد تعدد الزوجات . وكان هذا هو السبب الظاهر الوحيد . وإن لم يكن الحقيقى للثورة ، إذ أن الكنيسة الميثوذستية الإفريقية تتطلب من كهنتها ألا يتزوجوا سوى واحدة فقط ، كما تشجع المبدأ بين متدينيها . إن الرغبة الحقيقية فى الاستقلال هى الدافع الخفى . كانت الأحاسيس الوطنية منتعشة فى نيجيريا حتى فى هذا الوقت ، ولكن كانت الفرصة قليلة أو منعدمة للتعبير عنها فى السياسة .

وقد احتفظ بالنظام الكنسى والطقوس الدينية المثوذستية طوال هذه السنين ،

فتقرأ صلاة « ويزلى » للسحر كما أن الترانيم هى المألوفة لدى البروتستانت الغربيين .

ولكن دخلت الطبول والأناشيد الأهلية فى الطقوس لتعطيها نكهة إفريقية براقة .

إن الكنيسة الميثوذستية الإفريقية المتحدة لا تنمو بدرجة كبيرة ، ولكن أتباعها نشطون ومخلصون كما أن لهم مراكز مرموقة فى المجتمع الإفريقى .

ولا يمكن لأى شخص أن يسافر كثيراً فى غرب إفريقيا بدون أن يذهل من كثرة وجود « جمعيات الشاروبيمية والصيرافيمية . وليست هذه الحركة المزدهرة فى سبيلها إلى الموت ولا هى متجمدة بل إنها تنتعش بسرعة .

ومؤسسها الرئيس هومرس تانولاشى ، من أبناء عائلة هامة فى إيكار بغرب نيجيريا . وقد اكتسب مثل موجيا فى أول عهده موجدة ضد التطبب . ولكن على العكس من موجيا . لم يعرف عنه قط أنه تاق إلى أى اعتراف من أى الكنائس الإرسالية المعروفة . من البداءة كان مارقاً ، إذ كان استعماله للإنجيل ذاتيا بحتاً .

وقد أخبر فى رؤيا أولية أنه كان يجب أن يؤسس جمعية يطلق عليها اسم سيرافيم ، « وفى رؤيا تالية أضيف لفظ شاروبيم . واجتذب أتباعاً من الكنائس المختلفة ، كما اجتذب أيضاً من بين الوثنيين التقليديين والمسلمين ، واتبع طريقة مرغوبة للتبشير فى الهواء الطلق ما زالت شائعة حتى الآن فى الحركة . وظهرت رؤيا ثالثة لتانولاشى ، وهى أن السيرافيمى يجب أن يلبس رداء أبيض حيك على نمط خاص ، وإحدى أمنيات أتباعه الملحة هى القدرة على شراء ثوب كهانتهم الزاهى .

ونمت الجمعية سريعاً مما أرعب الكنائس المستوطنة . وللجمعية خصيصة فوضوية متحررة . مع أقل ما يمكن من إدارة دينية وأكثر ما يمكن من مزاولات كتلية داخلية وإذا ما دخلوا الكنائس ، يخلع السيرافيون والإسلامية أحذيتهم ، ويرسمون علامة الصليب » وهى عادات مختلفة من الإفريقية والإنجيلية ،

والكاثوليك الرومان » . هنالك صليب فى الكنيسة ولا يوجد مذبح . ويحمل الرؤساء ، وهم محاطون بالشموع والبخور ، صولجاناً من الخشب أو المعدن يستعمل حسب الحاجة فى طهارة الماء واستبعاد الشياطين ، وقيادة الغناء . وتستعمل الطبول والأجراس بإفراط فى القداس إلا فى خلال الصوم الكبير فإنها محرمة بتاتاً . وتنقل العبادة من وقت لآخر من الكنيسة إلى قمم التلال . ويفخم الإنجيل ، ويعتبر الأسبوع المقدس وقت صوم شديد وصلوات ليلية ورعايات ، ولكن يراعى أيضاً مثلها الأحلام والرؤيا والإلهامات الغامضة ، وعلى قدر ما هى محيرة لهؤلاء الذين اعتادوا طرقهم الطائفية المعتادة فللشاروبيمية جاذبية عميقة للكثرة من الإفريقيين فى أنها ليست من أحد العاملين — أعنى أنها ليست إفريقية بحتة ، وليست غربية بحتة ، خاصة بالنسبة للجماهير الغفيرة التى تنزح إلى المدن وإلى حياة المدينة : والذين لايجدون سوى القليل من الإثارة فى الكنائس الأكثر رسمية حتى التى يتولى قيادتها إفريقيون ، ولكنهم برغم ذلك يتأثرون بالمركز الرمزى للإنجيل والتعميد والصليب .

ويعدّ اتخاذ خطة حيال هذه الطوائف الانفصالية المتزايدة مشكلة رئيسية أمام الزعامة المسيحية التقليدية ، سواء منها الإرسالية أو الإفريقية . ويميل الكاثوليك إلى الاعتقاد بأن هذه مشكلة بروتستانتية ابتداء ، لأن الانشقاقات المنظمة كانت قليلة من الحظيرة الرومانية ، ولكن هذا يخفق فى أن يأخذ فى الحسبان آلاف الأفراد والعائلات الذين ينفصلون عن الكاثوليكية ليلتحقوا بطائفة انفصالية أو أخرى .

وكثير من الملل يأتى ويذهب بسرعة مذهلة ، وربما كان هذا هو أكثر نقط الحركات الانفصالية ضعفاً . ومع ذلك فإنه دائماً ما يقوم أصحاب رؤيا جدد ليحلوا محل الذين اختفوا ، كما أن بعض الجمعيات تتمتع بقوة بقاء عجيبة ، كالشاروبيمية مثلا . والجميع ، على أى حال ، قد انحرفوا عن المجرى الرئيسى للمسيحية . إنهم يتمسكون باسم المسيح ، ولكن نظراً

لتباينهم وانحرافهم عن المعايير الغربية ، لا يوجد لهم اعتراف خارج حيز أعدادهم .

ويجد الكثيرون من الإفريقيين فى الكنائس الانفصالية طابعهم الخاص للحرية يتعبدون بها للمسيح . وفى بعض الأحيان ، لايكون قادتهم سوى أدعياء لا يبحثون عن أكثر من مجرد السلطة أو المركز — ولكن هذا يحدث أحياناً فقط . ويبحث أتباعهم عن شىء جوهرى وخالد — مجتمع ، وتعرف للشخصية فى وضع يشعرون فيه أنهم حقًّا فى مكانهم . هل هنالك أى حل سوى الاعتراف بأن أى كنيسة ، إذا قامت ، إنما تقوم لكل فئة تتمسك مخلصة باسم المسيح مهما كان انحرافها عن الطرق الغربية المألوفة؟

المبشرون وكنيسة « مؤفرقة »

فى السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٦١ ، أعلن الرئيس سيكوتورى أن حكومة غينيا تعتزم « أفرقة » الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . قال تورى : « لن يعتمد فى غينيا أى أسقف كاثوليكى ما لم يكن إفريقيًّا » . وقبل هذا الإعلان بما لا يزيد على أربع وعشرين ساعة ، طرد من غينيا رئيس الأساقفة جيراردى ملفيل ، الكاثوليكى الفرنسى الذى عاش لمدة جيلين فى البلد .

وما هذه إلا واحدة من خط مستمر من إشارات مشتعلة ، توحى بأن عملية الإرساليات المسيحية فى إفريقيا فى اضطراب جدّىّ . بغض النظر . عن مدى الإعانات التى قدمتها الإرسالية لإفريقيا ، والتى قد تستمر فى تأديتها . فإن الشعور ينتشر بين الزعماء الإفريقيين بأن هذا المجهود لم يعد مناسباً لقارتهم .

ويقول الإفريقيون : « يجب ألاّ يشعر المبشرون بخيبة أمل . إن الغذاء العقلى والدينى اللذين ألقوهما فى الماء قد عادا فى صيغة وطنية وإصرار

على أن ندير أعمالنا بأنفسنا . وبهذا المعنى ، قد أدى المبشرون عملهم على ما يرام وإننا نشكرهم . إن إخلاصهم الذى تضمن فى كثير من الأحيان تضحيتهم بحياتهم ، قد بنى مدارس ومستشفيات ووسع أفق معتقداتنا الدينية . ومع هذا يجب أن يذهبوا ، ليس لأن احتياجات إفريقيا فى التعليم والطب والنمو الروحى قد أشبعت ، بل ما زال هنالك شوط بعيد . إن النقطة هى أن الإرساليات ، كمنشأ فى إفريقيا ، يجب أن تسلم الأعمال التى ابتدعتها إلى فئات أخرى ، إلى فرق الفنيين الدوليين الذين سوف يعملون مع الزعماء الإفريقيين ، وفيما يختص بالمسائل الروحية ، إلى كهنة وقسيسين إفريقيين . إن الإرساليات ، مثلها مثل الحكومات الاستعمارية يجب أن تفهم بجلاء أبعاد التغير فى القارة . يجب ألا يخطئوا فهم شعلة عملهم الماضى المقدس بالقدسية نفسها ، وإلا فإن أكثر الإرساليات سوف يكون فى خطر . سوف يكون مستقبل المسيحية الإفريقية عرضة للتهاكة » .

وإن أحد طرق ترجمة هذا الشعور ، هو أن وقت الإرساليات قد انتهى ، ولكن زمن الكنائس الإفريقية ما زال قائماً . إن المسيحية تلعب دوراً عالميًّا فى حياة الأشخاص ، ولكن الكنائس تضرب جذورها فى المجتمعات والشعوب ، إنها منبثة فيهم ، وسلطانها يقع على قلوب الشعوب التى هى حالة بين ظهرانيهم . لهذا السبب ، فإن الإرساليات مهما طال زمن بقائها ، يجب أن تكون مؤقتة . إن إيحاءها ينبع من أرض أجنبية . وعلى ذلك فهى « خارج النطاق » مع التطورات السائدة فى إفريقيا ، شأنها شأن الاستعمار . إنها على أى حال متصلة بالاستعمار فى النسق التاريخى نفسه ،، أى الغزو الغربى لإفريقيا . ومن الجائز أن يكون صحيحاً أن المبشرين كانوا كثيراً ما يعارضون بمرارة سياسة الرسميين المستعمرين والمستوطنين ، ولكن الواقع يبقى أن مصاير الإرساليات والاستعمار ، كانت مرتبطة بعضها ببعض ، وأن نهاية أحدهما تستتبع نهاية الأخرى ، وأن مدى مستقبل الكنائس المسيحية فى إفريقيا ، هو مدى اهتداء الإفريقيين إلى المسيحية فى إفريقيا ، أو مدى رغبتهم فى

أن يكونوا مسيحيين . يجب أن يقودوا هذه الكنائس على أى حال ، ويجب أن يقرروا بأنفسهم طبيعة علاقاتهم مع المسيحية العالمية،ومع إخوانهم الإفريقيين .

وقد حاول عالم سياسى ، دافيد ا . ابتر ، من جامعة شيكاغو ، أن يلخص الموقف بهذه الكلمات الممتازة .

إذا اضطلعت الحكومات الإفريقية بمهام التمرين والتطوير ، وإذا أصلحت القومية الاختلالات النفسية الناشئة عن تغير الثقافة ، بأن محت ضرر جدتها ، وبأن ماحكتها بالمجتمع الأفريقى فما الذى يبقى للدين ؟

إن مجرد مجهودات الوطنية لإصلاح ميزان الماضى والقيام بمحاولات تغيير مجتمعاتهم ، يزيد من صعوبة تموين الاحتياجات الشخصية لكثيرين من الرجال والنساء فى إفريقيا . إن القومية عملية الشباب لا المسنين . إن الشباب فى الحركات القومية ، والقومية ظاهرة فى الشعوب الفتية . ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يتصارعون فى حياتهم الخاصة مع معانى التغيرات الطارئة والتعديلات اللازم إجراؤها ؟ لهؤلاء يمكن أن تكون الكنائس مراكز ضرورية للتفكير . يمكنها أن تساعد فى تحسين بعض آثار التغيير السيئة . يمكنها أن تحتفظ بشخصية الناس وكرامة الإنسان كفرد . إن الخطر يكمن فى أن القيم الإنسانية يمكن أن تفقد فى المجهود الهائل لخلاص الإنسانية كمجموعة . فى هذا ، تستطيع الكنائس أن تشارك القوميين فى المهام المنتظرة مستقبلا ، من ناحية تزويد الفرد ومن ناحية ، تزويد المجتمع كوحدة . ولكن هذه ليست مهمة المبشرين .

وتعرض مارجريت ج . فيلد ، فى دراستها الحديثة ١٩٦٠ ، عن غانا الريفية « البحث عن طمأنينة » بصيرة خلابة عن المهام التى تواجه الكنائس الإفريقية ، إذا ما تضاءل نفوذ الإرساليات ؛ وتصارعت الكنائس ، بدون معونة خارجية ، مع المشاكل الروحية للإفريقيين العاديين .

وطبقاً لما ذهبت إليه الدكتورة فيلد ، لن يكون لاختفاء المبشرين من المسرح تأثير مذكور على معتقدات الإفريقيين العاديين الدينية . لأن هذه المعتقدات لم تتأثر حقيقة تأثيراً عميقاً بالمبشرين على أى حال . وبينما كان من

الشائع فى العالم أجمع لعلماء السلالات البشرية الرثاء لتحطيم الإرساليات المسيحية للنظام القبلى ، إذا بالدكتورة فيلد تعتقد أن هذا من قبيل الضرب فى حصان مات منذ أمد بعيد . وتكتب :

« إن علماء السلالات البشرية ، الذين كانوا منذ ثلاثين عاماً ، ساخطين على جهل المبشرين فى سوء تقديرهم الديانات الأهلية فى بقاع العالم المختلفة ، يمكنهم الآن ، إذا ما نظروا فى مناطق غانا ، أن يشاهدوا الموائد تقلب رأساً على عقب . إن الإفريقيين الجهلاء كانوا دائماً دهاة ومحافظين منتقدين أكثر مما ظن المبشرون أو علماء السلالات البشرية . إن الأجانب كانوا هم البسطاء ، وكانت المسيحية دائماً موضع الملاحظة ، ببغض من الوثنيين الإفريقيين ، وإن منع الأدب ، والمصلحة الشخصية الثابتة ، الإفصاح عنه » .

ووجهة نظرها أن للكنائس المسيحية عملا مرسوماً أمامها لايمكن قياسه تماماً ، حتى يكون لدى الإفريقى العادى الفرصة لتقدير المسيحية كإفريقية وليس كظاهرة معادية . وحاليًّا يرتفع جدًّا شك الوثنيين الإفريقيين فى المسيحية . ومن الغريب أن نقطة الانتقاد الأساسية هو أن المسيحية ينقصها بجزى فضيلة الأخلاق ؛ وطالما بقيت المسيحية مشروعاً خاضعاً للسيطرة الأجنبية أساساً ، فإنه يمكن طرحها جانباً كضلال غريب ولكنه وقتى . ولكن رجال كنيسة إفريقيين ، أحراراً من الإدارة الأجنبية ، تكون لديهم كرمة مشوقة يمكن العمل فيها .

إن السنوات الطويلة التى قضتها الدكتورة فيلد فى غانا قد أقنعتها بأنه إذا فكر الإفريقيون أصالة فى المذاهب . . . فإنه لا مجال لمقارنة المسيحية بالوثنية.

« إن المسيحيين يدرسون أن لله ابنا واحداً ، وإن كان هذا الابن ما زال — ببراهين ضعيفة فى نظر الوثنيين — يعمل لمصلحة مريديه — ويعتقد الوثنيون أن لله أبناء كثيرين — كل الأبوسوم (الآلهة) يعملون له بطريقة مؤثرة ومقنعة . . وإن الكثيرين من الأوبوسمفو (القسيسون الوثنيون) الذين زرت

معابدهم قد عمدوا كمسيحيين . كان أحدهم يلبس صليباً دائماً ، كما كان هناك صليب آخر معلق فى سقف محرابه . وأول أوبوسمفوا ، فى مفراماسو ، لم يؤسس مدرسة مسيحية فى قريته فحسب ، بل اعتزم بناء كنيسة ليعبد الرب فيها صباح كل أحد ، فى الفترة بين جلستيه بمعبد الأبوسوم . وأحد الشيوخ حالياً فى معبد مفراماسو هو أيضاً أحد أعمدة الكنيسة المسيحية ، التى تقع على بضعة أميال — وهو الذى يقوم بمعظم التنظيمات حين يزورها رئيس الأساقفة . ويقدره كل من المجتمعين ، الوثنى والمسيحى ، لرجاحة عقله ونشاطه وإخلاصه وكرمه ، وسألته مرة عن السبب فى أنه ، وهو المعمد مسيحياً ، أصبح شيخاً فى معبد أوبوسوم ؟ فأجاب ببراءة جادة « إن أى شخص يمكنه أن يرى أن لأوبوسوم قوة » .

هذا ، وليس النطاق المختلط الذى يجب أن تعمل فيه الكنيسة الإفريقية ساحة محددة للصراع الفكرى . وتبعاً لرأى الدكتورة فيلد ، لا يعانى الإفريقيون العاديون ، حتى هؤلاء الذين تعلموا تعليماً سطحياً ، من انفصام العقلية مثل ما يعانى إخوانهم المتعلمون . لا يعانون من آلام الشعور بأنهم تتجاذبهم الآلهة القبلية من ناحية ، ومدركات المسيحية من ناحية أخرى . إن أسباب التحاقهم بالكنائس المسيحية متباينة ، ولكن الدكتورة فيلد تقول : «حتى النسبة الضئيلة التى تؤمن عن اقتناع أكيد بتفوق العقيدة المسيحية ومواساتها ، لا تعتنق تبعاً لذلك ، الاعتقاد بعدم وجود الآلهة التى توقفوا عن عبادتها . والحقيقة أنه جرت عادة مثل هؤلاء المهتدين أن يأخذوا هدايا وداع إلى أماكن آلهتهم القدامى المقدسة ، وأن يشرحوا أنهم لم يقصدوا أية إساءة . ويرجون ألا تعد هذه إساءة . وهذه الحفلات الصغيرة تنتهى عادة بوعد من المهتدى بأنه قد عمل ترتيبات مع أحد أقربائه المسئولين بأن يقوم نيابة عنه بتأدية التزاماته قبل الأوبوسوم .

وفى معظم الأحايين ، يستمر المسيحيون الإفريقيون الجهلاء وأنصاف المتعلمين ، فى أداء واجباتهم فى المعابد الوثنية . وتدعى الدكتورة فيلد أنها رأت حتى « أساتذة جامعات ، ومحامين وأعضاء فى الجمعية

التشريعية ، وبعض الرجال المتعلمين تعليماً راقياً فى القطر فى طقوس أبوسوم المدينية . وتختم الدكتورة فيلد قائلة :

« إنه صحيح تماماً أن أعضاء الكنائس المسيحية الرسميين وموظفيها — مثل شيوخ الكنيسة وأساتذة المدارس حينما يستنصحون معابد ، يذهبون إلى البعيدة منها ليخفوا زياراتهم عن رؤسائهم المسيحيين ، ولكن هذا لا يوحى بوجود تعارض فى عقولهم ، وإنما هو مجرد انتقاد لجهل المبشر العميق بأمور ما فوق الطبيعة ، فهو لا ينقصه الفهم فقط ، ولكن تنقصه أيضاً الرغبة والقدرة عليه . فيجب لذلك إرضاؤه وخداعه . ولكن الإفريقى لا يخدع نفسه ؛ ولو أنه ، لأسباب حكيمة ، يخدع هؤلاء الذين يستطيعون فصله أو سحب درجته التعليمية ، ولا يحتاج ضميره إلى ترضية كما لا تحتاج أعماله إلى تعليل » .

إنه لمن الطريف أن نتصور مستقبل رجال الكنيسة الإفريقيين حينما نتعرض لاحتياجات الإفريقيين بعد « استبعاد » وجود الرؤساء المبشرين . مما يبدو مؤكداً أن رجال الكنيسة الإفريقيين سوف يستفيدون أكثر من بعض نواحى الدين والثقافة الإفريقية ، ولن يترك هذا النوع من « الاغتناء » بعدها إلى الهيئات الانفصالية . من الجائز مثلا أن الإفريقيين ، فى دور الحواريين المستقلين ، سوف يضعون تركيزاً على الله أكثر من المسيح ، كنقطة أولية للتعاليم المسيحية . إن المسيح لا يتلاءم بسهولة مع النسق الإفريقى للأشياء ، ولكنهم يطبقون فكرة الكائن الأعظم . ولا يعنى هذا أن المسيح سوف ينسى . ولكنه يعنى أن تفهم المسيح سوف ينبع من تفهم الله وليس العكس .

وهناك تحول ثان محتمل فى التركيز ؛ قد يحدث فى تطوير فكرة الكائن الأعظم ليشمل دين الأسلاف « إن الإرساليات المسيحية لم تظهر حتى أقل تقدير لأهمية دين السلف الإفريقى ، ومع هذا فهو الرباط الذى لا ينفصم لوحدة حياة الجماعة الإفريقية .

وكما قال شرو يشاير فى كتابه : « الكنيسة والشعوب البدائية » : « إذا كانت المسيحية لا تستطيع أن تجد مكاناً لهذه العبادة ، فهى إذاً لم تجد

نفسها بعد . . . سوف يكون من الأيسر لرجال الكنيسة الإفريقيين الذين تحرروا من الإرساليات أن يجدوا مكاناً للقوة التى تغذى فى الحياة الإفريقية الفضائل الأولية ، مثل الحب بين أعضاء العائلة ، والتصرف السليم قبل زملاء الشخص المباشرين .

واحتمال ثالث هو تركيز أكبر على الاحتفالات الزراعية داخل النطاق المسيحى . إن الإفريقيين ما يزالون أساساً شعباً ريفياً زراعياً ، وهم مدركون جداً أنه لنجاح المحصول لا يلزم فقط المهارات والصناعة البشرية ، ولكن يلزم أيضاً شعور من التوافق مع العالم غير المرئى . ويكاد يكون من المؤكد أن رجال الكنيسة الإفريقيين سوف يجدون مكاناً فى التقويم المسيحى للاحتفالات – بما فيها الرقص ودق الطبول – التى تبارك الحب وقت الغراس والشكر على المحاصيل وقت الحصاد . وكما يصرح أحد زعماء الميثوذستية الإفريقيين : يمكنهم أن يعوضوا بفائدة هذا البند ، الذى طالما أزعج تقاويم الكنيسة الميثوذستية أيام آحاد القيامة .

ويعطينا مؤتمر المسيحية والمدنية الإفريقية الذى انعقد فى أكرا سنة ١٩٥٥ إرشاداً رابعاً . لقد تقرر فيه ، « أن الخسارة التى يتضمنها إلغاء الاحتفال (تسمية الطفل التقليدية) كانت كبيرة جداً ، وأنه يجب الإبقاء عليها »، على أن تعدل الصلوات الموجهة إلى الأسلاف باستبدالها بالصلوات المسيحية .

وفيما يتصل بحوادث الحياة العامة – الميلاد ، الزواج ، الموت – لا يوجد أدنى شك فى أن المسيحية « المؤفرقة » سوف تزيد من اهتمامها بالطابع الإفريقى الطبيعى ، ومن الجائز ضم التعميد وتسمية الطفل التقليدية ، ومعها سوف تنتهى العادة الإرسالية فى إعطاء الأطفال الأفريقيين أسماء « مسيحية » ، وعلى كل حال فإن كل ما فعلته هذه هو وضع المسيحية فى طابق منفصل . إذا جمعنا التعميد والتسمية الإفريقية معاً ، فلا ثمة داع ألا يبدو طبيعياً جداً ودينياً أن نطلب من أحد الأسلاف أن «يعيش ثانية » فى طفل ، وأن يهبه أحسن خصائصه . وهنالك تعليق سديد على هذا قاله أحد أصدقائى

المسيحيين الإفريقيين؛ « إن هذا سوف يعطى الطفل مستوى فى حياته المستقبلة ليحاول الوصول إليه . إن تعميده وإدخاله إلى الحظيرة المسيحية وهو يدخل عالم أسلافه يكون لائقاً تماماً .

ويكاد يكون من المؤكد أن مزج العناصر الإفريقية فى حفلات الزواج والجناز سوف يحدث . لسنين عديدة كان المبشرون الحساسون منزعجين بما كانوا يعتقدون أنه التزامهم بجحد حفلات الزواج والدفن الإفريقية إذا تما على الطريقة التقليدية . ولن يكون من المحتمل أن رجال الكنيسة الإفريقيين ، إذا تركوا لأنفسهم ، سوف يعانون من الموانع التى يتميز بها مرشدوهم الإرساليون . ومن كلمات عالم لاهوت إفريقى مسيحى « أن إعداد المنظر ، الإطار الخارجى لهذه المناسبات ، يجب أن يؤخذ رأساً من الحضارة الإفريقية ، وأن يكون جلىّ التذكرة بها . ولكن المعنى المضمون ، خاصة ما يعبر عنه بالكلمات . يجب أن يخدم الأغراض المسيحية ويغذى الطبيعة المسيحية . . . إن الشىء المهم هو أنه فى كل مناسبة يرتفع فيها الشعور ، يلزم أن يوجد عادة امتزاج الشكل الإفريقى بالمضمون المسيحى » .

استجابة الإرساليات الأمريكية

من الواضح أن تتابع الحوادث الإفريقية الكاسح قد وضع المبشرين فى مركز حرج فكيف كانت استجابة المبشرين الأمريكيين ؟

كتب جون ر. جيبسون ، أحد مراسلى جريدة والدستريت ، من روديسيا الجنوبية فى أغسطس سنة ١٩٦١ .

« سواء رغب المبشرون أو لم يرغبوا (وكثير منهم لم يرغبوا) ، فإن الضغط يقع عليهم لكى ينحازوا إلى أحد الجانبين فى المسألتين : العنصرية والسياسية . ويرسخ فى أذهان الإفريقيين باطراد النظر إليهم كممثلين للولايات المتحدة الأمريكية بدلا من مجرد رجال دين مسيحيين يعلون على السياسة . وشيئاً

فشيئا يترك الكثيرون منهم مراكزهم القديمة كمبشرين ومدرسين ورسل سلام إلى مستشارين فنيين لرجال الكنسية الإفريقيين والمعلمين الذين يؤخذون من الأهالى ، وحتى يتكيفوا لهذه الظروف الجديدة امتحن المبشرون ومرنوا ، وأعيد تقديرهم كما لم يحدث قط قبل ذلك » .

وطبقاً لتقدير يعتمد عليه ، يعمل فى إفريقيا ١٥٩٧٠ مبشراً بروتستانتيًّا أوزهاء ٣٥ ٪ تقريباً من المجموع البالغ ٤٢٢٥٠ مبشراً . وبما أن كنائس أمريكا الشمالية هى التى تسيطر الآن على المسرح الإرسالى ، فإننا يمكننا أن نفترض أنها المسئولة عن نصيب الأسد فى مصروفات الإرساليات . وتقرر مكتبة البحوث الإرسالية فى نيويورك أن المصروفات التى تحملتها الولايات المتحدة للإرساليات فى الخارج قد ارتفعت بنسبة ٣٢ ٪ فى السنوات الأربعة الماضية . ومعظم هذا قد ذهب إلى إفريقيا . والمعدل السارى للمصروفات الخاصة بأعمال إرساليات الهيئات البروتستانتية الأمريكية وحدها حوالى ١٧٠ مليون دولار فى السنة .

ومن الواضح أن إفريقيا ، من وجهة النظر الإرسالية ، هى قلب العالم . ويرعى أكثر من أربعمائة منظمة كنسية أمريكية ، نوعا أو آخر من المجهودات الإرسالية ، فى حين أنه بالمقارنة ، لايعمل فى كل سفارات وقنصليات وزارة الخارجية سوى سبعمائة مواطن أمريكى . وقد أفاد جون جيبسون أن عدد الإرساليات المختلفة فى روديسيا الجنوبية كبير لدرجة أن الحكومة قد حاولت كبح المنافسة على البشر بتحريم إرسالية على بعد أقل من خمسة أميال من الأخرى .

وإذا كانت فكرة البعثات الإرسالية أصبحت حقيقة لامحل لها الآن فى إفريقيا ، فإن مشروع الإرساليات الأمريكية لايظهر أى علامات حالية لخفض درجة النشاط . على أن ما يجده الشخص ، هو نوع من البحث المضطرب عن الروح ، صوّره الدكتور ثيودورل تاكر السكرتير التنفيذى للجنة الإفريقية ، قسم الإرساليات الأجنبية لمجلس الكنائس القومى فى مؤتمر البحوث

العليا فى جامعة شيكاغو ، عن أفريقيا المتغيرة وقوة المسيحية الدافعة » الذى انعقد فى فبراير سنة ١٩٦٠ ، إذ تشكى الدكتور تا كر من أن الإرساليات والمبشرين فى إفريقيا لايكادون يعرفون من الأوصاف التى يسبغها عليهم كثير من الخطباء الإفريقيين ؛ ومع هذا فإنه اعترف بأن هذا فى الواقع هو ما يعتقدونه بإخلاص ، وهو ما رأوه فى أثناء مراقبتهم لنا فى أثناء العمل » .

واستطرد تاكر : « إن الفكرة الشائعة ، وإن تكن غير دقيقة ، عن الإرساليات تلزمنا بأن نسائل أنفسنا هذا السؤال : أليس فى مجرد كلمة " إرسالية " إيحاء بالتفوق والتدخل ؟ ومع هذا نذكر أن الكلمة تستعمل يومياً تقريباً فى الجرائد الدنيوية . إن هنالك إرساليات (بعثات) سياسية ، وإرساليات تجارية ، وإرساليات المعونة الفنية ، سواء من وطننا أو من الأمم المتحدة . إن ما يكون إرسالية ليس الأشخاص أو العمل أو المكان إنما واقعة الإرسال فى حد ذاتها . وإن أى مجموعة من الأشخاص تسيطر عليهم فكرة اعتقادهم بأنهم قوة دافعة ، لهم رسالة . ولا شك فى أن القوتين العظيمتين فى عالمنا الحالى : الولايات المتحدة وروسيا ، لهما رسالة فى هذا المعنى .

« ليس من غير المنطق إذاً أن تكون للكنيسة المسيحية أيضاً رسالة فى هذا المعنى . إننا نعتقد بأننا جزء من الكنيسة التى هى الآلة التى اختارها الرب لخلاص العالم ونفاذ أغراضه . . .

« وكما قال إميل برونر : إن الكنيسة قائمة على رسالة كما تقوم النار على الاحتراق . فإذا ما تطلعت الكنيسة إلى العالم الخارجى . فليس لديها الخيار إلا فى التنصير ، وهنالك حقيقة دور للمبشرين فى إفريقيا اليوم ، وهو العمل فى نطاق مهمة الكنيسة الرئيسية فى التبشير »

والرجال من أمثال تاكر، مدركون تماماً أن مستقبل الإرساليات المسيحية غير مستقر فى إفريقيا . إنهم واعون جداً للموقف الجديد وما يتطلبه من تعديل فى التصرف والدور . هم ليسوا بأى حال واثقين ، ولكنهم مصرون على

استمرار المحاولة ، وما زالوا يضعون خاصتين فى أول قائمة الخصائص المطلوب توافرها فى المبشرين : اقتناع شخصى قوىّ مع معرفة شخصية « بعيسى المسيح » ، ومقدرة فائقة فى تفسير الإنجيل . ويتلو ذلك تقدير واضح للعالم الذى يعيش فيه المبشر . ويعنى هذا بالنسبة لإفريقيا ، الاعتراف بالقومية كهدف أسمى وقدرة على الاستجابة إيجابيًّا لمصالح الإفريقيين السياسية ، والاستعداد للعمل تحت الإدارة الإفريقية ، ويعنى أيضاً تناولا جريئاً لمشاكل العلاقات العنصرية فى مناطق تتضخم فيها مشكلة العناصر .

ويقول الدكتور تاكر : « ويلزمنا أيضاً أن نكون على بينة من التغيرات التى طرأت نتيجة لنمو المدن والصناعة فى كل مكان بإفريقيا . وإذا كان معظم إفريقيا ما زال ريفيًّا ، فإن المناطق المتحضرة فى زيادة مستمرة ، وتتزايد أهميتها ، وحيثما ينفذ نظام الهجرات العالمية ، فإن الكثيرين من الرجال البالغين يمضون معظم وقتهم بعيداً عن عائلتهم وهم يعملون فى الصناعات . وحتى الآن فإن إرسالياتنا تخللت المناطق الريفية فقط ، ولم نقم بمجهود كاف لننتهز الفرص الجديدة بازدياد المدن » .

وتشجع الإرساليات الإفريقية خصيصة أولية أخرى ، وهى تفهم الإسلام بعمق كما يزاول فى جنوب الصحراء ، ليس بروح مجاهد ، وإنما لتعرف المجهودات اللازمة لهداية الإفريقيين من الإسلام إلى المسيحية .

وباستثناء بعض الجماعات البروتستانتية ، فإن تجنيد المبشرين الآن يتضمن غربلة واختباراً نفسيين دقيقين للتأكد من أن المرشح يستطيع أن يصمد لصدمة ثقافية شديدة ، وأنه قادر على أن يكيف أحاسيسه للتعامل مع الإفريقيين . وهنالك أيضاً طلب متزايد على المهارات الفنية الحقيقية ، مثل تلك التى لدى بروس ساملى من متشيجان ، الذى يتولى رياسة برنامج المزرعة النموذجية بإرسالية « أولد أومتالى » بروديسيا الجنوبية ، ويعرف عن الجرارات وتربية الأرانب ، والدورات الزراعية على الأقل مثلما يعرف عن الإنجيل . وهو يعلم أيضاً كيف يعمل تحت إمرة رئيسه الإفريقى المحترم

كينيث شوتو ، رئيس أولد أومتالى ، الذى يشارك ج . مينين وليامز فى التحيز لرباط العنق .

وقد أوضح الدكتور أمورى روس ، تسانده أربعون سنة من الخبرة الإرسالية فى إفريقيا ، استجابة الإرسالية الأمريكية للاضطراب القومى الإفريقى فى هذه الكلمات الرنانة :

« إن المهمة الحقيقية الجوهرية الثقيلة لإفريقيا ، ولنا ، وللعالم ، هى خلق مجتمع مسيحى فى إفريقيا ، بمشاركتها هذا المجتمع المسيحى الذى لايعنى فقط بالشعوب ، وإنما يعنى أيضاً بكل ماله صلة بحياة الناس : الأرض ، الغذاء ، الكساء ، المأوى ، الصحة ، الدين ، الجهل ، الأدب التعليم ، المواصلات ، الرياضة ، الاقتصاد ، العائلة ، المجتمع ، الحكومة — كل هذه الأشياء يهتم بها المسيحى ، أو يجب أن يهتم بها بالنسبة لكل المسحيين فى كل مكان ولكل الناس . . . للمسيحيين هى جزء من عملهم الدنيوى فى كل جيل ، وقد ألزمتنا بهذا العمل تعاليم وهدى المسيح منذ ألفى عام مضت ... إنها خدمة « الوحدة » فيها أساس ، لأنها يلزم أن تضم كل الإنسان ، وكل الحياة .

إنها خدمة لن تستطيع الحكومات أبداً أداءها كاملة . إنها خدمة أساساً من الشعوب ومع الشعوب ... إنها للمعلمين والمزارعين ، للاقتصاديين والمهندسين ، للأطباء والأدباء ، للفنانين والمحامين ، للنجارين والموسيقيين ، للبيطريين والقسيسين ، ولأصحاب المطابع ورجال السينما ومحررى الجرائد . هذه أشياء يجب أن تعمل فى بلدنا ، وفى إفريقيا ، ويجب أن يقوم بها كل شخص . لأنها تتناول كل الحياة ، هى شعوب تعمل مع شعوب لمصلحة جميع الناس .

« ليس فى هذا شيء خيالى أو مثالى . إنه إحدى حقائق الحياة الأساسية الثابتة ، هذا هو وقت التقدم » ، هذا هو التحدى لقوة المسيحية الجديدة

الدافعة . . . لإفريقيا كنز فطرى . إنه شعور بكمال الحياة القادمة ، شعور لم يتعدل تقريباً منذ الأيام الأولى لخلق الإنسان . وللغرب أيضاً كنوزه ، بعضها مع ذكريات كبيرة من السرور والجمال ، حتى إن الروح لتتعذب لتصل إليها . ولكن الكمال فى الغرب قد ضاع تقريباً .

ويستطيع المسيحيون أن يقولوا بحق إن إفريقيا لديها ، مباشرة من خالقنا ، بعض الكمال البدائى الذى نسعى إليه بشغف . فلننضم إليها ولنساعدها جهدنا بما نعلم ، وبما نستطيع عماله معاً كرجال أحرار ، قد ينقذ العالم روحه » .

ويمكن تصوير بعض الدلالات على أن آمال الدكتور روسى العظيمة ليست على غير أساس تماماً بعشرات من الأمثلة المنتقاة . وإنى أختار مثلا واحداً فقط ، وهو إليزابث مونى مبشرة كيونويا ، التى ذهبت إلى كينيا لتبدأ مركزاً لمحو الأمية . وشعرت الآنسة مونى فى أسابيعها الأوائل فى نيروبى كما يشعر طبيب بدون مرضى .

فطبقاً لمنظمة الأمم المتحدة التعليمية ، (يونسكو) يوجد ثمانية من كل عشرة من البالغين فى كينيا لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ولكنها ظلت تسأل نفسها ، أين هم الأميون ؟

إنها اختارت نيروبى لمجهودها الأساسى ، لأنها ظنت أنه يكون من الأيسر فى عاصمة الاتصال بالطلبة المأمولين ، ولكنها لم تعمل حساباً للريبة التى قابلت إعلانات عربات الدعاية الحكومية بأن الآنسة مونى مستعدة لإعطاء دروس فى القراءة والكتابة . واكتشفت ، مؤخراً ، أن الإفريقيين النيروبيين اعتقدوا أنها كانت خطة للحصول على مزيد من الضرائب ، أو على مبرر لنقلهم خارج المدينة إلى بعض المناطق الداخلية ، وإذ مرت الأسابيع ، حاولت الإعلانات اليدوية ، والملصقة ، والراديو . وبالرغم من ذلك فلا طلبة هناك ولا مدرسون ، ولا موظفون .

وأخيراً — وتعتقد الآنسة مونى أنه استجابة لصلواتها — قابلت الدكتور جيكونبو كيانو ، وهو دكتور فى الفلسفة من ستانفورد ، كان يلقى دروساً فى الاقتصاد فى الكلية الفنية الملكية بنيروبى . وكان قد سمع فرانك لوباخ يتكلم فى الولايات المتحدة . أنصت باهتمام إلى الآنسة مونى ، ووافق على أن يجند لها مدرسين متطوعين . وقال : « لقد ساعدنى كثير من المسنين لأتلقى تعليمى ، والآن سوف أساعد كثيراً من المسنين ليتلقوا تعليمهم » .

وأنفق الدكتور كيانو طوال شهر إجازته فى التكلم مع جماعات إفريقية . ووجد أن الناس قد ظنوا أن برنامج تعليم محو الأمية سوف يطلب اعتمادات لازمة لبناء مدارس إضافية لأبنائهم . وشرح أن هذا برنامج قائم بذاته ، وأنه حينئذ سوف يكون أكثر قدرة على مساعدة أولاده ومجتمعه .

وقبلوا كلماته ووثقوا فيها ، وكسر الجليد بأن وجد أول عشرين من المدرسين . وفى بحر أربعة أشهر ، كان هنالك ثلثمائة طالب مقيد فى فصول نيروبى . ثم أتى الحظ الحقيقى .

ذهبت الآنسة مونى إلى اجتماع سياسى إفريقى ، وأعطت وصفاً موجزاً عن برنامجها ، وأخبرتها إدارة التحقيقات الجنائية لحكومة كينيا الاستعمارية وقتئذ بحزم أنها قد اقترفت زلة . ولكن كان توم مبويا نفسه هو الذى دعاها للكلام وعمل كمترجم لها . وأضحت « زلتها » أحسن خطوة قامت بها فى إفريقيا . فى بحر أسبوع ارتفع القيد فى سجلات محو الأمية إلى ثلاثة أضعافه . وانتشر البرنامج — كالنار فى الهشيم ، من نيروبى إلى القرى فى كينيا حيث تعيش الأغلبية الساحقة من الأميين البالغ عددهم فى الدولة مليونين ونصف المليون

إعادة التسليح الخلقى : هراء أو أمل ؟

بصراحة قد دهشت لعدد المرات التى سألنى فيها الأمريكيون عما أظنه فى « إعادة التسليح الخلقى » فى إفريقيا . يلوح أن كثيراً من الأشخاص قد قرءوا النبذات والخطابات الإخبارية ، والمجلات ، والإعلانات ذات الصفحة الكاملة التى تدعى فيها قوات إعادة التسليح الخلقى التى تعمل بين الإفريقيين، قيامها بأعمال تطويرية عظيمة وخيّرة

وللذين لا يعلمون أذكر أن حركة « إعادة التسليح الخلقى » بدأت منذ عشرة عقود ، مؤسسها هو الدكتور فرانك ن . د . بوكمان القسيس الثورى. وقد توفى الدكتور بوكمان فى أغسطس سنة ١٩٦١ . ومستقبل المنظمة التى أنشأها وسيطر عليها غير مؤكد ، ولكن ما إن حل موته حتى كانت مدت نشاطها المموّل جيداً حول العالم . وعدد أتباع بوكمان غير معروف ، حيث لا توجد كشوف بالأعضاء أو الطوائف . وقد تمسك بوكمان بإصرار باسم مسيحى لحركته . ولكن كتابات « إعادة التسليح الخلقى » ، يلاحظ عليها نقص اللغة اللاهوتية . وبعض الأشخاص المهمون جداً الذين أشاروا إلى تأييدهم للحركة فى الماضى والحاضر هم جنرال جون . ج . بيرشنج وهنرى فورد والأدميرال وليام ه . ستاندلى ، وكونرد أديناور ، ونورمان فنسنت بيل وريتشارد نيكسون وماى وست .

وبأساليب شخصية تعظ منظمة إعادة التسليح الخلقى بأربع فضائل مطلقة : الأمانة، النقاء ، عدم الأنانية ، الحب . وفى برنامجها الإخبارى للجمهور ، تؤكد الحركة بإصرار الفكرة بأن نظرية إعادة التسليح الخلقى وحدها هى القادرة على التصدى للشيوعية بفلاح .

« إن الخيار للعالم بين إعادة التسليح الخلقى والشيوعية » .

وفى السنوات القريبة ادعت كتابات إعادة التسليح الخلقى دوراً ضخماً فى وقف امتداد الشيوعية بإفريقيا .

ولم أستطع أن اكتشف أيًّا من معجزات حركة إعادة التسليح الخلقى فى إفريقيا، ولكننى اصطدمت بكثير من ردود الفعل، ومعظمها معاد . وقد بالغت المنشورات فى تصريح نسبته إلى رئيس جمهورية الكونغو كاسافو بو أن تأثير حركة إعادة التسليح الخلقى قد «وجد سر التحرر لإفريقيا» ، وتكررت الاستفادة من خطبة ألقاها نمادى أزيكيوى سنة ١٩٤٩ . وكان مكان الخطبة فى خليط « إ . ت . خ » الفخم من المنزل واللوكاندات بمدينة كو بسويسرا . وقد تكلم أزيكيوى بحرارة عن «تجربة كو المدهشة» ، وبالغ فى مديح إ . ت . خ « كجزيرة من السلام والتوافق فى بحر من النزاع » . ولكن مهما كان التأثير الأولى الذى طبعته إ . ت . خ على هذا السياسى القومى النيجيرى المحنك ، فإنه قد أودع شكوى أخيراً ضد استعمال اسمه بغير إذنه فى كتابات إ . ت . خ . وتحمل نسخة ٣ يونيو من جريدة غرب إفريقيا هذا التقرير : لقد سرنى رؤية شكوى الدكتور أزيكيوى الوجيهة ضد سوء استعمال اسمه بواسطة إعادة التسليح الخلقى » فى إعلان على صفحة كاملة أرادت الحركة إيلاجه فى كل الجرائد النيجيرية (وقد فطنت بعضها إلى هذا ورفضت الإعلان الذى كانت قيمته أقل قليلا من الألف الجنيه أو أكثر التى تدفعها حركة إ . ت . خ فى صفحة « بلندن تايمز ») ، وقد زعموا أن الحاكم العام الذى لم يستشر بأية طريقة ، قد صرح أنه قد وجد بمركز إ .ت . خ الرئيسى « بكو » فكرة أثبتت أنها لؤلؤة ذات قيمة كبيرة، ولكنه احتج على أن إ . ت . خ . كانت تستعمل اسمه لمصالحها الشخصية الأنانية ، وهى فى الواقع كانت تفعل ذلك من سنين . وإنى لأتساءل عما إذا كان نائب رئيس وزراء سيراليون ، الذى نسب إليه أيضاً مقال فى إعلان ، قد استشير ؟

وليست الشكاوى من تصرفات إ . ت . خ دائماً بهذا الاعتدال أو الاتزان . ونورد هنا بعض ردود فعل إفريقيين أيًّا كانت قيمتها :

« إن إ . ت . خ ظاهرة عابرة فى إفريقيا . ومثل أفكار أخرى تتدفق الآن إلى إفريقيا ، فإنها سوف تلقى التحدى من القومية ، وبخاصة من المتحازين "للأفرقة" . إن أيامهم معدودات ، ولن يمضى وقت طويل قبل أن تطرد من إفريقيا هذه المنظمة المزيفة ، الخائنة ، والاستعمارية .

إن الأشخاص الذين يصرفون أموالهم على إ . ت . خ مغفلون ، ومغفلون أيضاً أولئك الإفريقيون الذين يتجهون إلى إ . ت . خ . إن كل العملية عمل مجانين . يجب أن تفيق الحكومات الغربية إلى نشاط إ . ت . خ قد يفيقون متأخرين ليجدوا أن إ . ت . خ قد تسببت فى أضرار أكثر مما تسببت فى نفع . من المحتم أن إ . ت . خ سوف تتسبب فى اضطراب إدارة سياسة أمريكا الخارجية فى إفريقيا . إنى دائماً أتعجب لماذا يكون أصحاب رءوس الأموال الأمريكيون مغفلين إلى هذا الحد ! ألا يدركون أنهم يقدمون خيراً أكثر لشعوب البلاد المختلفة لو أنهم أنفقوا أموالهم فى مشاريع راسخة للتطور الاقتصادى والاجتماعى عما لو أضاعوها على الشبان مختلى الأعصاب الذين يجرون وراء المغامرة والإثارة تحت ستار إنقاذ الآخرين من الانحلال الأخلاقى والشيوعية ؟

إن الإفريقيين الذين يقبلون رعاية إ . ت . خ ، ويسمحون لأنفسهم بأن يطاف بهم ويعرضون ، إنما هم نهازون للفرص . إن تصرفهم يمكن تعليله . إنه مفهوم ، وإن كانت الانتهازية بأى صورها يجب أساساً أن تجحد . ولكن ما الذى يمكن أن يتوقعه الشخص عدا هذا إذا كانت إ . ت . خ نفسها مذنبة بالانتهازية ؟ وحينما تشجع هى نفسها الانتهازية وحينما يكون ظهراؤها أيضاً انتهازيين ؟

« أجل لقد أخذت مالا من إ . ت . خ ، لقد تركتهم يطيرون بى إلى اجتماعهم العالمى ، وإلى الولايات المتحدة . وقد ألقيت كل الخطب الجميلة التى أرادونى أن ألقيها ، إننى أتقدم فى السن . كيف يمكننى بغير هذا أن أرى العالم ؟ ولكننى أرجو ألا يسمح لشبابنا أن يندرجوا فى هذه

الفئة . إنها لاتبشر بأى خير. إنها تستطيع فقط أن تضيف إلى الاضطراب الذى تعانيه إفريقيا اليوم »،.

لقد قرأت ما استشهدت به إ . ت . خ فى كتاباتها ، مما قاله الرئيس وليام توبمان من أن « إ . ت خ هى أحسن طريق للوصول إلى وحدة إفريقيا وحريتها . هل كان يتوقع منه أن يقول غير هذا ؟ ألا يعلن كل الرجال والنساء المحترمين هذه المبادئ العامة .

« إذاً فإنهم يحاولون تسليح الإفريقيين خلقياً ؟ هل يعنى هذا أنهم يعتقدون أن الإفريقيين منحلون خلقياً ؟ هو تكرار لنفس الأشياء مرة ثانية . إذا كان هنالك أشخاص فى حاجة إلى إعادة تسليحهم خلقياً ، فهم أولئك الذين فى الغرب ماذا تفعل « ا . ت . خ فى ميسسبى وألاباما ؟ »

وتتوالى على قراء منشورات ا . ت . خ قذائف من القصص عن شخصيات إفريقية تقوم بالاشتراك مع قوات ا . ت . خ « العاملة » بالمعجزات عن التطهير والأعمال المضادة للشيوعية . وتذكر أسماء هذه الشخصيات وتنشر صورها وتوصف بأنها « زعيم سابق لماوماو » ، و « عقيد غانى » » و « زعيم قومى نيجيرى » ، « ووطنى كونغولى شهير » ... إلخ ، وببساطة ، من المستحيل تأكيد هذه الأوصاف أو إثباتها . « فالزعيم السابق لماوماو ليس معروفاً للكينيين كزعيم سابق على أى وضع » . والزعيم القومى النيجيرى ليس معروفاً بهذه الصفة بين النيجريين . وهكذا بالنسبة للباقين .

وتعرض خيالة (سينما) « ا . ت . خ » بعض الأفلام من وقت إلى آخرى على نظارة إفريقيين ، كما تذاع بعض برامج ا . ت خ على بعض محطات الإذاعة الإفريقية . وتقيم وتقطع ، بعض جماعات من الإفريقيين علاقات مع « مبشرى إ . ت . خ » ومصوريها ، وقد عمل أحد رجال ا . ت . خ ، الدكتور وليم . ت . كلوز ، وهو جراح أمريكى ، بإخلاص وبدون أجر فى مستشفى بشرق ليبرلدفيل ، وقد كتب ، عملا ، كل نشرة من كتابات جماعة ا . ت خ .

ولكن يلوح أنه الوحيد من هذا النوع لأنه لا توجد قصص مشابهة .

ولقد كان ادعاء فرانك بوكمان أن حركته كانت « احتساباً لوجه الله ». وبغير أن تنازع هذا . ما زالت هنالك ضرورة للقول بأن إفريقية ليست فى جانب إعادة التسليح الخلقى . أما كنفوذ مسحيى فى إفريقية فإعادة التسليح الخلقى مهملة فى أحسن أحوالها . وهى مصدر مضايقة فى أسرتها .

هل ستكون « نشكركم » ، والآن « الوداع » ؟

إن أى شخص يحاول أن يتنبأ بمستقبل المسيحية فى إفريقيا يجاوز قدراته . إن المبشرين يطردون من غينيا والسودان والصومال ، ولكن هذه ثلاث دول فقط من دول حاضرة ومستقبلة كثيرة فى إفريقيا . ولا يمكن التنبؤ بما إذا كانت القومية الجديدة سوف تكتسح المبشرين من بلاد أخرى أم لا ، ولكن الحال الذى سوف نكشف عنه فى الفصل اللاحق يوضح الاحتياج الشديد إلى تعرف عميق لبعض التاريخ الذى يسطر الآن ، والذى غالباً ما نتجاهله .

إن جريدة القرن المسيحى الصادرة فى ٤ يناير سنة ١٩٦١ تحمل هذه التأملات المتزنة السديدة الصادرة من ج . ماكليود برايان عالم ويك فورست الدينى .

« ربما يكون من الجائز جداً أنه فيما يتعلق بنفوذ المسيحية الغربية على ما يحدث بإفريقيا ، سوف نضطر لأن نقنع بالدنو غير المباشر الذى تم عن طريق جلبنا للإنجيل وزرعنا لفكرة الحرية وبتعليمنا زعماءهم . ويلوح أن عهد تشكيل الحوادث السياسية الإفريقية بطرق مباشرة قد انتهى . ومن الشعور الذى سبق وصفه ، وهو شعور يكون جزءاً من المنظر الجارى يضاهى اشتراك العم توم فى الإرساليات ، إيمكننا أن نتوقع عاملا هاماً فى المسيحية الوطنية وهو أن تشارك فى صيحة تأميم المؤسسات ، بما فيها الكنائس . وهذا قد يعنى أن كل ما سوف تتلقاه الإرساليات سواء من أصدقائها ذوى

النوايا الحسنة أو من الزعماء الوطنيين الواثقين من أنفسهم هو مجرد « نشكركم والآن الوداع » .

ونحن نرغب بلهفة أن نستمع إلى أصوات الأمل فيما يختص بمستقبل الإرساليات فى إفريقيا . ولسوء الحظ . قد تكون هذه الأصوات هى شكاوى رؤساء الكنائس والمجتمعات المحلية ، خلقتها نسبياً تصرفات المبشرين . أكثر مما تكون أصوات صانعى سياسة الدول القومية الجديدة . وليس هذا تحذيراً مرتعباً ، ولكنه تذكير متزن بأننا لا نستطيع أن نتجاهل ما وراء تأخر الكنيسة الحالى فى إفريقيا .

مواقف النخبة الإفريقية تجاه الدين

« فى المستقبل القريب جداً ، سوف تخسر المسيحية نهائياً فى إفريقيا . إنها تخسر نهائياً فعلا . هل تظن أننى عائد إلى إفريقيا لأظل مسيحياً ؟ كلا : إن كارل ماركس كان على حق حين قال : « الدين هو مخدر الشعوب ». إن الدين يمنعنا من التقدم إن شعبنا يستمر فى الغناء ، والتصفيق للعبادة ، ولكن المسيحية تخسر لأنها عكاز ، وحينما لا يستطيع العكاز أن يتحملك ، فيجب عليك أن تضعه جانباً . بداهة ، قد تستمر المسيحية فى أن تعجب الطبقات الفقيرة التى تجد الوقت للإغراق فى الخيالات . وليس لديهم منافسة فعالة ، وليس لهم حياة عقلية ، أو ثروة مادية تمكنهم من تسلية مثمرة كالترحال ، أو الذهاب إلى الخيالة أو المسارح ، أو إقامة حفلات ، أو أن يستضيفهم آخرون . الدين هو مصدر التأمل الوحيد لهم . أما بالنسبة للطبقة المتعلمة فالدين لا قيمة له » .

جاءت هذه التأكيدات القاطعة رداً على سؤال بسيط : ماذا ترى مستقبل المسيحية كالالتزام الدينى لنخبة إفريقيا الناهضة ؟ المتكلم نيجيرى فى أواخر عقده الرابع ، متزوج وأب لاثنين . كان ميثوذستياً منذ أن بدأت ذاكرته تعى ، وقد قام بمهمة التدريس لبضع سنوات فى مدرسة إرسالية قبل المجىء إلى الولايات المتحدة ليقوم بعمل جامعى . وكان فى بلده واعظاً مرخصاً له ، وشغل عدة منابر للوعظ ، وقد أجاب عن السؤال بدون أدنى تردد ، بالرغم عن أنه كان يدرك أن إجابته تسجل كاملة فكلمة كما أننى لم أعط أى تفسير للغرض من السؤال .

وبابتسامة عريضة ، استمر فى قوله إنه لم يفته قداس أحد واحد فى أثناء إقامته فى الولايات المتحدة حيث كان يحضر كلية للزوج فى مدينة

بشرق بنسلفانيا . وقبل رحيله إلى الولايات المتحدة ، أعطاه رؤساء ميثوذستيون فى نيجيريا خطابات توصية إلى رؤساء ميثوذستيين هنا ، وقد حاول أولا الحضور فى الكنيسة الميثوذستية فى المدينة التى بها الكلية . وثبطه المتعصبون للجنس الأبيض من فعل ذلك ، وأشاروا إلى أنه لن يرحب به كعضو .

وبفضرل بديع ، بحث فى الموضوع واكتشف أن بنسلفانيا هى الولاية التى تأسست فيها الكنيسة الأسقفية الإفريقية الميثوذستية فى سنة ١٧٨٦ بواسطة ريتشارد ألان وشركائه . والسبب : النفور والإذلال الدينيين اللذين وقعا نتيجة للتفرقة العنصرية فى كنيسة ميثوذستية بفيلادلفيا . والنتيجة : انتشار كنائس منفصلة للزنوج فى الولايات المتحدة .

وبعد أن تعالوا عليه فى الكنيسة المحلية ، كان يسافر كل يوم أحد مسافة طويلة ليحضر فى أقرب كنيسة ميثوذسية للزنوج . وقال إن هذه الكنيسة كانت على بعد تسعة وثلاثين ميلا ، وكانت رحلة السيارة تكلفه كل يوم أربعة دولارات فى المتوسط وذلك بخلاف الهبات للكنيسة . وكان من ناحية مخلصاً للكنيسة الميثوذستية بالرغم من اتجاهه العدائى نحو مستقبل الكنيسة فى إفريقيا . وعلى أى حال فإن تفرقة رجال الدين الأمريكيين العنصرية كانت مريرة ، ولم يكن هو يفرق من وجهة نظره العامة للمسيحية بين البروتستانتية والكاثوليكية ، وإن كان يفضل الميثوذستية .

وحينما ضغطت عليه ليشرح لماذا يظن أن للمسيحية مثل هذا المستقبل الضئيل فى إفريقيا ، انتقد المبشرين وقادة الكنيسة الإفريقية . قائلا : إن المبشرين البيض الذين جاءوا إلى إفريقيا للتبشير بالإنجيل لم ينصروا شعبهم بعد . يجب عليهم أن يروا الرمد الذى فى عيونهم قبل عيون جيرانهم. أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن تكون هناك تفرقة عنصرية فى الكنيسة . إن الكنيسة مشروع تجارى ، وليس من المشجع رؤية المبشرين الأغنياء المتخمين ، ولاعق أحذيتهم القسيسين الإفريقيين وهم يجمعون المال من الفقراء . ولعل الكنائس التى يتولى الإفريقيون إدارتها أسوأ من ذلك ، إنها

بلا شك منظمات لغلّ النقود لمصلحة قادتها » .

وإذا تتابعت أفكاره أصبح أكثر تعارضاً : « إننى أفضل الميثوذستية . إنها بالنسبة لى ناد آخر أنتمى إليه . إننى أومن براحة العقل . وفى الكنيسة أجد الفرصة للتأمل . وأشعر بالراحة كلما استطعت أن أناقش مشاكلى مع قسيس . إننى أومن بوجود الله . ولا أعتقد فى الجنة أو النار ، فلا علم لى بوجود أيهما . إن القسيسين والمبشرين يضخمون النار جداً . إننى أومن بوجود كائن يستجيب لدعواتنا ولا أعتقد فى الأرواح ولا معنى لها لدى » .

لقد طرح ، ظاهريًّا نغم ، « التيم » روح العالم غير المرئية ، التى لها كما سبق أن قررنا أهمية قاطعة فى معتقدات إفريقيا التقليدية .

وكان هذا النيجيرى يتكلم بحرارة واقتناع عميقين حينما هاجم الكنيسة ، والمنظمات الإرسالية والدين عامة . ومع هذا فمن الواضح أنه متناقض وجدانيًّا . من جهة كانت هنالك رغبة حاول عبثاً أن يخفيها ، هى أن يرى تصفية حركة المسيحية جمعاء فى أفريقيا ، ومن جهة أخرى كانت هنالك مشاركات شخصية ناضجة مع العبادة المسيحية والكهنوت .

هل لهذه الأحاسيس أى مغزى ؟ إننى أسجلها لأنها مثالية لجزء ضخم من النخبة الإفريقية الناهضة ، طبقة تتكون من نساء ورجال متعلمين ذوى مهن ، مدرسين ومثقفين . إنها ما زالت طبقة صغيرة فى معظم بلاد إفريقيا ، وهى تضم الذين أتموا الدراسة الثانوية فقط ، والذين لديهم التمرين الجامعى ، وأخذ بعض أعضائها تعليماً أقل رسمية ، ومن بينهم محررو الجرائد ، ورؤساء النقابات العمالية ، وسياسيون مشهورون ، ولكن بسبب مجهوداتهم الشخصية ينتمون بحق للنخبة المثقفة . إنهم صانعو آراء إفريقيا . وجه إفريقيا للعالم .

وبين النخبة كثير من ممتهنى ومزاولى المسيحية ، ولكن حينما يواجهون بمثل وجهات النظر التى صرح بها النيجيرى يبدءون يعتذرون ويدافعون . تراهم يدافعون عن المثل المسيحية ، ولكن من غير المحتمل أن يدافعوا عن

الكنيسة والمبشرين بحرارة تماثل حرارة المهاجمين . وهذا ضعف خطير للمؤمنين المسيحيين فى نخبة إفريقيا الصاعدة . وهو من بعض النواحى أكثر إيذاء لرسالة المسيحية فى إفريقيا من مهاجمة المنتقصين .

إن كانت هذه هى القاعدة العامة ، فإن هناك استثناءات هامة . كتب ندا بانينى سيثول ، وهو وطنى من روديسيا الجنوبية ، عن دور المسيحية فى إفريقيا : « إن الكنيسة المسيحية بإرسالها البعثات الإرسالية الدينية والتعليمية والصناعية إلى إفريقيا قد وسعت أفق كثير من الإفريقيين ، منحت فرصاً لكثيرين منهم ليطوروا سجاياهم الدفينة ، كما ثبطت الكراهية القبلية وشجعت بدلا عنها الأخوة العالمية . ومن نواحى كثيرة أعطت الكنيسة المسيحية إفريقيا قادة سياسيين متزنين . إن القيادة السياسية الحالية المستنيرة لإفريقيا كانت تبدو شبه مستحيلة لولا الكنيسة التى نشرت التعليم فى أجزاء كثيرة من إفريقيا .

وبين النخبة الإفريقية من يشارك سيثول رأيه . وقد يكون آخرون أكثر تحفظاً . وفئة ثالثة قد ترى فى كلمات سيثول « دفاعاً عاطفياً من عميل » .

ومنذ سنوات قليلة ماضية نظمت مؤسسة العلاقات الإفريقية الأمريكية « وهى الآن شركة المؤسسة الإفريقية الأمريكية » منافسة كتابية بين الطلبة الإفريقيين فى الولايات المتحدة . وكان الغرض من هذا المشروع الحصول على وجهة نظر الشباب الإفريقى عن تقوية العلاقات الإفريقية الأمريكية ، وتقرر أن أربعين طالباً ، فى التعليم الثانوى والعالى ، قد دخلوا المنافسة . وكان الطلبة موزعين جغرافياً كما يلى : نيجيريا ٢٥ ، ليبيريا ٤ ، غانا ٣ ، جنوب إفريقيا ٢ ، أفريقيا الجنوبية الغربية ١ ، الكاميرون ١ ، روديسيا الشمالية ١ ، كينيا ١ . أوغندا ٢ .

ولأن الطلبة كانت لديهم أقوال كثيرة عن التبشير المسيحى ، فإن أوراقهم تمثل مسحاً واسعاً يندر وجود مثيله ، لعواطف النخبة الإفريقية الدينية .

وكتب ليبيرى : « إن من أعظم الفوائد ، إن لم يكن أعظمها ، التى تلقتها إفريقيا من الولايات المتحدة هو عمل مبشريها . لقد ذهبوا

إلى جميع أصقاع القارة وأنشأوا كنائس ومدارس ومستشفيات . لولا هؤلاء المبشرون ، ما تقدم التعليم فى أجزاء كثيرة من القارة كما هو الآن » .

وصرح طالب من أوغندا بالفكرة نفسها : « لعل أكثر العلاقات بين إفريقيا والولايات المتحدة توافقاً وفاعلية قد تم خلال عمل المنظمات غير الحكومية كالإرساليات ومعاهد التعليم والمؤسسات الخيرية . . . وليس فى عقولنا أدنى شك فى إخلاص الأمريكيين ووفائهم لإفريقيا ، ولأجزاء أخرى من العالم بهذا الصدد » . ولكن البعض كان مستعداً تماماً لأن يدين معاونات المبشرين بانتقاد شديد . وقد كتب طالب نيجيرى : « إن المبشرين حسنى الطوية الذين يذهبون إلى إفريقيا يؤكدون حقيقة أن الإفريقيين فقراء ، وبالتالى فهم يحاولون جمع المال من وطنهم لمساعدة إفريقيا . . . وقد يكون من الأفضل جداً لو أنهم أكدوا الواقع بحق بأن الإفريقيين فقراء لأن الاستغلال والسيطرة حرمتهم من مواردهم الطبيعية وثروة قارتهم ».

ووصف طالب آخر المبشرين بأنهم « وكلاء لسوء التمثيل الخارجى » ، وقال إنهم « كانوا ذئاباً فى جلود نعاج » ، وعلى المنهج السليط نفسه كتب طالب : « إن المبشرين مذنبون بأكبر خداع حماسى لجذب الناس للعمل الإرسالى ».

واتهم نيجيرى ، يسير على النمط نفسه ، المبشرين بأنهم يثبطون المنظمات الأخرى على العمل فى إفريقيا : « إن الإرساليات الأجنبية التى ساهمت فى التطور فى إفريقيا كثيراً ما تقف فى سبيل منظمات أخرى تود أن ترد إفريقيا . إنه من المؤلم أن بعض المبشرين يعودون إلى بلادهم ويقصون قصصاً مرعبة بغرض جمع التبرعات لإطالة عملهم فى إفريقيا . وبالرغم من أنهم يحصلون عادة على استجابة الشعب مالياً ، فإن الانعكاسات التى تنتج من مثل هذا القصص تشوه صورة الإفريقيين بين شعوب البلاد الأجنبية . وبالتالى تثبط عزيمة بعض المنظمات الأخرى بصورة غير مباشرة عن الذهاب إلى الخارج . ويكون الوضع أكثر تقديراً لو أن مثل هؤلاء المبشرين كانوا أكثر كياسة فى اختلاق قصصهم .

ولا مشاحة فى أن التشويه قد أصاب صورة إفريقيا لدى الأمريكيين للأسباب التى ذكرها هؤلاء الطلبة . إن العنف ، والبؤس والبدائية مغريات يصعب على بعض المبشرين مقاومتها فى تقاريرهم المرفوعة إلى طوائفهم فى بلادهم ، ولو أنها تتضمن التضحية السالفة . وللموضوع أهمية لأن بعض الإفريقيين يتوسعون فى تفسيره إلى ذلك الحد . إنهم يرون فيه كشفاً عن كيفية أن بعض الأشخاص ذوى النوايا الحسنة أساساً — وهم فى هذه الحالة المبشرون — يمكن أن يقعوا فى أحبولة تجاهل علاقة الوسائل بالنتائج التى يتطلعون إليها .

وتتبع المناقشة الإفريقية هذه الخطوط : إن مبالغة المبشرين الكبيرة فى أحوال الحياة الإفريقية محسوبة لكسب الطوائف فى أوطانهم لاستمرار أعمال التبشير ، وطريقة تحقير الشعوب الإفريقية مؤسفة ، وإن تكن تبرر مساعدة كثير من أعمال الإصلاح الضرورية . ولكن هذه الطريقة نفسها تعمل على مستوى سخيف . يفترض المبشر ، بناء على معتقداته الدينية ، تفوقه على هؤلاء الذين لا يشاطرونه معتقداته .

ويدعم الافتراض عينه فى علاقات المبشر مع الإفريقيين نتيجة لعمل التبشير نفسه ، إنه يسره أن يستحضر إلى إفريقيا ما اعتاده لشعوره بأنه أسمى عما لدى الإفريقيين . والشعور بالسمو يختفى بهذا تحت رداء من الإحساسات الخلقية والقوامة الدينية .

ومن الإفريقيين من هو صريح بقسوة عن هذا . قال أحدهم : « لست متأكداً من أن معظم المبشرين يمكنهم أن يفرقوا بتعقل بين هدفيهم المزدوجين ، ولا يبعد أن يكشف التحليل النفسى أكثر مما هم مستعدون للاعتراف به . لقد اعتاد مساعدوهم وكفلاؤهم فى أوطانهم منذ أمد طويل المؤثرات المسيحية الواردة فى تقارير ميدان التبشير الإفريقى . سوف يذكر لك أكثر من طالب إفريقى فى الولايات المتحدة وأوربا ما رآه فى الكنائس بهذا الخصوص . وإنى أتذكر شخصياً بعض حوادث . منذ أمد

ليس بالبعيد جداً ، حضرت إلى فتاتان نيجيريتان تدرسان فى مدرسة تكفلها كنيسة ، والدموع تملأ أعينهما . وقالتا إننى يلزم أن أفعل شيئاً فى هذا الموضوع . (كنت السكرتير التنفيذى لاتحاد الطلبة الإفريقيين فى الأمريكتين) ، كانت الفتاتان قد ذهبتا إلى برنامج كنسى حيث عرضت صور عن نيجيريا . وقدم المبشر نيجيرياً لنظارته بصورة فيها قرد . وكانت هذه أول صورة ، طبقاً لفكرة الفتاتين ، كانت تساعد على تمثيل أصل الشعب النيجيرى . والصور اللاحقة وصفت الحياة بين شعوب تيفا فى نيجيريا الشمالية ، وحتى هذا اليوم لا يرتدى كثير من التيفيين سوى ملابس قليلة جداً ، وهى فيما أعتقد من جلود الحيوان وأوراق الشجر . وقالت لى الفتاتان إنه لم يعرض شيئاً آخر عن نيجيريا ورأتا أنه يجب أن أحتج رسمياً إلى الهيئة . وكانت هذه التجربة كافية لأن توغر قلبيهما ضد المبشرين، بل أيضاً ضد الإرساليات المسيحية فى إفريقيا .

وفى الأوراق المكتوبة للمؤسسة ، انتقد عدة طلبة المبشرين لاتخاذهم دور الشهداء الذين تركوا راحتهم الدنيوية فى أوطانهم ليعيشوا ويعملوا بين متوحشين حقيقيين . وقد علق أحد الطلبة من كينيا على ذلك بقوله : « لقد تأثر كثير من الأهالى حين سمعوا عن البلاد الجميلة وتسهيلات المعيشة الكثيرة التى ضحى بها هؤلاء المبشرون فى أمريكا ليذهبوا ويعيشوا معهم ».

ومن الواضح أن هنالك عنصراً من الصحة فى هذا . إن المبشرين يقدمون فعلا كثيراً من التضحيات الشخصية ، ولكن المفكر الإفريقى يفترض أنهم كانوا يعلمون ما يفعلون حين قبلوا هذه المهمة . وبمعنى آخر ، إن الادعاء بالتضحيات هو مثار تسلية بين الإفريقيين . ومن موضوعات الحديث المفضلة بين الإفريقيين بعد أن بدأت الكونغو تستقر أن نفس المبشرين الذين فروا وهم يصرخون من الاغتصاب والقتل كانوا أكثر تلهفاً على الرجوع ».

وكتب طالب نيجيرى : « أتذكر أن إحدى الإرساليات الأمريكية كان المرظفون البريطانيون دائمو الشكوى منها . كان للإرسالية الأمريكية مستعمرتها

الخاصة ، مقاطعة متميزة ومكتفية ذاتيًّا . وكانوا يعيشون فى منازل بديعة ، وكانت لديهم أكبر السيارات وأحدثها . وإذا ما قورنوا بالإفريقيين فالمبشرون كانوا يعيشون فى الجنة . وفى كل الأشياء كانوا يعيشون فى سعة من جميع النواحي . وكانت أماكنهم لا يمكن لأى رسول إفريقى غير متعلم أن يدخلها ، كما لو كانت ثكنات جيش ونسبيًّا كان الإداريون الإنجليز غُيُراً . ومن ناحية أخرى فإنى أعتقد أنهم كانوا يرددون نقداً مشروعاً . وفى رأيى أن الإداريين الذين عملت معهم كانوا من سلالة كائنات بشرية أحسن من كثير من المبشرين الذين عرفتهم . هذا حكم قاس ، ولكننى سمعت كثيرين من الإفريقيين الذين كانت لهم صلات قوية مع المبشرين البيض يتذمرون بمرارة من قصورهم وغرورهم » .

تشكى طالب آخر من الطريقة التى يشجع بها المبشرون أفراد طائفتهم على تقديم الهدايا من الفاكهة واللحم وغيرها من الأشياء ويقبلونها منهم . كتب :

فى الواقع أن الإفريقيين شعوب كريمة وأننا نعبّر عن كرمنا بتقديم الهدايا ، ولسوء الحظ قد حول المبشرون هذه العادة إلى التزام ، بل إن هذه العادة قد امتدت إلى مدارس الإرسالية الابتدائية . وإنى أذكر أن أخى حينما كان يعود من المدرسة كان يسأل أهلينا أن يشتروا له بعض البيض ليستطيع أخذه إلى المدرسة لأن بعض الكنسيين الرسميين سيزورهم . وقد امتثل والدى فى أكثر من مناسبة ثم اضطر لأن يضع حدًّا لهذا . وأعتقد أن العادة توقفت فى هذه المدرسة بالذات ، على أنه كان من النتائج بعيدة المدى لهذه العادة أن الطبقات الصغيرة من الكهنة الإفريقيين والعمال الدينيين قد خطوا خطوة أبعد من المبشرين وحولوها إلى رشوة سافرة لأداء نوع أو آخر من الخدمات» .

وحتى هؤلاء الذين مدحوا عمل المبشرين كثيراً ما نقدوا تصرفاتهم حيال الحضارة الإفريقية ، وعلق على هذا طالب من أوغندا : « لقد

طالبوا المهتدين بأن يتركوا العادات والتقاليد التى تصبح الحياة بدونها لا قيمة لها . كانوا مذنبين بغرور حضرى ، بتصرف أنانى حيال الإفريقيين الذين عدوهم وثنيين ملعونين » . وقد انتصر على المبشرين حين قرر أنهم لايفرقون فى تدريسهم بين ما هو « أفكار دينية خالصة » وما هو « مجرد تصرفات اجتماعية » .

ولما نوقشت هذه النقطة مع الإفريقى المتفلسف ، قرر أن المبشرين كانوا حقيقة يتصرفون كأنما يطيعون رأى الأستاذ ديتريتشى وسترمان عالم السلالات الألمانى المسيحى الذى حذر : « مهما كان المبشر متلهفاً لتقدير القيم الاجتماعية والأخلاقية للأهالى والحفاظ عليها ، فعليه أن يكون عديم الرأفة فى مسألة الدين . . . عليه أن يعترف ، بل يؤكد أن الدين الذى يعلمه يعارض الدين القائم وأن على أحدهما أن يسلم للآخر» .

والصعوبة هنا أن قليلا من الغربيين من يمكنه التأكد من أى الأفكار الإفريقية دينى ، فى المفهوم الغربى ، وأيها يكون تصرفاً اجتماعياً وحضرياً ؟ وكما وضح إفريقى قادر على التمييز : « إن النزاع بين المسيحية والحياة الاجتماعية والحضرية الإفريقية ربما يكون أكثر المسائل خطورة على الكنيسة فى إفريقيا . إنه لهذا النقطة بالتحديد يلزم قيادة إفريقية للكنيسة ، لأنهم يجب أن يكونوا مستعدين للمنافسة سواء مع التقليديين أو مع النخبة الصاعدة والمثقفين ، ليوضحوا السبب الذى من أجله يجب علينا أن نهجر طريقتنا فى الحياة لمصلحة المسيحية . هنا تواجه المسيحية ، وسوف تستمر فى هذه المواجهة ، صعوبات جدية ، فى حين تنمى الوطنية الإفريقية أساطيرها وأفكارها الخاصة عن طبيعة الأشياء ، والمجتمع ، وعن الطبيعة نفسها .

وإنه لذو مغزى أن بضعة من الطلبة الذين دخلوا مسابقة فى المؤسسة طالبوا بنقل سريع للقيادة الإرسالية إلى أيد إفريقية إذا أريد تفادى ريب إضافية . وجاهر مساهم ليبيرى بموافقته على الإنحاء إلى هذا الاتجاه ، وذكر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية «كالأولى التى تلقنت الرؤيا ووضعت

فى حيز العمل قيادة إفريقية للكنيسة » .

ولكن حينما جوبه إفريقى آخر بهذا التصريح قال : « من الواضح أن هذا الشخص لا يدرك الخصيصة الانفرادية للقيادة الكاثوليكية والصعوبات التى لاقتها دول كثيرة فى علاقتها مع السلطة الكهنوتية فى روما . والحقيقة ، أن هذه الصعوبة قد ظهرت بشكل ملموس . وإنى أذكر ، على مستوى شخصى جداً ، أننى قد فقدت صديقاً إفريقياً عزيزاً . وقد أكمل منذئذ تمرينه لكهانة الكاثوليكية ، لأننا لم نتفق على مسائل سياسية وعلى الوسائل التى تتبعها الكنيسة الكاثوليكية . وابتدأت مشادتنا حينما كتب لى صديق مثنياً على أعمال جمعية الشبان الكاثوليك الذين كانوا أداة فى أعمال عددتها من أعمال الغوغاء ، وهى تفريق اجتماع لمرشح لم يوافق عليه الكهنة الكاثوليك. وكتبت إليه مقرراً ومذكراً بمدى خطورة هذا على ذات بقاء الكنيسة فى إفريقيا إذا التحم قادتها فى معارضات سياسية . ولم أسمع من صديقى شيئاً إطلاقاً بعد ذلك . على أننى قد نمى إلى علمى أنه هو نفسه قد أضحى متألماً من نشاط الكهنة الكاثوليك السياسى » .

وأعضاء النخبة الإفريقية عموماً صارمون فى المناداة بفصل الدين المنظم عن السياسة ، ويقول البعض إن سجل الإرساليات المسيحية ، فى معاملاتها السياسية « وما يتضمنه من خيانات صريحة للحقوق الإفريقية » قد جعلهم متلهفين جداً لأن يفصلوا بين السلطتين . وهنالك مثلا شعور سائد بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت مشتركة فى مؤامرات ضد حكومة الكنغو التى كانت تحت رياسة باتريس لومومبا . ويعم الشعور بأن التعدد الدينى كبير جداً فى بلاد إفريقية كثيرة حتى إن الفصل بين الدين الرسمى عن أعمال الدولة ضرورة عملية . ويخشى — حينما يصبح الدين مسألة سياسية أن تزداد قوة الشبح القديم لإفريقيا المنقسمة المهلهلة ، وكان شيء من هذا النوع فى ذهن القائد السياسى لنيجيريا الغربية ، الرئيس أوبافمى أوولوا ، حينما كتب فى سنة ١٩٤٧ : « . . . إن حكومة نيجيريا (الإدارة البريطانية)

قد ساعدت على طول الخط على أن يحتفظ لهب هذا (الدين الإسلامى) المتعصب مشتعلا ببهاء وبقوة . . .

وكان هنالك وقت حرمت فيه الحكومة على الإرساليات المسيحية إذاعة الإنجيل فى المقاطعات الشمالية . وحتى الآن تعمل الإرساليات فى مناطق محدودة . وكان التفسير الظاهرى لهذه السياسة أنها قد تجرح الأحاسيس الدينية للشمال الإسلامى . واحتج بأن هذا قد يكون له رد فعل سيئ – على سير المسائل السياسية هنا . ويرى الشماليون أن هؤلاء الذين يعيشون فى نيجيريا الجنوبية ، إذا لم يكونوا مسلمين ، فما هم إلا كفرة وثنيون، حتى لو كانوا مسيحيين . ولأنهم كافرون ، ينظر إليهم باحتقار واشمئزاز . وفى مؤتمر للزعماء الشماليين فى سنة ١٩٤٢ برز للمناقشة خطاب ورد من اتحاد طلبة إفريقيا الغربية بلندن . . . والتمس الكاتبون من الأمراء الشماليين وشعوبهم التعاون مع الجنوبيين فى حل هذه المشاكل . وكان تعليق الأمراء على هذا الالتماس بالتعاون كما هو منصوص عليه فى التقرير الرسمى للمؤتمر كما يلى : «إن الحفاظ على ترابط هذا القطر غير ممكن إلا عن طريق دين النبى ... إذا أرادوا وحدة سياسية فعليهم أن يتبعوا ديننا» .

ومع بروز حقائق الاستقلال أمامهم غير الأمراء وشعوب نيجيريا الشمالية خططهم السياسية وإن لم يغيروا فلسفتهم الدينية . إنهم الآن يعيشون سوياً مع كافرين فى نيجيريا متحدة حرة . ولكنه ليس من العسير تصور النزاع الذى ينتظر نيجيريا إذا نشدت هيئات دينية فعلا نفوذاً ومميزات خاصة .

إن هذا الاحتمال هو الذى دعا طالباً نيجيرياًّ بالمطالبة بإلغاء كل المدارس الدينية . قال : «لست أوافق على وجود مدارس يكفلها الدين فى نيجيريا . لا يمكن أن يكون لك سيدان . إن كل الأديان تنشد مهتدين . وتجد المدارس ممراًّ حسناً لتجنيد أعضاء جدد . يجب أن يكون

الفصل تاماً . يجب ألا يتدخلوا فى تعليم الشباب . لماذا نتحمل ضرائب مزدوجة . ضرائب الدولة للتعليم وضرائب الهيئات الدينية التى تفرضها على أعضاء طوائفها للمدارس الخاصة . وبالإضافة إلى هذا فإن إدارة معظم المدارس التى تكفلها الكنيسة سيئة . هنالك طوائف أكثر من اللازم وفلسفات تعليمية أكثر من اللازم ، وبالذات مبادئ تعليمية أكثر من اللازم . إننا نحتاج إلى إدارة حكومية كاملة لتعليم شبابنا . وإذ لم نفعل ذلك فإننا سوف نستمر فى تقديم شباب تعلم فى خيال أوربا أو العالم الأبيض . إن هنالك أخطاء كثيرة فى التعليم كما هو الآن . ويجب علينا أن نعيد صقل كل الموضوع إذ أردنا أن ننتج « الشخصية الإفريقية » .

وأعطى طالب آخر النقطة نفسها تشويها أكثر عنفاً : « إن الشر الأساسى للتبشير المسيحى فى إفريقيا هو تراثها النفسانى . المسيحية هى دين أسيادنا الجائرين الأجانب . وقد ينظر إلى زيادة انتشارها بين شعب يحاول أن ينفض عنه آثار أسياده الأجانب نظرة ريبة . وليست فكرة إقناع الرجل الأسود بقبول رب الرجل الأبيض سوى ترادف لإقناعه بقبول دوره الأدنى » .

وهذا التعبير الأخير ، على قدر مايبدو مندفعاً ، أساسى فى تفهم المرارة التى ، تشعر بها الفئة الصاعدة فى إفريقيا حين تتطلع إلى المسيحية كالتزام دينى محتمل . وتشكل هذه المشكلة نفسها بالنسبة لعضو من النخبة بهذه الطريقة : إنه صحيح جداً أن يقال إن نفوذ المسيحية أدخل العفن ، بدرجات متفاوتة ، فى تفكير رعيل القادة الإفريقيين الأول . إن جيلهم قد اعتمد كلية تقريباً على المدارس الإرسالية فى التعليم على كل المستويات عملا ، وقد بقى فيهم فضلة من النوايا الطيبة تجاه مشروع الإرساليات . وعلى هذا فالجيل الذى كان أول من تولى زمام السياسة الإفريقية فى يديه انتقد الكنيسة وبعض المزاولات المسيحية ، ولكن بشعور ميل خفيف وشعور بالتزام أدبى شخصى .

فى الخطبة التى ألقاها الدكتور أزيكيوى سنة ١٩٥٧ فى الاحتفالات المئوية لإرسالية النيجر التابعة لجمعية الكنيسة الإرسالية ، أظهر الوطنى

الملتهب الذى كان زعيماً وقتئذ ، شعوره بتجربته فى تقديم هذا الاعتراف الرائع بالجميل :

« يا صاحب النيافة ، إن واجبى الرئيسى أن أؤكد لكم ولضيوفنا المحترمين أن هدف جمعية الكنيسة الإرسالية فى هذه الأسقفية قد تحقق . إن الجمعية كانت ترسل المبشرين . والمدرسين ، والأطباء لتعليدنا وتبشيرنا وشفاء أمراضنا البدنية ، ولتعميدنا حتى يمكننا أن نمارس حياة جديدة فى مجتمع جديد يقوم أساساً على المسيحية . هذه البذرة التى غرسها هؤلاء المبشرون ذوى الرسالة قد آتت ثماراً يجب أن يفخر بها المجتمع . . . يا صاحب النيافة ، إنى سعيد أن أشارك فى إسهاب وإعلان هذا الإنجاز التاريخى بعد مائة عام من التضحية . والشهادة والثقة فى مستقبل الإنسانية . هذه معجزة حديثة . حقاً إن المجتمع المسيحى زمالة للأبطال الذين يعيشون بالعقيدة . هل كان يمكن بغير هذا للستة عشر قسيساً وللتسعة العلمانيين الذين أسسوا جمعية الكنيسة الإرسالية منذ مائة وخمسين وثمان سنين مضت ، أن يحلموا أحلاماً وأن يروا خيالا لنيجيريا متحررة من نير الخرافات ومتحولة إلى قلعة للمسيحية ، ولم يكد يمضى قرن على رسوداى سبرنج « فى أونيتشا » يا صاحب النيافة إن هذا من عمل الرب ، وإنه لرائع فى أعيننا .

هنالك الكثيرون من جيل أزيكيوى ، ولكنهم أقل جداً فى الجيل اللاحق . مستعدون لأن يشهدوا بمثل هذه الصيغ الباهرة على « معجزة » المسيحية فى إفريقيا . على أن الزعماء والمثقفين الأصغر سناً أكثر إحجاماً عن المدح واستعداداً للنقد . وإنه من المرجح أن يتكلموا بطريقة محايدة عن فرص المسيحية المستقبلة فى إفريقيا ، قائلين إن هذا سوف يتوقف على حكمة قيادة المؤمنين المسيحيين الإفريقيين . « وعلى تصرفاتهم واستقامتهم ككائنات بشرية طيبة » .

ويصرّ الشباب الإفريقى المثقف على أن المسيحية لم تعد تستطيع أن تضع فى سجل الأعمال أو التصرفات مبشرين أجانب لبيع دينهم للنخبة الصاعدة . وأحد

أسباب هذا الاعتقاد السائد بين كثير من المثقفين بأن فى مكنتهم اكتشاف مصادر بديلة لحياة ثقافية ، وأخلاقية ، وفلسفية مستقلة عن الأساس المسيحى الغربى ، وإن شاركت هذه المصادر كثيراً من المسيحيين فى أنحاء كثيرة من العالم فى مثل هذه القيم .

وليس من المحتمل أن تقودهم مثل هذه الترضيات البديلة إلى ارتباطات مسيحية لها نفس معنى ارتباطات نيريرى وأزيكيوى . وطالما كان للكنيسة المسيحية شبه احتكار لتعليم الإفريقيين ، فإن الرجال والنساء الذين تمرنوا ، أو الذين تمتعوا بهذه الخدمات ، كانوا مستعدين لرد فعل كريم تجاه العقيدة المسيحية ، على أنه ما دامت هذه الخدمات الآن تزداد إمكانية إدراكها خارج المجتمع الدينى فهناك موقف نفسانى مختلف .

شعور النخبة بالتاريخ

« تحيا أعمال الشريرين بعدهم . وغالباً ما يثوى العمل الطيب مع العظام» يصف هذا المثل السائر عن طريق المبالغة ما يحدث فى التفكير الدينى لكثير من النخبة الشابة . من الجائز ألا يكون هذا سوى مجرد رد فعل وقتى ، ولكنه السائد الآن . إن سجل الاتصال بالأوربيين هو أكثر تاريخ حىّ وحالّ يملكه المثقفين . وهذا السجل هو نقطة بدئهم فى محاولتهم تفهم موقفهم الخاص فى العالم المعاصر ؛ وتكاد تكون اجتماعات الشباب الإفريقى طقوسية فيما يتسلط عليهم من شعور بأن الإفريقيين كانوا آخر الشعوب المستعبدة فى التاريخ الحديث ، وإن الكنيسة المسيحية فى أعلى مستوياتها لم تر أى تعارض فى أعمال مواطنيهم الصارخة ، وإن استمرار الضغط على الزنوج فى الولايات المتحدة باق كدليل ورمز ممقوتين لهذا الإذلال .

وقد أفصح أوبو أوجانشاى مدير الدراسات الحرة فى كلية الجامعة بعبدان ،

هذه الفكرة المتسلطة « كمركب نقص عبودية » . وينصح بالتخلص منها بأسرع ما يمكن . ولكنه يصارع تياراً قوياً لا يجرى إطلاقاً فى مهده :

وفى مؤتمر للطلبة الإفريقيين فى الولايات المتحدة عقد فى جامعة شيكاغو سنة ١٩٥٨ قال الدكتور ألكسندر أوهين من توجو لأنده للمندوبين :

« إن اكتشاف واستعمار الإسبان للأمريكيين ، وافق عصر النهضة حين كانت قوة المال حقيقة فوق كل شىء . ولم يستطع المبشرون الذين تابعوا الغزاة أن يحموا السكان الأصليين من قسوة الاستغلال . وقد سافر لاس كاساس ، وهو أشهر المبشرين ، عدة مرات إلى أوربا ليفضح لمدريد سوء تصرفات المستعمرين . وقد كاد مواطنوه أن يشنقوه ؛ كما اتهموه بأنه كان لوثريًّا مستتراً » .

ومن جهة أخرى . تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين لا لمصلحة المسيحية ، وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية ، واسجلات المستعمرات مغزى واضح جداً فى هذه النقطة بالذات . . . وقال ملك فرنسا : « الدين ضرورى لكل الناس ، ولكنه أكثر ضرورة فى المستعمرات الآهلة بالعبيد التى لا يمكن أن تحوى أملا فى سوى حياة أفضل . . . بعد الموت » . وفى عصر النهضة ، كتب وزير البحرية إلى حاكم المارتينيك : « يجب على المبشرين أن يلاحظوا مدى خطورة الوعظ فى أثناء شرحهم المستفيض لقواعد الإنجيل الحكيمة ، بالمساواة التى تتعارض مع مبدأ الاستعمار المحكم . » وقال نابليون الأول فى جلسة مجلس الدولة فى الثانى والعشرين من مايو سنة ألف وثمانمائة وأربع : إن فى نيتى إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية ، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً لى فى آسيا ، وإفريقيا ، وأمريكا . سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار . إن ملابسهم تحميهم وتخفى أية نوايا اقتصادية أو سياسية » .

وقد أوضح للدكتور أوهين للطلبة أنه كان يعرف شخصياً كثيراً من المبشرين البروتستانت ، والكاثوليك الذين لم يتنازلوا عن مبادئهم . إن بحثه

لم يكن شخصياً وإنما كان تاريخياً . وهذا البحث يؤثر الآن فى الشباب الإفريقى تأثيراً أقوى من كل ما حققه الأفراد المبشرون من خير . ربما يكون قد تناول التاريخ بعقلية « رجل مستعبد » . ولكن التأثير حقيقى فى عقول النخبة الإفريقية الناهضة . هذا هو الميراث المرير حالياً . ومن المحتمل أن يزداد إحكامه فى المناهج الدراسية للبلاد المستقلة .

كانت لندن سنة ١٩٦٠ مسرحاً لمؤتمر لجميع الطلبة الإفريقيين فى المملكة المتحدة وشرق وغرب أوربا . والولايات المتحدة وإفريقيا . وثار هذا البحث بمرارة عن علاقة المسيحية التاريخية بالاستعباد والاستعمار والإمبريالية والعنصرية فى كل خطب المندوبين . وكان خطاب ب . شانجو ماكيو . الذى مثل اتحاد طلبة شرق ووسط إفريقيا فى المملكة المتحدة من أكثر الخطب حماسة :

« إن كل أمة فى العالم قد ضحكت علينا فعلا . لقد سخرت منا الأمم . صغيرها وكبيرها ، كنا موضع احتقار . وعلمنا كل نوع من الإساءة . والإذلال ، وسوء المعاملة الوحشى مما يطلق عليه اسم العالم المسيحى المتمدن . « أصدقائى » بعد بهيمة الأحمال . الإفريقى هو أكثر الحيوانات صبراً . لقد أدرنا خدنا الآخر ولكن هذا لم يكن قط موضع تقدير .. غنّينا ، وصفرنا ، وضحكنا فى أحزاننا . ولكن التصرف الإنسانى لم يكن له قط أى أثر على معذبينا ؛ إن الأرباح من العبيد الإفريقيين بنت قصوراً . وكنائس ومدناً . . . قد يبدو هذا كأنه تاريخ ، ولكن الاستعباد ما زال بين ظهرانينا حتى هذا اليوم : إن نصيب الرجل الأسود فى جنوب إفريقيا ، وفى روديسيا الجنوبية ، وأنجولا وموزنبيق . ما زال آلاماً نهائية وبؤساً غير محدود . إننا جميعاً عبيد لأن الملايين من شعوبنا ما زالت تتألم من إذلال السيطرة السياسية والاقتصادية والروحية » .

إن الزعماء والمثقفين الإفريقيين ، على النقيض من أسلافهم لجيل مضى ، تهاجمهم دوافع متسعة النطاق من طرق متعددة . فهنالك ادعاءات باطلة كثيرة عن إساءة المعاملة . كما أن تصرفات الدول المسيحية فى إفريقيا ما هى إلا مسائل نظرية محلية وشخصية . وتهاجم المسيحية لهذه الإساءات بتعبيرات

نظرية ، ويساند الهجوم إسهابات عن المداهنات . وقد أعطى ج. م. كايزال لطلبة فى مؤتمر لندن هذا البيان المحموم عن النشاطات الإرسالية فى ممتلكات البرتغال الأفريقية .

« ليست هنالك بالذات أية مدارس ، أو على الأصح توجد بعض مدارس تحت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ، هل تعلمون ماذا تدرس ؟ ليس حب الرب ، ولكن حب البرتغال . إن كل المبشرين الكاثوليكيين ، وإن لم يسموا موظفين رسميين . . فإنهم يعدون موظفين فى الخدمة الخاصة للمصالح الوطنية والمدنية . هذه هى الكلمات الفعلية لوصف مركز المبشر سنة ١٩٤١ . إن الأعمال الإرسالية فى المستعمرات تكفلها الحكومة » . واعتلى المنصة لويس داليدا ، من الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ، ليضيف بيانه السليط عن الأحوال فى أنجولا :

« كثيراً ماتكون الحالة أنه بدلا من أن يحضر الأطفال الإفريقيين دراساتهم أن يؤخذوا للعمل من الضيعات أو المزارع الإرسالية دون أن يعرفوا أى شىء عن القراءة أو الكتابة . . . ويجب أن يلاحظ أن تعليم السكان الوطنيين تقوم به الإرساليات الكاثوليكية ، وذلك تنفيذاً لاتفاق تم توقيعه من عشرين سنة خلت بين البرتغال والبابا . وطبقاً لهذه الاتفاقية تلزم الإرساليات الكاثوليكية « بتعليم اللغة البرتغالية خاصة فى المدارس . . . ويجب أن يتبع التعليم الأهداف التى ينص عليها الدستور البرتغالى » .

« . . . . واسمحوا لى أن أنقل حرفياً فقرة من مقالة حديثة للكردينال رئيس أساقفة لورنزو ماركس ظهرت فى مجلة البرتغال فى إفريقيا ، العدد الصادر فى مايو سنة ١٩٦٠ ، تقول المقالة : « إن ما يأمل المبشرون تحقيقه من تعليم وتهذيب الشباب الوطنى هو أن يحتفظ بكنيسة موزمبيق باستمرار إلى جانب البرتغال » ، وفى فقرة أخرى : « إن النشاط الإرسالى يمنح البرتغال فخراً فى المنظمات العالمية السامية ، ويكون سنداً قوياً للسيادة البرتغالية »

.... « هذه يا أصحابى هى المهمة المتمدينة المسيحية التى يقوم بها البرتغال . كونوا أنتم قضاة » .

وتناول النخبة الإفريقية الناهضة أساساً للموضوع من الناحية النظرية . هو أن تستنكر بتضرر مشاركة المسيحية للاستعمار . ومن المستحيل التنبؤ بما إذا كان هذا يعوق فى المدى الطويل الارتباطات الشخصية بالعقيدة المسيحية أم لا . ويسيطر على التفكير فى الوقت الحالى شك متناه مهمة المسيحية فى أفريقيا .

التراث النفسانى للمسيحية

غالباً ما يقوم الادعاء فى أوساط النخبة أن مجرد قبول الإفريقيين للمسيحية يكون نوعاً من التحول الثقافى والنفسانى . فالمسيحية جاءت ، ليس فقط كنظرية دينية بسيطة ، ولكن كمجموعة من القيم والقواعد الاجتماعية والحضرية رئى أنها أرقى من أى شىء قدمته الحضارة الإفريقية . ليس غريباً إذاً أن ينتج من ازدياد الشعور بالذات بين المثقفين الإفريقيين رد فعل عدائى بين الكثير منهم .

وقد قيل لى فى هذا فى المناقشة مع عالم إفريقى إنه « فى الحقيقة ، قد أظهر لنا كثير جداً من المسيحيين غروراً حضرياً فيه من قصر النظر ما فى نظرية السيادة - العنصرية الغربية . فى كثير من الأحايين ، كان يطلب من المؤسسات المسيخية مساندة كل من السيادة العنصرية والاستعمار الحضرى ، وقد قدموالنا الرب فى النظرية المسيحية أبيض ، كما أن كل الفضائل ، بما فيها مقاييس الجمال ، كانت بيضاء . وإن الضرر النفسانى الذى أحدثه هذا للزنوج فى العالم الجديد معروف لنا تماماً . على أن الممتع أن المثقفين الزنوج فى العالم الجديد لم يكن رد فعلهم لهذا الموقف فى مثل شدة ما حدث فى إفريقيا .

وبدلا من ذلك لم تجد النظريات التى تبحث فى دفع تأثير هذه الثلامات النفسية بين الزنوج الغربيين سبلا إلا بين الطبقات الدنيا مثل حركة جارفى . أو الحركة الإسلامية السوداء . أما فى إفريقيا ، باستثناء حركة الطبقات الدنيا فى «الكنائس الانفصالية الاستقلالية . فالعكس هو الصحيح . وقد اعترف الزعيم أوولوا . فى كتاباته عن تاريخ حياته ، أنه كان يعتقد فى صباه أن الرجل الأبيض رجل متفوق ، وأن لونه يمثل " الرقة والبراءة " والطهارة . . . لكم ظننت أنه كان رجلا عظيماً ، كم حاباه الرب بهذا الجلد الأبيض وبأن يشغل مركزاً من الرفعة المبجلة » .

. إن رد فعل الإفريقى المثقف على هذا التدرج فى التحول النفسى يدفعه إلى وجهة نظر تشابه مثيلتها فى الطبقات الدنيا الوطنية السوداء فى الولايات المتحدة . هنالك إنكار أن مرجع هذا إنما يعود إلى التفوق الأسود ، ولكن هذه التفرقة ليس من اليسير الدفاع عنها فى بعض الأحيان . على الأقل أنه نظر للأشياء ، بما فى ذلك الرب ، خلال عين الرجل الأسود . ونجد تعبيراً لذلك فى الأدب الأفريقى كما كتب المرحوم .ر .ج أراماتوا :

إن ربنا أسود
أسود من سواد دائم
بشفاه كبيرة فاجرة
بشعر متلبد وعينين عسليتين صافيتين
إنه ذو جسد جميل
لأن على صورته قد صنعنا
إن ربنا أسود !

وفى « الجنة السوداء » كتب نفس المؤلف :

والملائكة سود كالحبر الهندى
وغنى قديسون أحالك سواداً

إن هنالك أكثر من محاولة « لأفرقة » المسيحية . إنه نوع من رؤية العالم

كله خلال عين الرجل الأسود . وقد أدلى ملفين ج . لاسكى ، وهو بريطانى بدلوه فى التفسير : « ما هو لون الرب ؟ إذا كانت المسيحية الأوربية قد توصلت إلى إقناع الإفريقيين بأنه كان أبيض . وخرجت الوطنية الإفريقية لتقنعهم بأنه كان حقيقة أسود . إن هذا تحول طبيعى جداً لتقدير القيم اللونية ، وإنى أجد فى دراسة صان كلر (أنبياء بانتو) صفات لما يمكن أن تكون عليه جنة التفرقة العنصرية : هنالك علامة على هذه الأبواب اللؤلؤية مكتوب عليها « للرجال السود فقط » . . . بدأ التحرر الإفريقى تحت سحر المبادئ البيضاء ، ولكن الكفاح الأفريقى انتصر بعكسها » .

وقد تخلل تحول القيم هذا الحياة السياسية للزعماء الوطنيين الإفريقيين . ويذكر توماس هود كنز فى كتابه « الوطنية فى إفريقيا المستعمرة : أنه حتى فى غانا ، مع مستواها المرتفع نسبيا فى التطور الاقتصادى والتعليمى تضمنت مجهودات حزب مؤتمر الشعب لخلق حركة جماهيرية سياسية استعمال طقوس دينية معروفة : غناء « قدنى أيها الضوء الحانى » . ، وإنشاد الصلوات القومية ، ومذهب أخذ فيه كوامى نكروما مكان الرب ، فى حين لعب سيرارون كلارك (حاكم غانا وقتئذ) دور لونتيوس بيلات . وأبلغت عن ظاهرة مشابهة فيما يتعلق بقومية كيكيو فى كينيا ، حيث تعرفوا على جومو كنياتا فى ترنيمة عيسى المسيح . وحديثاً ظهرت مقالة فى جريدة « أكرا إيفننج نيوز » تقرر أن النكرومانية هى أرقى أشكال المسيحية ، وأفادت المقالة قراءها بجدية أن الطفل المسيح قد لجأ إلى إفريقيا ، وأنه حينما اقتيد المسيح إلى الجلجثة تقدم متطوع إفريقى لمساعدته فى حمل حمله الثقيل » .

واستمرت المقالة : إن المدنية المسيحية اليوم مشغولة بجر المسيح إلى جلجثة (الاختبارات الذرية فى الصحراء) ومرة ثانية يحمل إفريقى الصليب عن ابن الإنسان . هذا الإفريقى هو كوامى نكروما . أجل أيها الرجال ضعيفى الإيمان ، أيها الفريسيون ، أيها الأصدقاء والأنبياء المدعوون ، انظروا ها هو ذا يأتى

متخفياً . إنه مسيح ثان لإفريقيا وللعالم : يأتى حينما تتعذب الأطفال فى الأرحام من معدن سترنتيم ٩٠ . . . » .

وهناك بعض الشطط المزعج فى أطراف النهضة الحضرية فى إفريقية . ولا يبدو جلياً كيف قد يؤدى هذا إلى نوع ما من نهضة إفريقية متميزة . أما فيما يختص بالدين . فإن مجتمع النخبة ما زال فى حالة جحد ، وليس بعد فى حالة إنشائية . إن النهضة الحضرية عدائية جداً – الزنجية ، والشخصية الإفريقية – وإن لم يكن هنالك اتفاق محدد على مضمون النهضة الحضرية . وما يوجد هو اتفاق على مبدأ وجوب وجود شخصية إفريقية متميزة . وذلك بدون افتراض الأفضل من حياة العالم السياسية ، والاقتصادية ، والحضرية ، والدينية .

إن النزاع والاضطراب الانفعاليين اللذين ينتجان من هذا المجهود للحفاظ على شخصية حضرية ، والاقتراض فى الوقت نفسه مما هو أفضل فى مدنيات الآخرين ، قد التقطه كان ثيمبا فى كتابه « صلاة الجناز على مدينة صوفيا » .

« لأخبرنكم . فى عالم اليوم تجابه قوتان لنظريتين جماهيرتين كل منهما الأخرى ، قوة الشرق ، وقوة الغرب . وتمارس كلتاهما السياسة العالمية .

كأنما يلزمنا أن نختار بينهما ، بين كل منهما فقط . وبدأنا نكتشف أننا نستطيع أن نختار كما نشاء ، إذا نمت أخلاقنا بقوة كافية . ولكن هنالك ما هو أكثر من هذا . كان لدى الغرب وقت طويل جداً . ليكسبنا . ليكسبنا للتفكير الغربى ، طريقة الحياة المسيحية الغربية . إن أفكارهم عن الديموقراطية وقيمهم المسيحية كانت بديعة ، ولكنهم لم يكونوا يعنونها .

دعونى أشرح . إننا شعب متدين جداً . ونحن نقبل المثل المسيحية . ولكننا نؤمن بالحقيقة بإصرار وبشعور عملى . يجب أن تكون الأخوة المسيحية حقيقية .

الديمقراطية يجب أن تكون حكم الشعب فعلا : ليست صعلكة بيضاء على أكتاف أستاذ فن أسود .

بالنسبة لنا ، إذا قال طبيب ساحر إنه سوف يستمطر ، فإننا لا نريد فقط أن نرى الأمطار تهطل ، وإنما نريد أن نرى المحاصيل تبزغ من الأرض . أليس لهذا يوجد صانع الأمطار ؟ . . . وعليه إذا قال القسيس إن الرب إلى جانبي ، فإنني أريد رؤية فرص أكثر ، ولعنات أقل من الرجل الأبيض .

ولكن المسيحية الآن على أي الأحوال دين قد أصابه فقر الدم . إنها لا يمكن أن تحرك الماضي فيّ — خاصة غريزة (التشاك) الوثنية التي ما زالت لدى . والآن ، أنت وأنا متعلمون ، لا نأبه لهذيان السحر . ولا نريد أن ننحاز إلى ألاعيب الغرب . لكن مهما أنكرنا ، فإننا نريد الإثارة التي كانت في دماء أسلافنا البربرية . يقول البيض عنها إنها وحشية ، بربرية متغلغلة . ولكننا جميعاً بدرجات متفاوتة ، نريد لونها ونداءها المذبذب » .

وتجذب النهضة الثقافية الشباب الإفريقي المثقف إلى ناحية . في حين تجذبه المثل والمركز المسيحى إلى ناحية أخرى . إن هنالك من الأحاسيس الشخصية أكثر كثيراً مما يمكن التعبير عنه في تقرير هادئ من أجنبي .

ويقص بيترابراهامز ، الكاتب من الهند الغربية ، حادثة وقعت في لندن ، وفي الأيام الخالية حينما كانت أحلام الاستقلال الإفريقي ما زالت تخيلات رعناء لبعض الطلبة « اقترح نكروما إنشاء الحلقة (جمعية سياسية سرية) ، وطلب من كل منا أن يهرق بعض نقط من دمه في طاس ، وأن نقسم قسماً دموياً بالسرية ، ووقف الجهود لتحرير إفريقيا . وضحك جونستون كينياتا من الفكرة ، وسخر منها كعبث صغار ، جوجو ، وتصور نضالنا على أسس حديثة للقرن العشرين بلا طقوس وخزعبلات . وفى النهاية ابتعد فرانسيس نكروما عنا وبدأ ينشىء جماعة غرب إفريقيا . . . »

ومع هذا فإن صفحات كتاب كينياتا « في مواجهة جبل كينيا » تضع سافرة حاجته المجردة لأن يكون جزءاً من تراث كيكويو الروحى . وقد

أهدى كتابه إلى « ميوجوى ووامبوى وإلى كل شباب إفريقيا المتحرر : إلى تأييد أرواح أسلافنا ومخالطتها بالنضال للحرية الإفريقية ، وباعتقاد أكيد فى أن الأموات ، والأحياء، والذين لم يولدوا، سوف يتحدون ليعيدوا بناء الكعبة المهدمة » .

إن المشكلة الرئيسية لأى عضو من الصفوة الإفريقية هى أن يفكر خلال وجهة نظره الدينية بأوضاع تقابل خبرته . وللزعماء الأكبر سناً ، مثل كينياتا ونكروما . عقول تتجه بطبيعتها إلى المسائل الدينية . كان لهما فى سنواتهما الأولى كلف شديد بتعاليم المسيحية ، ولكنهما سرعان ما وجدا أن الأشكال الأوربية المختلفة للمسيحية باهتة ومحدودة جداً أمام احتياجاتهما النفسية . ومهما كانت المسيحية بالنسبة لهما فإن مظهرها لن يكون طائفياً . حتى بهذا الوضع لن تكون أبداً كافية لتدفئة الدم العجوز الذى يجرى فى عروقهما . وقد بحث كلاهما عن تركيب يجمع الأوضاع القديمة مع الاحتياجات العصرية . وأفصح كينياتا عن هذا فى كتابه « فى مواجهة جبل كينيا » ولما عاد نكروما إلى غانا بعد نفيه الطويل كطالب ، سرعان ما تضخمت عاطفته « لمثل إفريقية » بإشاعة شعبية . وكتب بيتر ابراهامز : « نمت الأساطير القبلية حوله . كان فى استطاعته أن يستمر بدون طعام أو شراب أو نوم لمدة أطول من الأشخاص العاديين . كان فى الحقيقة ، إعادة تجسد لبعض أرواح الأسلاف القوية جداً » .

وفى السنوات القريبة استمر كل من كينياتا ونكروما ، وإن اختلفت مراكزهما جداً . فى البحث عن إدراكات دينية توافق خبرتهما . وقد اشترى كينياتا فى أثناء وجوده فى سجنه بكينيا مجموعة ضخمة من الكتب فى الدين المقارن ، وأتم دراسة جدية عن العقائد الشرقية . ويقول إنه قد تأثر بالذات بجافاد جيتا .

وفى الوقت نفسه قرأ نكروما باتساع عن الهندوستانية ، والبوذية ، والكونفوشيسية والإسلام . وله اهتمام سفسطائى بالمشاكل النظرية فى المصادر الدينية لفلسفة عدم استعمال العنف . وحينما حادثته فى مقر رياسته فى أكرا،

تناول محفظة قديمة الأوراق وأخرج منها دعوات قال إنه كتبها حديثاً لتأملاته الصباحية .

ويظن رجال الكنيسة الأرثوذكسيون فى غانا أن نكروما قد انفصل عن عقيدته . حقيقة أن الدعوات التى أطلعنى عليها لم تكن صياغتها مطابقة للأشكال المسيحية المتعارف عليها ؛ ولكنها لم تكن أبداً تهكمية أو انفصالية . وكان من الواضح أنه كتبها على الآلة الكاتبة بنفسه ثم صححها مرات كثيرة بخط يده . كانت مرجهة إلى « رب جميع الناس الخالد » ولكن بدلا من إنهائها بالصيغ المسيحية المعتادة انتهت بمجموعة من التسبيحات والتبركات الإفريقية التقليدية .

إن محاولة تزوير مرمى روحى للسياسة القومية ، يتحدى النخبة الإفريقية ويحيرها ؛ ويقدر كل من كينياتا ونكروما ، مع ميولهما الفلسفية الطبيعية ، المثل المسيحية غير الطائفية ؛ ولكن ليست لهما رغبة فى الالتحاق بأى أشكال المسيحية المتنافسة .

هذا ويرتبط كلاهما بالنهضة الحضرية ، بمعنى اهتمام زائد بالقالب الإفريقى التقليدى وإن كان قد انجذب عقلاهما المتسعا الأفق إلى اكتشاف الديانات العالمية العظيمة .

وهنالك رحلة دينية فلسفية أخرى بين الزعماء الأكبر سنًّا ، وهى رحلة الرئيس أوولو . الذى يوضح تاريخ حياته الحديث « أولا : تاريخ حياة الزعيم أوباقيمى أوولو » كثيراً من دخائل نوع تقديسه الخاص » .

كان والد أوولو من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية بعد مجىء المبشرين إلى إكينه سنة ١٨٩٦ . ولم يحضر الوالد عائلته فقط لاعتناق المسيحية ، بل أحضر كثيرين غيرهم من خارج نطاق العائلة . ويصفه أوولو بأنه كان « مسيحيًّا » مخلصاً ومراظباً بلا انقطاع على الذهاب إلى الكنيسة ؛ وأنه كان « يمقت الوثنية وطقوسها المتعددة وشعائرها وأعيادها . وقد ضغط على لكى أتحاشى كل ماله علاقة بالوثنية . كان يكن احتقاراً للطبيب الساحر كما سخر علناً بالسحر والسحرة » .

وينظر « أوولو » خلفه إلى النشاط الإرسالى فى هذه السنين المبكرة بإعجاب عميق . وهو يشير إلى المبشرين « كرواد بسلاء » « عكسوا روح المسيحية وتعليماتها بقدر ما يستطيع أى مخلوق بشرى ، فى اتصالاتهم اليومية مع عشيرتهم الجديدة » . وهو يتذكر أنهم قد أكدوا عليه — وهو ما زال حدثاً — إدراك أن « المسيحية كانت بالتأكيد أسمى من الوثنية من نواح كثيرة » .

ومنحت الكنيسة أوولو تعليماً ، وأضحى هو قارئاً مشغوفاً . « وفى أثناء غزوى للمكتبة الآداب المتسعة ، عرض لى جزء كبير من كتاب كان مجموعة من رسالات ومحاضرات روبرت ج . أنجرسون . رفتن « أوولو » تماماً ، وجد نفسه يتسابق لاهثاً مع هذا الرجل العجيب ، وما جاء الوقت الذى انتهى فيه من غزوته الأدبية مع أنجرسون ، حتى ملأ إعجاب قلبه بمذهب اللاإرادية . وقفز إلى أعمال ملحد آخر ، توم باين ون . هـ. هكسلى وأمثالها . « منذ معرفتى العقلية والملية لأنجرسون ؛ كنت أحضر الكنيسة من وقت لآخر حينما يكون هناك حفل زواج ، أو جناز ، أو حينما تفلح زوجتى فى إصرارها على أن أرافقها ، وقد وجدت أنه من العسير على ألا أومن أو أشك فى وجود الله . ولكننى أنكرت بشدة الأساطير والخيالات التى حاكها الإسرائيليون وخلفاؤهم فى العقيدة حوله . وقد تمسكت قطعاً بوجهة نظر أنه خلال القرون ؛ خلقت جماعات مختلفة ، فى أزمنة مختلفة ، إلههم الخاص فى خيالهم المعوج ؛ وأنه إذا استمر هؤلاء المتعصبون العقائديون فى إبراز الإله الذى خلقوه بأنفسهم بدلا من الإله الحقيقى ، فإنه سيكون هنالك دائماً مكان للرجال الحكماء ذوى الشجاعة فى اقتناعهم أن يشعروا بأنهم مضطرون لجحد الإله الذى صنعه الإنسان » .

ومن ١٩٤٤ إلى ١٩٤٦ كان « أوولو » فى إنجلترا حيث لم يجتز برا به كنيسة وستمنستر وكتيدرائية سانت بول . على أنه قد حضر بعض

اجتماعات الآحاد « لجمعية سوت بلاس الأخلاقية » بكونواى هول . ويتذكر أنه كل مرة حضر فيها الاجتماع « كنت دائماً أخرج بأسئلة فى عقلى : لماذا هذا التقليد الممسوخ وغير الحكيم لطريقة العبادة المسيحية ؟ وقد لاح لى أكثر من ذى قبل أن الكائنات البشرية تحب بطبيعتها الطقوس والاحتفالات. وسواء آمنوا بالله أم لم يؤمنوا فإنهم دائماً يرغبون فى عبادة شىء وتقديسه: علم أو معبد ، قبر ، أو صورة لبطل توفى ، أو شخص حىّ حاضر ، أو غائب . . . وظننت مخلصاً أن شيئاً ما كان ناقصاً فى اجتماعات كونواى هول . . . وبدأت أعيد تقدير المثل والمزاولات المسيحية ، ومقارنتها بالمدركات اللا إرادية ، والتجريد والإلحاد (وأخيراً عدت إلى الإنجيل المقدس وإلى حظيرة المسيحية) . [ما بين القوسين من كتابتى] وإبان فترة التذبذب بين اللاإرادية والمسيحية وقفت زوجتى بلا تزحزح مع الأخيرة . وقد فعلت عظاتها كما فعل رسوخ عقيدتها أكثر من أى شىء آخر لمنعى من الوصول إلى نقطة اللاعودة » .

ومغزى رحلة « أوولو » مختلف عن رحلتى نكروما وكينياتا . لقد وفق بين ارتباطاته المسيحية الشخصية وتجاربه وسياسة القومية ، ولكن ليس بغير التحذير الجدى التالى :

« من وجهة نظرى المخلصة . . . أن الأغلبية الساحقة من المسيحيين بما فيهم رجال الكهنوت ، غير مهيئين جدلياً ليتصارعوا بنجاح مع المنتقصين والمغتابين لديننا العظيم » .

وإن الحفرة الفاغرة فى طريق النخبة الشابة ، التى قد تحتذى حذو أوولو . لهى الشك المطلق فى أن المتكلمين بلسان المسيحية ليسوا فقط غير مهيئين جدلياً ؛ ولكنهم أيضاً غير قادرين على التخلص من أرجحة الغرب . ووقعت حادثة فى ضحى الاضطرابات بالكونغو تصور مدى هذه الحساسية . دعيت مجموعة من الكونغوليين الذين لم يجاوزوا العقد الثانى من العمر إلى الولايات المتحدة للاشتراك فى برنامج خاص لجمعية الشبان

المسيحيين فى صيف سنة ١٩٦١ . وقد أنتجت تجربتهم هذا الخطاب الحارق المفتوح الموجه إلى جمعية الشبان المسيحيين فى بيترسبورج :

« لقد خاب جداً أمل اتحاد الطلبة الكونغوليين بالولايات المتحدة الأمريكية فى أهداف سياستكم الخاصة بجمهورية الكونغو والتى وضحت خلال معاملتكم لمواطنيها الشبان .

« إن التصريحات التى أدلى بها المستر أدوين م . بودنبوف (جريدة نيويورك تايمز أول يونيو سنة ١٩٦١ ص ٣) ؛ صاحب المصانع ببترسبورج ومدير جمعية الشبان المسيحيين تبرهن بجلاء على وجهة نظركم الضيقة ، الأنانية والاستعمارية تجاه الكونغو الذى دعوتم أبناءه إلى هذا البلد ، بغية تثقيفهم، أساساً سياسياً وفكرياً .

« وطبقاً لصاحب المصانع المذكور اسمه آنفاً : فإن الرحلات السابقة كانت تشمل طلبة الجامعات الذين قد تبلورت أفكارهم فعـــلا . أما طلبة المدارس العليا فإن احتمال وجود أفكار محددة لديهم أقل » .

يستطرد مدير جمعية الشبان المسيحيين فى بترسبورج من أجل الديمقراطية الأمريكية ، التى أصابها العفن فعلا ، فيقول : « وكنتيجة للرحلة سوف يتعرض الكونغوليون للمثل الديمقراطية الأمريكية » . أى عار ومذلة لنا حين نتحقق من أن هذه الضيافة التى تقدمها جمعية الشبان المسيحيين لم يكفلها الكرم المسيحى وإنما كان هدفها السياسة. (هذا ما يسوغ ريب الإفريقيين فى المنشآت المسيحية فى إفريقيا) [وما بين القوسين من كتابتى] .

« وإن جمعية الطلبة الكونغوليين بالولايات المتحدة الأمريكية لمدركة للمناورات المؤثرة فى القلاقل الموجودة بالكونغو. وما دامت سياسة جمعيتكم المسيحية موجهة إلى إذلال جمهورية الكونغو بالتسلط على عقول أبنائها فكرياً ، فإننا ننصحكم بإرسال هؤلاء الشبان الصغار إلى أوطانهم . . . »

وإن أى شخص يستفسر فى هذه الأيام عن الحالة الدينية لطبقة شباب إفريقيا المثقف سوف يجد عقدة الريبة هذه قريبة من سطح الجلد . وبقدر

ما يستطيع « غير الإفريقى » أن يقترب من فهم الميراث النفسانى المسيحى لنخبة إفريقيا يكون تقديره للحدة التى ترفض بها فكرة أن يكونوا « مسيحيين أوربيين سوداً » . ولا يجوز زيادة تبسيط الفكرة بأن نقرر أنهم يرفضون المسيحية . إنها لا تعنى هذا إطلاقاً — ليس حتى الآن على الأقل ، إذ أن النخبة الإفريقية الآن فى وسط معركة حضرية تولد ريبة . وحساسية ، وتتطلب معرفة الذاتية . قبل عمل أى ارتباطات روحية إضافية .

الأسس الأخلاقية للمجتمعات الإفريقية « الجديدة »

هذا موضوع حساس من أكثر من ناحية إذ لا يوجد حتى الآن هيكل كبير لمجموعة أفكار متماسكة بين الإفريقيين المثقفين لمغزى « الخير » مما قد يبرز إجحافات بالأفراد أو الجماعات . ولكن قد قام ج . ب . دانكو ، الفيلسوف الغانى ، بمحاولة منظمة لاستخلاص ما هو حقيقة — إفريقى (على الأقل من الناحية الجغرافية) فى الفلسفة الأخلاقية . وقد حاول فى كتابه « نظرية آكان فى الله » أن يعرف أسس الأخلاق فى مجتمع إفريقى تقليدى . ويقول إن تصور الخير فى الحياة الإفريقية إنما ينبع من معرفة الإفريقى " لله " على أنه " السلف العظيم " » . ويسطر دانكوا : « أنه رب حقيقى عال ، وهو سلف للرجل الأول وشبيه بالإنسان . وبصفته هذا السلف ، يستحق أن يعبد ، وهو يعبد فعلا فى الرئيس السلفى الظاهر أى الزعيم الطيب للمجتمع (أيًّا كان حجم هذا المجتمع) . وكل الأسلاف الذين يكرَّمون هكذا هم من سلالة السلف الأعظم . وكل رئيس لمجتمع ، لأنه مَن هذه السلالة ، يجب أن يعيش طبقاً لكرامة الأول » .

والهبوط إلى ما دون الكرامة هو هبوط دون كرامة الرب . وأكبر العائلة سنًّا أو رئيسها هو الأقرب لمثل هؤلاء الأسلاف .

ويشرح دانكو أن رئيس العائلة الآكانية يطلق عليه « نانا » ، تماماً كما يطلق على الله ، السلف الأول ، نانا . ويطلق على زعيم القبيلة ، أو الجنس ، أو الأمة اسم « نانا » لأنه هو أيضاً يسير فى خطى « السلف الأعظم » .

وكل يعبد ، تماماً كما يعبد السلف الأعظم . كيف تستخرج من هذا

فلسفة أخلاقية ؟ ويجيب دانكو « إن السلف الأعظم هو الأب الأعظم ، وكل الناس الذين من دماء هذا السلف ، هم منه ، وهم من دم واحد يشتركون فيه مع جميع الناس الذين خلقهم من دمه ونفسه . والحياة ، الحياة الإنسانية ، هى استمرار لدم واحد يخرج من الدم الأصلى للمنبع العظيم لهذا الدم . وإن استمرار هذا الدم فى المجتمع الأزلى هو العامل الهام الوحيد فى الكون . إنها فكرة تستحق العبادة فى حد ذاتها ، وإن الهدف من المجتمع هو أن قيمة هذه الحياة يجب أن يحافظ عليها باستمرار جنباً إلى جنب مع كرامة السلف . وأى شىء أقل من هذا الكمال يجعل الحياة انحلالا ، وتضارباً فيما يجب أن يستوحى منه أناس من دماء الأسلاف ، ذلك الدم الذى يجرى فى السلف الأعظم » .

ويدعى دانكوا أن للمفهوم الأكانى للرب نتيجة أخلاقية مباشرة ، أو على الأصح ، مجموعة من النتائج الأخلاقية المتشابكة تتطلب شرائع أدبية .

وليست هذه الشرائع ، من وجهة نظر دانكوا مجرد شرائع تقليدية بل إنها يمكنها أن تساير الأساليب الجارية للتفكير فى قيمة مركز الإنسان كتركيب عضوى حى فى مجتمع عالمى . « وبالاختصار ، يمكنها أن تعطينا أساساً أخلاقياً لمجتمعات إفريقيا الحديثة » .

وتقرر الشريعة الأولى أن كل مجهود نحو الخير يحتفظ به كحسنة للروح ، ويساعد تقدم وصول الفرد إلى مكانته . ويقول دانكوا : « إن سيادتنا أو تسلطنا على النظام الطبيعى أو الطبيعة المادية . . . يسجل لنا أول نصر للروحانية . وعليه فإن المعرفة التقليدية أو العلمية ، التى يكتسبها المجتمع النامى ، أو يمتلكها على تقدمات الطبيعة مصيرها أن يستعملها المجتمع لزيادة خيره لكى يعيش الإنسان فى المجتمع حياة أفضل » .

ويقول داكوا : « إن ما هو واضح أن تجربة المجتمع المتراكمة ، تجربته أو مجهوده فى الخير ، ومعرفته بقوانين الحياة ، وكفاحه ضد المرض والجهل

ومجهوده لاستئصال الألم ، كلا بل حتى تحكمه فى العلاقات البشرية بواسطة قوانين المجتمع — هى كلها أساليب للتراث التقليدى الذى يهدف إلى إنجاز أعظم وأكثر رسوخاً ، وإلى ارتباط أكبر وأكثر واقعية لكل مجهودات الناس الفضلاء مع الخير الخالص » .

وتؤكد الشريعة الثانية أن التقدم الأخلاقى راسخ ومستمر بالنسبة لمكاسب الفرد أو استحقاقاته من الماضى التى تسلم إليه كتقليد ليكون الأساس للتجربة العنصرية . « ويؤكد دانكوا هنا أن دور التقاليد الإيجابى فى الحياة الإفريقية هو القدرة ليس فقط على إعطاء المعرفة والفضيلة المجتمعين ، ولكن أيضاً لنقل حكمة استمرار المقاومات .

وتقرر الشريعة الثالثة مبادئ القيــادة كما تضع أساساً أخلاقياً للدراسة : « إن التقدم العنصرى يسهل تطور الخصائص الفطرية فى الأفراد البارزين الذين يطلقون مثل هذه الخصائص عامدين لتقوية التقاليد المتوارثة » .

وهكذا ، كما يعبر عنها دانكوا : « . . . إن أيقن الطرق إلى الخير والله هو التعليم » . أما عن الأفراد البارزين — المحاربين العظام ، رجال الدولة ، القادة الدينيين ، المفكرين إلخ — فهم القناطر التى يمكن بها للمثل العليا أن تنتقل من العائلة إلى القبيلة أو الجنس ، إلى البطن أو الأمة ، وأخيراً إلى البشرية كوحدة — إلى التعرف على عائلة لإنسان الحقيقية الوحيدة ، البشرية نفسها كالهدف الوحيد الكامل الذى يقبله العقل ، العائلة الوحيدة لكل خير الله . وهذا يتضمن :

الشريعة الرابعة — إن التحرير المتعمد لخصائص بارزة تتطلب مجالات متجاوبة للترسع يؤدى إلى تفهم مجتمعات أكثر تكاملا وإلى الاعتراف المنطقى بالبشرية كالمثل الأعلى الشامل لتحقيق وتطوير التجربة العنصرية .

ولا توجد حكمة أسمى من معرفة أن معانى الحياة وقيمتها وتوافقاتها إنما تكون أغنى وأوسع بالمشاركة . وإن حالة اتحاد جميع الأجناس البشرية هى أعظم الإيماءات الإلهية ، وأسمى المثل العليا . ولكن نظراً لعنت الإنسان المتزايد فإنه من الصعب التنبؤ كيف يشكل هذا التقدم الأخلاقى نفسه . على أن احتمالات التقدم المستقبلة مشار إليها فى :

الشريعة الخامسة — « إن التجربة الكاملة ، أو تحقق الكل ، يبقى بعيد المنال طالما أن التجربة العنصرية تستبعد جزءاً من الكل ، وطالما أن قوة البشر الأخلاقية لا تستطيع بلوغ الشيء المتكامل » .

إن تحجر قلوب الأجناس البشرية المستمر يجعل أى تفاؤل ميسور غير معقول ، ومع هذا فإن الحياة « يلوح أنها تحمل الإنسان فى تيارها ، بالرغم من المقاومة التى تبديها إرادته الأنانية ضد فائدته الشخصية . « إن الإنسان ليتجنب بها طريقة ليضع العراقيل أمام طريقه نفسه ، فهو يقيم نظماً وسلطات لا معنى لها ، وهو يكلف بميزات جماعية لا داعى لها ، وهو يخترع القوى وآلات التدمير ، وبهذا فهو يولد ، وينشر كتلا ضخمة من الشر الأخلاقى والجسمانى . . . » .

وبالرغم من هذا كله فإن التقدم ما زال مستمرا « كما أن تحقق الوحدة أكثر من مجرد أمل مثالى . . . إنه مصير البشرية » .

ويناقش دانكوا فى أن شرائع آكان الأخلاقية يمكنها أن تسحق إلى الأبد كل تصور بأن الأجناس غير الأوربية ليست لها أية قدرة على الابتكار تتعدى القدرة البدائية ، إن الأدوات العامة لمزاولات آكان الأخلاقية والدينية ، إذ هى متميزة عن التفكير الآكانى ، توضح أن المدركات الأفريقية التقليدية « تتحول بسهولة إلى الأوضاع المستقرة فعلا فى المجموعة المتعارف عليها من المعلومات الإنسانية » ، وبمعنى آخر ، يوجد لدى الإفريقيين فى داخل حضارتهم الخاصة ، صنع خميرة أساس أخلاقى لمجتمعات إفريقية جديدة . ويدعى أن هذه الأفكار ليست مع

المسيحية ولا ضدها . ونراه يرسم فى شعر ،كتبه أيام دراسته ، خطوط النتائج النظرية الملائمة :

إن الإله الكامل هو الرب
والله ليس مسيحياً
ولا هو بمسلم
ليس ملكاً
ولا هو ثلاثة
وليس واحداً
ولا كثيرين
ولكنه الكل
والكل هو كل الكل
الكل شامل
كل الكل هو الله
الله شامل .

ومن المبالغة الكبيرة أن ندعى أن شعور النخبة الإفريقية يتكأكؤ لأى مدى ضخم حول أعمال دانكوا ، ولكن المثقفين كثيراً ما يشيرون إليها . وهى مرجع هام فى إجابتهم على الاستطلاعات عن ماهية اقتراح الإفريقيين فى إحاطة مجتمعاتهم الناهضة بأخلاق مشتركة .

وقد أدلى آخرون بدلوهم ، مستعملين إطاراً سياسياً وهو الذى يفضله هذه الأيام معظم النخبة على النظريات . ويتصور ليبولد سنجهور أن « الأمة الزنجية الإفريقية » ، كنوع من المجتمعات الإفريقية الاشتراكية ومجتمع تعاونى ، أو أفضل من ذلك ، « شراكه أرواح » . وتعد — بالنسبة له — كلمتا الشعب ، والمجتمع تعبيرين مترادفين . وإن المثل الأعلى لمجتمع جديد هو جماعة « حيث يتعرف كل فرد فيها على موضعه من المجموع ، والعكس صحيح . ولكن الوحدة ، شركة الأرواح ليست

كافية ، لكى يصبح شعب ما أمة ، يجب أن ينمو الفرد . . . يجب أن نؤكد أساساً ثقافياً للأمة المستقبلة ، وذلك بتحديد الخصائص الجوهرية للمدنية التقليدية الزنجية الإفريقية التى بامتزاجها مع المساهمات الأوربية سوف تندرج إلى نهضة .

ويشير سنجهور فى رسالته المسماة « الاشتراكية الإفريقية » ؛ بإصبع الاتهام إلى الشيوعية السوفييتية :

« إن الجزع على كرامة الإنسان ، والاحتياج إلى الحرية — حريات الإنسان وحريات الاجتماعات — التى تغذى أفكار ماركس وتمنحها كيانها الثورى — هذا الجزع وهذا الاحتياج غير معروفين للشيوعية . . . إن دكتاتورية البروليتاريا (الطليعة العمالية) التى كان يجب أصالة أن تكون مؤقتة فقط ، أصبحت دكتاتورية الحزب والدولة حين جعلت نفسها دائمة . ويقول ما نادوريا (بالسنغالية) حين عاد من موسكو : إن الاتحاد السوفييتى قد نجح فى بناء اشتراكية ، ولكن بتضحية الدين والروح » .

ولكن لسنجهور أيضاً كلمات حادة عن النظام الرأسمالى بالولايات المتحدة الأمريكية ، عن طريقة الحياة الأمريكية ، بأجورها المرتفعة ، والثلاجات الكهربائية وآلات الغسيل وأجهزة التلفاز . وهو يتنبأ « أن المجتمعات الإفريقية الجديدة سوف تنحاز إلى رأس المال الحر ، والمنشآت الحرة . إننا لا نستطيع أن نغمض أعيننا عن التمييز العنصرى على الرغم من أن الحكومة الاتحادية تحاربه ، كما أننا لا نستطيع أن نقبل (تغلب نجاح مادى على طريقه فى الحياة) [الكتابة بين قوسين منى] » .

ويقول : إن الاشتراكية الإفريقية تقف فى طريق متوسط . « إنها دفعة ثورية تخالط القيم الأخلاقية والدينية بمقابلاتها السياسية والاقتصادية . وفى هذه الثورة ، يجب أن يؤدى الزنجى الإفريقى دوراً حاسماً ، يجب

أن يهب بإسهامه الفريد فى نوعه لإنشاء مدنية عالمية جديدة » . ثم يختتم سنجهور .

« إن الإنسان يستمر فى اعتبارنا الأول : إنه يكون " ميزاننا " وهذا هو ما يمثله الإنسان فى علم مالى ، بجذوره فى الأرض ، وعينيه تجاه السماء . وسوف أختتم بشرح دوستوفسكى ، الروسى ، إن الأمة التى ترفض أن تحتفظ بموعدها مع التاريخ ، والتى لا تعتقد فى نفسها أنها حاملة لرسالة فريدة — هذه الأمة قد انتهت ، ومستعدة لأن توضع فى متحف . إن الزنجى الإفريقى لا يمكن أن ينتهى قبل أن يبدأ . فليتكلم ، وفوق كل شىء فليفعل . دعه يأتى ، كخميرة ، برسالته إلى العالم لكى يبنى مدنية عالمية » .

وليوبولد سنجهور كاثوليكى رومانى . والبلد الذى يرأسه « السنغال » يسيطر عليه الإسلام . وهو يفخر بهذه الحقيقة . وفى سنة ١٩٦٠ حينما سحب السنغال من اتحاد مالى ولم تعترف به الولايات المتحدة فوراً ، أنب إدارة أيزنهاور مقرراً أن السنغال كانت أكثر ديمقراطية من الولايات المتحدة فى ناحية واحدة على الأقل ، هى أنه لم يؤخذ عليه دينه فى السنغال كما يلوح أنه أخذ على كندى فى الولايات المتحدة ، وقد أثبتت الانتخابات الأمريكية أن سنجهور كان مخطئاً ، ولكن الجدل حول الموضوع أثر فيه .

ولا يعنى شيئاً أن نظرة سنجهور إلى المجتمعات الإفريقية الحديثة هى نظرة أخلاقية روحية ، وليست من وجهة نظر مسيحية . فلدى كثير من الزعماء الإفريقيين آثار قوية من تنور القرن الثامن عشر ، وإنسانية القرن العشرين . وحينما امتطت « الزيكية »[1] متن الكفاح النيجيرى للاستقلال ،

(١) حركة زيك كانت بمثابة منظمة الشباب غير الرسمية لحزب المجلس الوطنى بنيجيريا والكاميرون ، وهو أقدم الأحزاب السياسية بنيجيريا إذ تأسس سنة ١٩٤٤ برئاسة هربرت ما كيولى والدكتور ناماى أزيويكى السكرتير العام للحزب وهو يطالب =

حلل المؤلف الإفريقى ، أوريزو ، عناصرها ، واستنتج أن الدكتور أزيوكى كان إنسانياً ينبوعه الروحى جيفرسون وتوم باين . وكانت خطبته فى حفلة مبايعته كأول حاكم عام إفريقى لنيجيريا ذات مغزى واضح عن « توسع المراكز الإنسانية » .

وكنت حاضراً شخصياً فى قصر الشعب الكثير الزخرف بليوبولدفيل حينما تولى سيئ المصير باتريس لومومبا رياسة وزراء الكونغو و وعد قائلا : « سوف نضع حداً للضغط على الفكر الحر ، وسنجعل فى إمكان كل المواطنين أن يتمتعوا تمتعاً كاملا بالحريات الأساسية التى نص عليها إعلان حقوق الإنسان . سوف ننجح فى الضغط على كل التمييزات أياً كان نوعها — وسنعطى كل فرد مكانه العادل الذى تؤهله له كرامته الإنسانية ، وعمله وإخلاصه لوطنه .

وقد تحادثت بعدئذ مع السيد / لومومبا النحيل الملتحى . ولاح لى أنه أصغر حتى من سنيه الأربع والثلاثين حين وصف تخلصه من وهم العقيدة الكاثوليكية الرومانية التى نشأ فيها . وقال إنه كان مقتنعاً بأن يكون دنيوياً . وكان يشعر بأن الكنيسة لم تكن أهلا لتفهم المجتمع الإنسانى الذى يرغب الوطنيون الإفريقيون فى بنائه .

ويُعد سيكوتورى ، رئيس غينيا ذو الأربعين عاماً ، زعيماً آخر

= بوحدة نيجيريا دون تفرقة لقبيلة أو إقليم . وكان من أثر حركة زيك أن ولدت دعوة جديدة سنة ١٩٤٨ فى مدينة أبا لإنشاء كنيسة وطنية لنيجيريا . وقد بلغ من تطرف هذه الحركة أن أعلنت أنها قامت بخلق كنيسة تخدم الشعب ، وليس الاستعمار ، كما ، أعلنوا عداءهم للبعثات التبشيرية الأجنبية ، لأنها لم تعمل يوماً من أجل حرية نيجيريا بقدر ما عملت من أجل أعداء الحرية . ومما يجوز ذكره أن هذه الحركة تعد امتداداً لحركة زيك من الناحية الدينية ، وأنها كانت تعمل بتأييد الدكتور أزيويكى . (المترجم)

يتكلم بلسان الإنسانية . وحين وجه خطابه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٩ قال : « إن صعوبات الحياة العملية قد لقنت الإفريقى فضائل يمارسها أحقر هؤلاء الأشخاص يومياً . هذه هى فضائل التضامن ، وحب العدالة ، والثقة فى الإنسان ، الشعور بالأخوة ، وأخيراً الاحترام للمجتمع . وتعنى إفريقيا بزراعة هذه الفضائل وتعهدها وإهدائها للعالم كأول دلالة على مشاركتها فى حياة عالمية . . . . وإنى لأعتقد مخلصاً أن هذه الحقبة من التاريخ سوف تشهد بداية طور جديد من التطور الإنسانى ، حتمية سوف تستمر ، بدون أن يقلب الأساس العالمى الحالى أو نظام قيم الأمم والشعوب . وأعتقد مخلصاً أن مصير الأمم سوف يتوقف أساساً على طبيعة ارتباطاتها ومدى المسئوليات التى سوف تضطلع بها فى بناء المجتمع العالمى وفى بناء العالم الجديد . . . . وإنى لأبتهل إلى الأمم وإلى كل الشعوب المستعدة للاشتراك فى العالم الجديد ، عالم انتصار العقل والقيم الإنسانية » .

ونأمل أن يكون الدكتور دانكوا مدركاً لاستعمال سيكوتورى للشريعة الرابعة من الآداب الآكانية فى خطابه إلى الهيئة العالمية .

وخطط توماس ديوب — السنغالى ، فى مؤتمر عالمى عن « الحكومات النيابية والتقدم الوطنى » فى جامعة كلية عبدان ، المنعقد تحت رعاية « مجلس الحرية الثقافية » ، ما عدّه التركيبات الطبيعية للشخصية الإفريقية التى ستبنى حولها المجتمعات الجديدة . وقد عدد :

١ — إرادة لا تلين فى أن تكون ذاتها كاملة وحرة فى كل الميادين .
٢ — إرادة مصرة على إعادة القيم الحضرية الإفريقية إلى مكانها المناسب .
٣ — الإصرار على تحسين مدنيتها للشخصية بإدخال عناصر المدنيات الأخرى التى يلوح أنها تستحق الاشتراك فى خلق مدنية عالمية .
٤ — تكييف غير عادى واضح فى كل مراحل تاريخ إفريقيا .
٥ — شعور دقيق بالعدالة فى العلاقات الإنسانية .
٦ — روح كبيرة وأمينة للأخوة التضامنية يمتد إلى جميع شعوب الأرض .

٧ – إصرار عميق على الاسهام الكامل فى التغييرات العالمية .

ويؤكد ديوب بعد ذلك الجزأين الأخلاقيين الآخرين من « الشخصية الإفريقية بهذا التعليق الإعلانى » . . إن روح التضامن الإفريقية لا تتحدد بأبناء إفريقيا ، إنها تمتد إلى كل الشعوب : حيث إن هذه الشعوب تنتمى أيضاً إلى العائلة الإنسانية الكبيرة التى يجب أن تخدمها لمصلحة المجموع .

وعلى الرغم من أن دانكوا ، وسنجهور وأزيويكى ، واومومبا وتورى وديوب ، يتكامون بلهجات مختلفة فإنهم يضغطون على نظرية التضامن والتعاون والمجتمع . وهم فى هذا متساوون فى إخلاصهم للمعتقد الروحى التقليدى الإفريقى الذى يقرر أن المجتمع أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد . وسواء أنشأ هذا عن حنين إلى الوطن ، أم عن شعور بالواقع . فإن تطلعاتهم إلى الأخلاق السياسية الحديثة يساندها يقين بأن النظم التقليدية للعلاقات الاجتماعية استطاعت أن توفق بين كفاح الأفراد وتطلبات الحياة الاجتماعية . وإن اهتمامهم الآن ليتجه إلى إيجاد توازن مماثل بين احتياجات الدولة الحديثة وتعبير قوى عن شخصية الفرد . ومع ذلك ليس فيهم من هو محدود فى قوميته بوطنه . كلهم تجذبهم العالمية بقوة ، بغض النظر عن الجنس ، أو اللون ، أو الدين .

ومما يلفت النظر أيضاً تفاؤلهم الواضح بالإنسان ومصيره فى العالم . ومهما كانت تأثيرات المسيحية الأخرى على أفكار النخبة . فإنها لم تفلح فى إقناع المثقفين بالخطيئة الأولى . إنهم مخلصون « لنمو » قوة الرجل على الكامة . إنهم مقتنعون بالانتصار النهائى للعقل والقيم الإنسانية . ويصف دانكوا المعتقد الآكانى التقليدى فى إعادة التجسد كإيمان بمصير الروح العفيف النهائى . تعود الروح إلى الأرض « غير كاملة طبعاً ، وإلا لما كانت فى حاجة إلى العودة . ولكن لتكمل » . وقلائل من المثقفين هم الذين قد يعترفون بالاعتقاد فى إعادة التسجد ولكنهم يتمسكون جداً

بإيمانهم فى مصير منتصر الإنسانية ناضجه متكاملة تماماً .

ويسود الرأى أنه مهما كانت الاعتقادات النظرية الشخصية ، فإن أفراد النخبة الإفريقية يتخيلون أن الأساس الخلقى لكل مجتمعاتهم التقليدية والناهضة إنسانى التركيز أو بشرى . وحينما يلجئون إلى القيم الروحية الإفريقية التقليدية فإنه لا يكون فى ذهنهم أى خيال عن إله أو أرواح ، ولكن ذكريات مثالية عما وصفه أحد أصدقائى الإفريقيين " بالأيام الخوالى الطيبة ، حين كان من الممكن الاتصال الشخصى . وحين كانت الأواصر العائلية قوية بقوة كافية لتمنح اطمئناناً شخصياً غير محدد ، حتى لو لم يكن هناك حسابات فى البنوك . حين كان أمثال فرويد وجينج لا يمكنهم أن يجدوا وظيفة . فى مجتمعات لم يكن فى استطاعة أى من آدم سميث أو كارل ماركس أن يكسبوا مناقشة . وإن كان يستمع لكليهما ، ويقال لكل منهما أين أخطأ » .

وتنظر النخبة الإفريقية إلى الأساس الأخلاقى للمجتمعات الإفريقية الجديدة على أنها قد رست على أفضل ما فى القيم التقليدية ، من عواطف متشاركة عن أولوية الحياة الإنسانية فى مجتمع أو شركة أرواح ، شعوراً دقيقاً بالعدالة فى الصلات الإنسانية ، والروح الكبيرة الأمينة للأخوة التضامنية :

التدريب الأخلاقى والدينى فى التعليم الإفريقى

إن السنوات القلائل القادمة غالباً ما سوف تقدم فيضاً من الأخبار من المثقفين الإفريقيين عن هذا الموضوع . ولا يوجد ، فى أثناء كتابتى ، سوى القليل من الإرشادات المنظمة من المصادر الإفريقية : وإن الاحتياج الحالى للتعليم من أى نوع ضرورى لدرجة أنه يفوق جميع الاعتبارات الأخرى . ولكن هنالك دلائل على مناقشات مستقبلة ضخمة عن الفلسفة

الروحية للتعليم الإفريقى .

وقد قامت المدرسة الإرسالية[1] ، كخادمة للدين ، بتعليم معتقدات ومدركات المسيحية طبقاً لأضواء الطوائف والملل المتكفلة المختلفة التى تقوم بكفالة المدرسة نفسها . وقد كانت المسيحية الطائفية فى أثناء فترة الاستعمار . هى جوهر التعليم الدينى عملا فى كل المدارس الابتدائية والثانوية وعلى المستوى الجامعى . وعلى الأرجح سوف يستمر هذا الطابع حيثما تشجع الكنائس أو يسمح لها بإدارة نظام تعليمى . ولا داعى للقول بأنه فى المناطق التى يسود الإسلام فيها ، يكون هو أساس التدريب الأخلاقى فى معظم المدارس .

وهنالك دفع الآن فى كل المناطق المستقلة إلى نظم دراسية تديرها الدولة . كما أنه ليس هنالك أدنى شك فى أن مسألة التعليم الدينى فى المدارس العامة سوف يصبح موضوع جدال . وقد ألغت حكومة غانا فور تسلمها الكليات الجامعية ، تعليم اللاهوت من المنهاج . ونظراً للشعور القرى بالابتعاد بالتعليم عن الاستعمار ، بتأكيد القيم الإفريقية ، فإنه من المحتمل أن جزءاً كبيراً من الرأى المثقف سوف يعضد إلغاء التعليم الدينى من المدارس . وهذا رأى يتلاءم مع النظر الغالب من أنه يجب أن تبقى الهيئات الدينية المنظمة منفصلة عن الدولة .

وقد سجلت بعض الأحاديث عن هذا الموضوع مع طلبة إفريقيين جامعيين . وكانت تعليقاتهم ذات قيمة ، أساساً من ناحية اقتناعهم العاطفى . ومن المقطوع به أن أحداً لن يتأثر من منطقهم ، ولكن مثل هذه العواطف هى مهد بذور للقضايا المستقبلة . وقد قال أحد الطلبة : قسماً لن أسمح لابنى أن يعانى من العقلية الدينية التى خالطت تفكيرى ونظرى طوال هذه المدة . وإننى حينما أنظر ورائى إلى الماضى ، وماضى عائلتى ، أعتقد أن النتيجة الأساسية لتدريبنا المسيحى هى أننا صرنا ساذجين لدرجة مذهلة . إن كل ما عليك أن تفعله هو أن تذهب

إلى إنجلترا أو أمريكا لتجد حقيقة أنهم لا يلقون أى اهتمام بالدين . انظر أين هم الآن ؟ إن الدين يجب أن يلقى به بعيداً عن كل المدارس إذا كنا سوف نتقدم لأى مدى . لا تظن أننى قاس ، أو أننى غير شاكر للتعليم الذى تلقيته من المبشرين ، ولكن التعليم ، فيما يتعلق بالناحية الدينية ، كان لا فائدة منه » .

وتشكى طالب آخر من أن التدريب الديني فى المدرسة كان تهديداً للأخلاق أكثر من مساعد لها . قال : « إنك لا تعلم الآداب فى المدرسة ، فإن هذا شىء – تتعلمه فى المنزل . وإنى أعتقد أن الإفريقى له وجهة نظر أخرى عن التدريب الأخلاقى ، فلتقم المدرسة بتعليم الحساب والعلوم والفنون ، وتدع للأهل تعليم الأخلاق ، فإنهم يعلمون ما هو أفضل لأبنائهم أحسن من أى مدرس . هل تحب أن يعلّم مدرس ، وجودى المذهب ، أولادك الأسس الأخلاقية ؟ تصور كل هذه التهوسات النفسية السارية فى هذه الأيام ! أهذا هو الذى تريده ؟ هل تريد أن يخبر أولادك بعض هؤلاء المذهبيين النبهاء أنه لا يوجد شىء مقدس فى الجنس ؟ أو هذا الغث عن التعبيرات النفسية المنطلقة ؟ لا . لا . لا ، إن الآداب هى ما تكتسبه فى عائلتك وفى مجتمعك . إنك تراقب حياة الراشدين وتحذو حذوهم ؛ وعلى الراشدين فى المجتمع أن يظهروا مثالا طيباً ، وعلى الأطفال أن يتابعوهم » .

وإذا كان الاحتجاج الساخط هو طريق بعض شباب المثقفين حين يفكرون فى الناحية الروحية فى التعليم ، فهنالك آخرون ذوو عقول أرصن ، وتفكير أكثر اتزاناً . وقد قال لى عالم سياسة إفريقى « إن شعورى الشخصى أنه من المحتم أننا سوف نصادف لباساً كاملا من اختلاط الشخصية ، فهنالك تغيرات كثيرة جداً فى وقت واحد . تكاد هذه التفاعلات تكون بدأت ، وسوف تزداد فى السنين القادمة . وهى ليست من نوع المشاكل التى يمكن للمجتمع أن يشرع لها ، كما لا يمكن الحد منها بالالتجاء

إلى فرض هذا النظام الدينى أو ذاك فى المدارس . وإننى لا أعتقد أن الحياة الأخلاقية لأى شعب يمكن أن تغذى بإضافة القواعد المذهبية أو اللاهوتية إلى المنهاج الدراسى . ومن ناحية أخرى فإن هنالك مكاناً لإنماء مثل هذه القيم الأخلاقية إذا اعتقد مجتمع معين ، بالتجربة والتقدير ، أن هذا يستحق العناء من أجل سعادة أفراده . مثل هذه القيم يجب أن تُغذى فى المدارس . وعلى أى حال ، فما تحتاج إليه المدارس الإفريقية هو نوع من التدريب يستطيع الفرد بمقتضاه أن يكون شخصية مع مجتمعه ، ومع ثقافته ، ومع المجموعات البشرية الراقية . وإننى أشاطر آراء الذين يعتقدون أن تنمية النظام والأخلاق أجزاء مهمة فى التعليم . على أن أى نظام للتدريب الخلقى للإفريقى إذا ما تضمنه التعليم ، ليس إلا حلا جزئياً لمشاكل الحياة . أعتقد أنه ليس فى استطاعة الإفريقى أن يكتشف مستوياته الأخلاقية وقيمه النفسية ، حتى دينه ، إلا حين يتداخل فى مصير شعبه وقدره ، وحين يستطيع أن يشارك الذين من حوله أفراحهم وآلامهم ، وحين يستطيع أن يشاطر كلية فى التجربة الجماعية للبشرية جمعاء . إن المشكلة الضخمة بالنسبة لى هى هل يمكن تعليم النخبة بدون أن يفقدوا شخصياتهم كإفريقيين؟ يجب علينا أن نتعلم كيف نبنى مجتمعات جديدة يستفاد فيها من القيم التقليدية . هذه هى المشكلة الروحية الحاسمة فى التعليم الإفريقى . إننا نتكلم عنها كثيراً ، ولكن كل ما توصلنا إليه هو الحاجة إلى حل » .

هنالك نوع من الإجماع الواضح بين النخبة على المهام الجوهرية للحكومات الإفريقية المستقلة . وليس هنالك مثل هذا الإجماع حينما نأتى إلى إيضاح أشكال للتدريب الأخلاق والروحى فى التعليم . وقد سئل آيو أوجو نشاى ، ذو اللسان الحاد ، والذى ينفد صبره إذا ما تعلق الموضوع بغوامض « الشخصية الإفريقية » ، عن حل للموضوع ، فكتب « أوه . أظن أنه سوف يكون شيئاً كهذا . كونوا أنفسكم . اعرفوا

ماضيكم وحضارتكم ، إذ أن شعباً بدون إحساس بالقيم وبالماضى ليشبه سفينة بلا سكان . ولا تترددوا فى أن تضيفوا إلى تراثكم الحضرى من الحضارات الأخرى بعض الأفكار والمهارات ترددون التحية إلى العالم الغربى الذى لم يتردد فى أن ينهل من فنكم وموسيقاكم لإنعاش ماالدية فى عالم الحضارات : كلنا بناءون وكلنا مقترضون ومقرضون .

إن الأساس الأخلاقى للتعليم فى أفريقيا لم يزل فى طور البزوغ ، كما يصفه هربرت ياسين ، « إلى نتاج التحليلات المنطقية المتشابكة بين أفكار نخبتها (أى النخبة الإفريقية) ، والحقائق المتغيرة التى يطالب منهم التصرف فيها » .

هل الشيوعيه بديل روحى ؟

فجأة أصبحت الشيوعية فى إفريقيا موضوعاً عالميًا جوهريًّا . ولم يكن هنالك داع منذ ما لا يزيد على خمس سنوات مضت لأن نشير إليه فى هذا الكتاب . أما الآن فإن الكتلة السوفييتية والصين الشيوعية قد نجحتا فى كسب مواطئ أقدام هامة فى إفريقيا . إن مبعوثيهما الثقافيين ، وبعثاتهما التجارية ، وفنييهما يتحركون بسرعة . هنالك وطنيون يميلون إلى الشيوعية ، وهنالك فئات شيوعية قليلة ولكنها متحمسة . ويكون من العمى أن نتجاهل التحدى الشيوعى فى إفريقيا ، ولكننا نميل ، فى الجزء الخاص بنا من العالم إلى الخطأ فى أقصى الاتجاه العكسى . وفى رأيى أن أحسن معالجة سياسية لهذه المشكلة هى مقالة والترز لاكير الصادرة فى نسخة « الشئون الخارجية » فى يوليو سنة ١٩٦١ . أما السؤال الذى يعنى به هذا الكتاب ، فهو مدى قوة أو ضعف ميل النخبة الإفريقية الروحى إلى الاشتراكية .

ويدعى بيتر رينتر فى « موت إفريقيا » أن نهاية إفريقيا مؤكدة ما لم تكن هناك مساعدة خارجية حالّة .

ويدعى رينتر أن إفريقيا لا يمكن أن تنقذ نفسها ، ولكن يمكن إنقاذها ، وطالب بمساعدة أمريكية ضخمة ، فكان رد فعل النخبة الإفريقية على نظرية رينتر مسلياً . فالنخبة تستنكر تحليله وعلاجه . ويتهمون رينتر بأنه يتبع خطى " واجبات الرجل الأبيض " وأنه يقترح أن ثمار الرأسمالية هى البديل الوحيد أمام إفريقيا من كارثة الانحدار إلى الشيوعية . ويحق لرينتر أن يتألم لكلا الادعاءين . وإذا كانت هنالك أية راحة للغرب من الإجابات العاصفة عن مثل مجهودات رينتر ، وجب البحث عنها فى الإنكار المنفعل لمعظم النخبة ، من أنها يجب أن تختار بين الشيوعية والغرب .

وكثيراً ما أعلن الرئيس نكروما أن « إفريقيا لا تتوجه إلى أى من الغرب أو الشرق وإنما إلى الأمام » ، وينطبق هذا النداء على أكثر من مجرد التخطيطات السياسية أو الحربية . إنها تمثل كل نطاق التطور العمدى الإفريقى . إنها تشير إلى مواضع الروح .

إن الإجماع بين المثقفين على أن الشيوعية ليست لها جاذبية روحية للإفريقيين . وقد رفض سيكوتورى مراراً وبشدة الشيوعية كطريقة للحياة الإفريقية مع أن كثيرين من الغرب يعدونه متأثراً بنفوذ الكتلة الشرقية :

« إننى أرفض أن أسمح لحزبى أن يتبع طريق الشيوعية النظرى . إذا أراد بعض الأشخاص أن يفعلوا ذلك ، فليؤسسوا الحزب الشيوعى الغينى ، ولكن يجب أن يدركوا أن ب . د . ج . (حزب سيكوتورى) سوف يعارضهم تحت رئاستى ، فالشيوعية ليست طريقاً لإفريقيا . إن النزاع الطبقى هنا مستحيل . لأنه لا توجد طبقات ولكن مراكز اجتماعية فقط . إن الأساس الجوهرى لمجتمعنا هو التضامن العائلى والقروى » .

وأجاب تورى حينما سئل عما إذا كانت بلاده تعدل نفسها لتتابع الصين :

« لماذا يلزمنا فعل ذلك ؟ إننى جئت لتوى من الصين . إنها بلد مغاير تماماً لبلدنا ، ولم أجد شيئاً فى تجربة الصين يمكن أن يثير اهتمامنا » .

وقد زار توماس ميلادى – فى أثناء جمع معلومات لكتابه « صور لازعماء الإفريقيين » – مكتبة فى كوناكرى عاصمة غينيا لها شهرة فى عرض الكتابات الشيوعية . وقد وجد هناك عدداً كبيراً من هواة القراءة من الشباب الغينى . وحينما ترك ميلادى المكتبة تبعه شاب كان من الواضح أنه يريد أن يخاطبه . ودعاه ميلادى إلى قهوة ، وبعد محادثة ودية قال الغينى : « لا تنزعج كثيراً من المكتبة الشيوعية . لقد أخطأ الشيوعيون خطأ واحداً . إن عدداً كبيراً من كتبهم أساء إلى الرب وقالوا أشياء سيئة عنه . ونحن الإفريقيين فى طبيعتنا الاعتقاد بكائن أعظم – إننا نعتقد فى نوع من الإله ، ربما فى رب المسيحيين ، أو إله المسلمين ، أو ربما إله فى الجبال ، ولكننا نؤمن بالله ، وقليل منا من يستطيع أن يحتضن ، إذا تكلمنا من الناحية الفلسفية ، شيوعية ماركس » . ويؤكد نبابانيى هذا وإن يكن عن طريق آخر :

« إذا ما نظرنا إلى موضوعنا (إفريقيا والشيوعية) ، فلن نجد علاقة بين القومية الإفريقية والشيوعية . إن القومية الإفريقية تنبع من إفريقيا ؛ وليس من موسكو . إذا أمكن أن يستمر الإفريقى فى كراهية الشيوعية من كل قلبه ، وروحه ، وقوته ، كما يكره الاستعمار الأوربى الآن ، فبها ونعمت ، لأن تفضيل نوع من الاستعمار على آخر لهو منتهى الغباء ، وسوء تقدير قاتل . إن إفريقيا لا تستطيع أن تستفيد من الشيوعية أكثر أو أقل مما استفادته من الاستعمار . وإن رفاهيتها الحقيقية ليست فى تفضيل أى منهما ، وإنما فى رفضهما جميعاً . إذ أنها ، تحت سيطرة أيهما ، سوف تستمر فى أن تشغل مركزاً ثانوياً وتتحمل بالتالى الإذلال الذى يستتبع هذا المركز » .

ويعزز عمق إحساسات النخبة ، العوائق الهائلة التى تقف فى سبيل

التوافق ، على القوى الحيوية فى داخلى . لقد حاول الاستعمار أن يفعل الشىء نفسه ، وكذلك حاولت المسيحية ، ولم تفلحا . وسوف تخفق الشيوعية أيضاً . إن هنالك شيئاً فى أعماق يمقت الظلام ، وللشيوعية نصيب الأسد فيه . كيف يتسنى لى البقاء بغير التوافق والقوة الحيوية ، وبغير وجود « شاكا » فى ؟ كيف يمكن للجنس أن يبقى ؟ أجب أنت عن هذه الأسئلة ثم أخبرنى عن الشيوعية . إن ما نريده هو « الأفرقة » ، النظام الذى يسمح للعقل أن ينمو ويتداخل من الشعور والغرائز . إن هؤلاء البيض الأذكياء لا يعرفون أن التوافق هو أيضاً جزء من الحياة » .

ووضع الثالث الموضوع كما يلى : « أنت تعلم ماذا فعل نكروما . قد طارد الشيوعيين . وفعل ناصر الشىء نفسه . وقال كل من تورى ومبويا إنه لا الصين ولا روسيا تتكلم عنا : إن هذا يوم جديد ، يوم إفريقيا ، ليس بيوم روسيا ، بل ليس أيضاً يوم واشنجتون . فلا تخلص واشنجتون من جمعية كلوكاوكس كلان واستعمارها الحديث . هذه هى إفريقيا ، إفريقيتنا » .

على أنه يكون من الغباء أن نعد الموضوع قد انتهى . إن الشيوعيين المخلصين قلائل الآن فى إفريقيا ، ولكن صبرهم طويل ، كما أن ثقتهم فى النجاح النهائى غير محدودة ، وكانوا مقتنعين حتى الآن بمسايرة الزعماء الوطنيين حتى وإن كانوا مسيحيين مخلصين مثل مبويا ونيريرى ، أو مسيحيين غير طائفيين مثل نكروما ، أو مسلمين مثل تورى . إن القومية الإفريقية كانت تنظر إلى الغرب كالعدو الأول للحرية . وقد ساعد الزعماء القوميين ، سواء بإرادتهم أو بغير إرادتهم على بناء جبهة معادية للغرب .

وهنالك تشدد حديث فى الخط الشيوعى ، وقد وصمت نشرات الاشتراكية الإفريقية الزعماء الوطنيين المعروفين بالرأسمالية الوطنية . واتهموا بأنهم قادة غير أكفياء للحركات الوطنية نحو اشتراكية صحيحة ، وحدد العالم النظرى ف . كومالو الطريق الجديد فى مقالة ظهرت فى عدد « الاشتراكى الإفريقى » الصادر فى يناير سنة ١٩٦١ . كتب : « إنهم (القادة

توغل الشيوعية فى الروح الإفريقية .

فالبلاد الإفريقية المتحررة حديثاً غيورة جداً على استقلالها . وإن المتعصبين للإفريقية قد اكتشفوا فعلا أن كثيراً من التيارات التحتية سوف تتدفق قبل تحقق أى نظام لوحدة الدول الإفريقية . ولا مفر من صدام بين الشيوعية والقومية سواء فى صيغتها المحلية أو المتعصبة للوحدة الإفريقية . وهى ترتطم أيضاً مع الاشتراكية الإفريقية . ومع كل المجهودات الإفريقية لتكوين شخصية ووسائل أهلية للسياسة ، والاقتصاد والثقافة والدين .

وترتطم الشيوعية بالإضافة إلى حواجز القومية والتطلعات الإفريقية الأخرى نحو الشخصية والوحدة ، بالمقاومة القبلية نفسها المركزة فى التقاليد التى تسأم الحركات القومية . وبالإضافة إلى ذلك ، فعلى الشيوعية أن تجعل نفسها مقبولة للروابط العائلية القوية والأحاسيس الأهلية التى هى أساس بناء حياة المجتمع الإفريقى ، إنه تحــدّ قوى جداً لعلماء النظريتين الماركسية واللينينية .

وعلى الرغم من أننى لا أستطيع أن أوصى بها كتقديرات موضوعية متزنة فإننى أعرض ثلاثة تقارير لأفراد من النخبة كردود فعل مثالية لاتخاذ الشيوعية بديلا للروحية الإفريقية .

قال أولهم : « هل تصدق أننا سوف نستبدل بكين وموسكو بروما ومكة ؟ هذا هو الطريق لفقد الشخصية . إن الاستعمار والاستغلال قد لقنانا أهم درس . لن تنتابنا الغفلة . . لن نقبل تفوقاً سواء أكان أبيض أم أصفر » .

وقرر الثانى : « يلوح لى مما سمعت عن البلاد الشيوعية أنها قاتمة ، ربما قد تحملنا الاستعمار المدة الطويلة التى قد تحملناها لأنه لم يفلح فى الإخلال برتابة حياتنا . لست أعنى أننى أوافق على الاستعمار بأى أشكاله، إننى أعد الاستعمار شراً ، هو شر الرجل الأبيض . ولكن الشيوعية سوف ترغب فى الضغط على

الإفريقيين الحاليين) يميلون غالباً لأن يكونوا ضيقى الأفق والعقل ومحافظين ، وهم معرضون لأن يتبعوا هدى مصالح طبقة الأقليفية ، وليس مصالح الطبقات جميعها . وهم غالباً محددون ، وذوو نعرة وطنية ، كما ينقصهم بعد النظر . وغالباً ما يكونون انتهازيين وميالين إلى مهادنة الاستعماريين مقابل مكاسب ضئيلة ولو بتضحية المبدأ ، لأنهم يخشون النشاط الثورى لجماهير العمال والزراع » .

ووسعت طبعة أخرى من المجلة نفسها فى هجومها على القادة السياسيين لتشمل جميع النخبة الإفرايقية : « يحتل المثقفون فى ظروف المجتمع الحديث مركزاً وسطاً بين الحكام والمحكومين ، الرأسمالية والبروليتاريا . . . . . ويتذبذب كثير من هؤلاء المثقفين من معسكر إلى آخر ، وهم بهذا يتأرجحون بلا أدنى حول بين الظالمين والمظلومين ... يجب أن نتذكر أن النخبة كمجموعة توارثت عدم الاتزان وهى بالتالى غير جديرة بالقيادة » .

ومن البديهى أن معنى هذا أن النخبة لا يمكن الوثوق بها إلا إذا انضمت إلى الحركة الشيوعية . وعلى الرغم من أن الحركة الشيوعية فى إفريقيا صغيرة لدرجة أنها لا قيمة لها ، فإنها تظاهرها شبكة أيدلوجية عالمية تولد صدمة نفسية ضخمة لشعوب تشق طريقها بصعوبة للتخلص من الذل ، والبؤس ، وعلى الرغم من ضآلة النفوذ اللينينى حالياً فى إفريقيا ، فإنه يستمر فى غرس بذور ينتج عنها إخفاق الأنظمة الوطنية الحالية فى النمو . وإن جزءاً من المشاكل الروحية التى تقابلنا فى إفريقيا ، هو أننا يجب أن نعامل بلا تفرقة، المعادين للغرب ، وهم غالباً يعادون المسيحية أيضاً ، وإنصاف اللينينيين من النخبة نفسها التى يهاجمها اللينينيون المخلصون . أضف إلى هذا الاستعداد المتطرف (وإن لم يكن شيوعياً) للقادة الوطنيين الإفريقيين للتعامل مع موسكو وبراغ وبكين تماماً كتعاملهم مع واشنجتون وباريس ولندن : ويمكنك بعد هذا أن تتصور الإغراء الشديد الذى يجب أن نقاومه بشكل ما ، فى أن نمزج الوطنيين المتطرفين لنعدهم معاً أعداء للمؤمنين بالرب . وليس

لمدى الرجال الذين يقرعون طبول نغم الحياة الإفريقية اليوم ، أى نية فى أن يسمحوا للعالم الشيوعى بأن يكون مصدر هذه الموسيقى ، ولهم شعور مطابق تماماً بالنسبة للغرب ، ولكن مع فارق ، إن تجربة جرح الروح كانت مع الغرب. مع الرجل المسيحى الأبيض ، ولم تكن هناك تجارب مماثلة مع الروسيين أو الشيوعيين ، وبينما لا يوجد تجاذب قاطع نحو الغرب أو الشرق فإن رد الفعل عكسى (وأكثر شخصية) ضد الغرب .

إن مستقبل الشيوعية كنوع من الالتزام الروحى فى إفريقيا ما زال طى المجهول ويتضمن مقاومة انتشار الشيوعية ، المساعدات المادية الغربية للتطور الاقتصادى . ولكن يحتاج الأمر إلى شىء آخر ، هو التعاون الثقافى والروحى الذى يمنح بصفة أخوية بين متعادلين .

هذا تحد يجب على الغرب إن يبرهن على أن فى مكنته أن يقابله تماماً .

فى سبيل البحث عن ذات

تكلمت كثيراً عن انتعاش « القيم الإفريقية » وعن « سير القومية » ومن السهل أن نفترض هنا أنه لا يوجد سوى علاقة « السبب والنتيجة » البسيطة ، كانت الحضارة الغربية إبان فترة الاستعمار تطغى على الشخصية الإفريقية وعلى الأديان الإفريقية : أما الآن وقد زال ثقل سيطرة الغرب ، فإن الروح الإفريقية تستعيد نفسها — تساندها الانفعالات القومية ، وبالرغم من أن هذا التفسير منطقى فى تعليل الموقف السطحى ، فإننى متأكد أنه يخفق فى موافقة النزاع النفسى الأعمق النخبة الإفريقية ، أعنى البحث عن النفس .

وفى رأيى أن التعرف على الشخصية أصبح المشكلة الحقيقية المؤلمة للنخبة الإفريقية ، ومن العجيب أنها مشكلة علاقتها ضئيلة حالياً مع وصف أحد أعضائها نفسه بأنه مسيحى أو مسلم ، وجودى أو دنيوى .

إن المثقف الإفريقي ، أولا وقبل كل شيء إفريقي.. لو أنه بقي على حالته التقليدية ؛ ولو أن هذه الحالة التقليدية لم يصبها اضطراب ؛ لما أصبح تعرفه على شخصيته مشكلة . ولكان إذاً مكانه في العالم محدداً ودقيقاً . وحتى لو كان قد انتابه الفضول للبحث عن أسرار الحياة لظل ينهل من ثقته الأساسية بمن هو ، وماهيته ، ومكانه اللائق في نظام الأشياء ، ولكانت حيويته قد روضت ، ومرنت : ومهدت ونسقت مع حياة عائلته العادية : وعشيرته وقبيلته ؛ لكان إذاً قد وقف ، ليس كفرد ، في سلسلة الحياة المكونة من أعضاء سابقين هم « تيم » وأعضاء حاليين يمكن رؤيتهم . وأعضاء مستقبل هم الذين سوف يولدون .

إن الصدام بين إفريقيا والغرب موضوع معقد للغاية . ولكن أحد نتائجه هو خلق القائد الجديد — الإفريقي ذى التعليم الغربي . الرجل القادر على ترجمة تجارب شعبه ، ليس فقط من خلال حكمة التقاليد الإفريقية المتجمعة وقيمها . ولكن أكثر من ذلك — من خلال قيم الغرب الثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

كان الإفريقيون المتعلمون تعليماً غربياً يصبحون في الأيام الحوالى مهتدين متحمسين للمدنية الغربية بما فيها من قوة وما تعده من خلاص . اعتنقوا المسيحية ، وهاجموا العادات والمعتقدات القديمة ، وتغنوا بمديح الديمقراطية والعلم . وليس معنى هذا القول بأنهم تنكروا لتراثهم الإفريقي ، أو سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا دعاة للمبشرين والمديرين المستعمرين : قطعاً كان بعضهم قد خدع . وباع قليلون أنفسهم . ولكن معظمهم كان مؤمناً في إخلاصه لقضية إصلاح مجتمعاتهم الإفريقية المنحلة والمغلوبة على أمرها عن طريق إنجيل المسيحية والديمقراطية والتمدن ، وقد روعوا من هذه الهوة التى تفرق بين شعوبهم والغرب . وسخروا من تخبط العادات القديمة . ليس لأنهم محطمو أصنام لا عقل لهم . ولكن لأنهم رغبوا مخلصين في أن ينزعوا اليد الميتة من رقبة حضارتهم ، وكان الميل نحو المسيحية ثقافياً

أكثر منه لاهوتياً . نظروا إليها على أنها وسيلة لإعادة الإنشاء . أكثر من وسيلة لنزع الشخصية الإفريقية .

وكانت مأساة العمل التبشيرى المسيحى فى إفريقيا هى فى إخفاقها رؤية هذا التطلع فى ضوئه الحقيقى . وفى أغلب الأحايين ، كان ينظر إلى هؤلاء الإفريقيين الذين يتمثلون بخنوع لطلبات المزيج الإرسالى . على أنهم مهتدون ممتازون فى حين أنه كثيراً ما كان يحكم على الإفريقيين الأكثر قدرة ونشاطاً — هؤلاء الذين يريدون ربط المسيحية مع الحضارة والتاريخ الإفريقيين — بأنهم ما زالوا يتعلقون بالماضى الوثنى .

إن هؤلاء المتعلقين بالماضى الوثنى « هم الذين قدرلهم أن يحملوا قضية العدل السياسى العظيمة لشعبهم . وبهذه المناسبة أخطأت الإرساليات خطأها الفاحش الثانى : بذلوا قصارى جهدهم للبعد بالمنشآت الإرسالية الإفريقية عن السياسة . كان النشاط السياسى ينظر إليه كخطيئة لا تقل فحشاً عن تعدد الزوجات أو ختان البنات .

وابتدأ كثير من النخبة الإفريقية يجد شعوراً جديداً يقيم حضارة أسلافهم. وقال كينياتا حين استجوب سنة ١٩٤٨ فى مدرسة جيثونجورى التى كان ناظرها : « تسألنى أى طريق سوف أسلك حسناً ، أعتقد أن أحسن طريقة أوضح بها هذا أن أقول أقطع خشباً ميتاً من كثير من معتقداتنا الإفريقية القديمة . وأقوم بتقوية ما أظن أنه أحسن الأشياء فى طريقة حياتنا الإفريقية . وإننى أرسلهم إلى المدرسة بشىء أرجو أن ينجح . أريدهم أن يفخروا بأنهم إفريقيون : لا أريد أن أصنع عدداً كبيراً من البريطانيين السود ! »

إن ما بدا كحماس للبشارة الغربية تحول إلى معاداة للغربية ، وأصبح الإنجيل الحديث) . وإن المساوئ الجوهرية للحياة الإفريقية قد ألقيت أمام باب الاستعمار الغربى .

ولما قادة النخبة ، وأقدامها تسير الآن على طبول القومية ، شعث الجماهير وراءها كمجموعة الخدم المعذبة من الاستعمار ، والتى قدرلها أن

تحمل إلى النصر بشارة الأفرقة ، ليس لخلاص أبنائهم وأحفادهم الإفريقيين فحسب ، ولكن أيضاً للقصاص العادل ، والخلاص من الرجل الأبيض ، هذا الرجل المادى المقاتل .

إن فترة الكفاح للاستقلال هى فترة بطولية وقد اتحد فى المجهود المشترك كل المسيحيين والمسلمين ، وزعماء الوثنيين ، والاشتراكيين ، والشيوعيين والديمقراطيين ، والمثقفين القوميين . ولكن تحقق الاستقلال يشابه من بعض الوجوه انتهاء حلم . إنه شيء أن يصور أنبياء فى وسط فترة بطولية ، رؤيا القدس الجديدة ، وشيء آخر يختلف تماماً ، أن تعالج ضغوطاً داخلية وخارجية نفسية وسياسية ، اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية لدولة استردت سيادتها واستقلالها حديثاً .

وبدأ دور النخبة فى التغير فوراً فى المناطق المستقلة . كانوا فى السير إلى الحرية الأقلية المبدعة . كانوا « القسيسين » الحديثين ، سبباً كى ومشكلى الحضارة الإفريقية ومحبيها ولكن ما إن يتم تسلق جدران الحرية حتى يجب أن تصبح النخبة هم الفنيين فى النظام الجديد . يجب أن يقبلوا تعيينهم فى الوظائف الحكومية أوكرجال أعمال أوكمدرسين فى المدارس . ويصبح الجو العقلى للكفاح القومى ، جوًّا عابساً لإصدار مئات القرارات اليومية ، وبعضها حقير وبطيء لدرجة مذهلة .

وتعد الشخصية الإفريقية صيحة بديعة للم الشعث وإثارة الحرب . ولكن الإفريقيين كائنات بشرية ، ولابد أن يظهر فيهم وهن اللحم والدم .

ويروى وليم كوندون ، القصصى الجامبى ، فى قصته « الإفريقى » ، عن عودة شاب من غرب إفريقيا إلى موطنه بعد عدة سنوات من الدراسة فى إنجلترا ؛ فيقول :

« عدت إلى أرض تموج بالحركة ، ملتهبة بنشاط محموم مرهق . ولم تكن المظاهر المادية فحسب هى التى تغيرت تماماً : المبانى ، الموانى ، الطرق ، الجسور ، وغيرها . وإن كان التغير هنا كان رائعاً بما فيه الكفاية ، ولكن ما أدهشنى أكثر كان التغير فى الأشخاص ، وسرعان ما وجدت أنه أيضاً

كان مصدر إزعاج . كان واضحاً أن هنالك أهدافاً جديدة للحركة ، وتصرفات جديدة حيال الآخرين . . . . كانت هنالك رغبات جديدة أيضاً لا أذكر أنها كانت موجودة بمثل هذا الصخب من قبل — الشهوة لسلطة سريعة ، وغنى سريع . مع عدم الاهتمام بنوع الوسائل المستعملة فى سبيل ذلك ، وحتى الاستعداد لاستعمال العداء القبلى القديم ، وأحياناً إثارته عمداً .

أعطيت هذه الأشياء حدًّا متناهى التطع . . . لم تكن المسألة مجرد أن الإفريقى كان رجلا طيباً بسيطاً أفسده بين يوم وليلة اتصال وثيق بصاحب شرير . ولكننا قد وصلنا إلى نقطة وجدنا من الصعب جدًّا علينا أن نجد فيها مكاناً للاستقرار على أى شىء . إننا فى خطر من أن نفقد شعورنا بالاتجاه ، وبالغرض ، وبالثقة فى أنفسنا » .

وإنه لمن مميزات النخبة أن أعضاءها لهم قدرة كرنادون على أن ينظروا إلى أنفسهم . وإلى دولهم الجديدة نظرة مجردة . إنهم يعلمون كثيراً عن الغرب ، وهم لامشاحة أيضاً فى أوطانهم ، فى إفريقيا ، ولكنهم غير مرتاحين تماماً فى أماكنهم . وعلى قدر ما يعرفون عن التاريخ الإفريقى ، والعادات الإفريقية ، والتقاليد الإفريقية ، وأشباهها ، فإنهم تعلموها تماماً كما تعلموا عن الغرب — خلال الدراسة والقراءة والمحادثة . ومن جهة أخرى فإنهم قد اكتسبوا كلا الحضارتين : الإفريقية والغربية ، لأنهم ببساطة قد ولدوا فى الوقت والمكان الذى ولدوا فيه . ولا يمكنهم حقيقة أن يهملوا أيهما . إنهم فى عالم وسط بين الاثنين .

إننى مقتنع بأنه بالرغم من الصلوات التى ينطق بها الفم « لغرائز نشاكا » وبالرغم من طقوس دين السلف ، فإن المثقف العادى لايضع فيها قلبه وروحه حقيقة . يمكن أن يحترم الآلهة والطقوس القدامى ، لكنه لايمكنه أن يؤمن بهم بإخلاص . قد يكون لديه بقية من الإعجاب بالسحر والكهانة ، وربما لا يزالان يجدان استجابة داخلية ، ولكن عقليته قد ارتبطت بالعلم . هو يحلم أحلام يقظته العميقة بمزج مستقبل للحضارتين الإفريقية والغربية ، ولكنه

فى الوقت نفسه يروّض عقله بالموجودات مثل توينبى وفرويد ، وجنج ، وزن البوذى . وفى المعظم تسيطر على حياته كزوج ، وأب ، وجار ، وطالب ، وساع لقوته ، قيم ومستويات الطبقة المتوسطة ، بمثل قدر الإخلاص والثورة اللذين يجدهما الشخص فى شبيهه الغربى . له إحساسات مختلطة من الإعجاب ، والسخرية لهؤلاء الذين يبدو أنهم مستقرون ومرتبطون بنظام مسيطر على كل ما فى الحياة سواء أكان هذا هو الإسلام ، أم المسيحية ، أم الشيوعية ، أم الغرفة التجارية ، أم الروحانيات القبلية .

ويفرّ بعض زملائه المثقفين من التوتر الناشئ عن محاولة موازنة القيم الإفريقية والغربية منطلقين إلى ارتباط كامل ، كالانضمام إلى الحزب الشيوعى ، أو الإخلاص التام للمسيحية ، أو الاندفاع كلية نحو عقيدة الأسلاف . ولكن المثقف العادى ، ونسبة كبيرة جداً من زملائه ، لا يستطيعون أن يرغموا أنفسهم على مثل هذا القرار الخطير . هم يستمسكون بالعالم السفلى . يشكون أحياناً من اضطراب الأعصاب ، وارتفاع ضغط الدم ، ولكنهم دائماً يعيدون بفخر تأكيد نواياهم بأنهم سوف يجدون طريقاً جديداً » .

وقد تغلغل التمدين ، وهو هدية الغرب الروحية إلى إفريقيا ، فى قلوب ، وأرواح ، وعقول النخبة الإفريقية . ومع هذا فحينما يتكلم الإفريقى من قلبه ، أو روحه ، أو عقله فهو عادة معاد للغرب ، وكثيراً ماهو معاد أيضاً للمسيحية . إن بحثه عن نفسه معقد لدرجة مؤلمة ، فمن ناحية ، هنالك استياؤه الداخلى من الغرب ، ومن ناحية أخرى هنالك الحقيقة الظاهرة أنه — وإن كان الغاصبون الغربيون قد ذهبوا ، أو سوف يذهبون قريباً — لا يمكنه أن ينصح بأنه يقذف وراءهم بهدية المدنية ، وإذا كان يرغب فى أن يكون شيئاً آخر سوى « أوربى أسود » فيجب أن يكون لديه شىء يمنحه للغرب . ولهذا كان انهماكه فى الفن الإفريقى ، والشعور الإفريقى ، والموسيقى الإفريقية ، والروحانيات : ولكن كم من الغربيين يعلم بهذه الهدايا ؟ فئة قليلة لا تتعدّى

أصابع اليد على أحسن الفروض . إذاً يلزم أن يكون هناك شيء آخر ، خصيصة ضخمة فريدة يمكن لإفريقيا إبرازها للغرب ليراها كل الغربيين . وتؤكد النخبة كهيئة وجود شيء » ، ولكن ليس هنالك اتفاق حقيقي على ماهيته — كلا ليس « مونتو » ، وليس دين الإله ، ولا حتى الشخصية الإفريقية .

فلنكن متأكدين من هذا . نحن الغربيين لانستطيع أن نحل مشكلة الإفريقي الروحية له . وفوق كل شيء يجب ألاّ نقف على رأسه صارخين بأن عليه أن يختار ، أن يفاضل بين طريقنا والرجعية ، بين المسيحية والشيوعية ، بين السير وراء الغرب كلية ، أو العودة إلى الأدغال !

كتب الشاعر الغاني داي انانج :

هنا نقف

متأرجحين بين مدنيتين

إلى الخلف ؟ إلى أيام الطبول

وإلى رقص الاحتفالات في ظلال

أشجار النخيل الباسقة

أو إلى الأمام ؟

إلى الأمام :

صوب ماذا ؟

صوب الأحياء القذرة حيث يرتطم الرجل بالرجل ؟

إلى المصانع

إلى ساعات الطحن الشاقة

في طاحونة غير بشرية

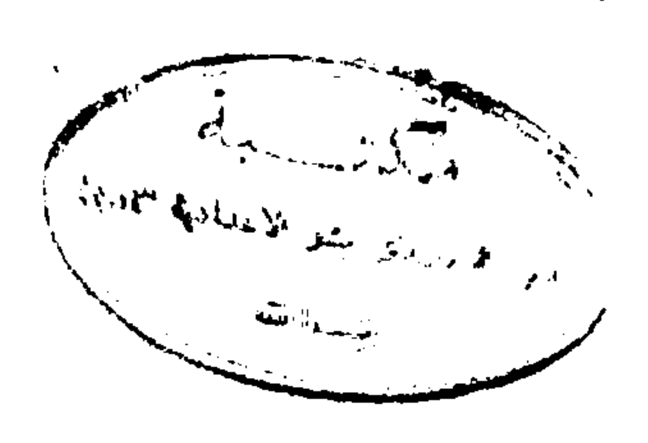
فى فترة طويلة من الذهول لاتوقف فيها ؟

لقد قام الغرب بالكثير ليحصر الإفريقى بين احتمالين لا ثالث لهما . ولن يقبل الإفريقى ذلك . إن ما يريده هو أن يصير رجلا جديداً بجد وسياة لإعادة تشكيل حياته على نحو فريد خلاق ، سواء بالنسبة لشخصه أو لحضارته ، كيف يفعل هذا ؟ هل يمكنه أن يفعله ؟ وإذا فعل ، فما هى الصورة التى سيكون عليها هذا الرجل ؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ وبخاصة الإفريقى نفسه . ولكننا يمكننا جميعاً القول بأن له الحق فى المحاولة .

فهرس

الصفحة





تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧١/٣٤٧٤

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١